

زينة

زول السعدوي

www.ashrafbooks.com
www.ashrafbooks.com

قصة

لغة



نوال السعداوي

زينة

رواية



www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

تصميم الغلاف : عاريا شعيب

الإهداء

إلى كل الأطفال البنات والأولاد،
الذين يولدون في الشارع،
دون أب ولا أم،
دون مدرسة ولا كنيسة ولا جامع،
دون أوراق مختومة بالنسر،
لم يعيشون ويكبرون ويصبحون،
كواكب تقشع الظلام،
تملأ الأرض بالضوء،
وتُغيّر العالم.

© دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الطبعة الثانية ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-385-0

دار الساقي

جناح النور، شارع العمري، طرابلس، ص.ب. ١١٢/٥٢٤٢ بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٢٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ (١١)، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ (١١)

e-mail: info@daralhsaqi.com

صورتها لا تغادر ذاكرتي، ملامحها محفورة في خلايا المخ، داخل عظام الرأس وسرايب العقل الباطن، تشبه صورتي في المرأة وأنا طفلة في الثامنة من عمري، كنت أمشي في الشارع حاملة حقيبة كتبي، قدماي تدبآن على الأرض داخل حذاء جلدي أسود لامع، كعبه مربع منين، يندق فوق الإسفلت بانتظام وثبات وغمخر، فأنا ابنة الأستاذ الكبير زكريا الخريتي، تظهر صورته في جريدة الصباح داخل برواز مربع، فوق عموده اليومي بعنوان «أمانة العهد».

كانت في التاسعة من عمرها، ملامحها تشبه ملامحي، باستثناء العينين. المقلتان الكبيرتان في عينيها، تشعان ضوءاً أزرق إلى حدّ السواد الداكن، بلون عين الليل، تنجذب عيناها إليهما دون إرادتي، تفتحهم المقلتان سطح وجهي، تنفذان مثل حدّ السكين إلى البؤرة الخفية، في عمق الأحشاء؟

كانت تبدو أكبر مني في العمر، كأنما جاءت إلى الدنيا قبلني بمائة عام، كأنما ليس لها عمر، ليس لها أب ولا أم، ليس لها بيت ولا غرفة نوم، ليس لها شرف أو عذرية تخاف على ضياعها، ليس لها شيء تملكه أو تفقده في الدنيا أو في الآخرة؟

كانت بنتاً مثلي، ومثل كل البنات في المدرسة، لكن جسمها كان طويلاً نحيفاً صلباً كأنما غير مصنوع من اللحم، يشقّ الهواء وهي تمشي كالرمح، قدمها حافيتان بغير حذاء، قدوس بهما على الحصى والزلط والشوك، دون أن تشعر بألم، أو تسيل منها قطرة دم.

فوق السبورة أكتب اسمي الثلاثي بالطبشور الأبيض، «مجيبة زكريا الخريتي»، برمقي المدرس بإعجاب، يقول للبنات إنني سأكون مثل أبي كاتبة كبيرة، تظهر صورتي في الصحف والمجلات، والشاشة المضئية. يقول إن جدي الخريتي باشا كان زعيماً وطنياً، وإن عائلتي العريقة الأصل تمتد جذورها إلى سعد زغلول، وعزّابي باشا، تصل في امتدادها إلى مكة المكرمة، وفريش، والنبي رسول الله؟

كان لكل تلميذة أب معروف، تكتب اسمه إلى جوار اسمها فوق السبورة، تفخر كل واحدة منهن بأبيها أو جدّها، أو خالها أو عنها، أو أي رجل آخر معروف في العائلة؟

إلا هي، كانت تقف عند السبورة منتصبية الرأس، يأمرها المدرس أن تكتب اسمها، تمسك إصبع الطبشور الأبيض بأطراف أناملها الحادة المدببة، يستدير جسمها لتواجه السبورة، ترى ظهرها الصلب المشدود العظام، فوق مريئتها رقعة مشغولة بخيط أسود، في قدميها صندل ليس له كعب، تكتب اسمها بحروف كبيرة متعرجة مثلنا نحن الأطفال:

زينة!

يلسّمها المدرس بالعصا الخيزران فوق ردفها من الخلف، فوق الرقعة في المريئة من قماش الدمور أو الجبردين؟
أكتب اسمك الثلاثي مثل زميلاتك!
تمسك إصبع الطبشور وتكتب:

- زينة بنت زينات!

ثم تستدير بجسمها لتنظر إلينا، المقلتان الكبيرتان في عينيها تشقان وهجاً أسود والمدرّس يشخط:

- اكتب اسم أبيك وجديك يا حمارة!

تنقذ الشعلة السوداوان بنار زرقاء، تلقي إصبع الطبشور إلى الأرض، تدوسه بقدميها، ثم تمشي برأسها المتصب إلى مقعدها في الصف الأخير.

كان المدرس يعلمنا مبادئ اللغة والدين، يقول إن الطفلة التي تحمل اسم أمها هي بنت زنى،

كان يعلمنا المفرد والجمع، «كلمة» جمعها «كلمات»، «نحية» جمعها «نحيات»، «زنى» جمعها «زنات»،

فوق جدران المراحيض في المدرسة أصبحنا نكتب اسمها: زينة بنت زينات. لكنّها لم تكن تقرأ ما نكتبه، ولا تحضر إلى المدرسة كل يوم كما نفعل، كانت تأتي مرّتين في الأسبوع لتحضر حصّة الموسيقى يومي الثلاثاء والخميس مع أبلّة مريم، ثم صدر القرار بفصلها من المدرسة، لم أجد أراها إلا صندفة في الشارع.

أبلّة مريم كانت تدرّسنا العزف على البيانو، تمسك أصابع

زينة بنت زينات في يدها، ترفعها عالياً في الفصل لتراها، تفخر
أبلة مريم بأصابع زينة، تقول إنها خلقت للموسيقى، إنها طفلة
موهوبة، ليس في الفصل واحدة موهوبة مثلها، تلمح الدموع في
عيني زينة، لا تسقط من عينيها دموع واحدة، فقط تشتد اللوعة في
المقلتين السوداءين حتى نظرت أنها دموع، ثم تخيب ظنوننا حين
تشرق عيناها بإبتسامة، تضيء وجهها الشاحب النحيل، يشتت
الضوء من تحت بشرتها السحراء الدكناء المشققة، لتصبح ناعمة
وردية اللون.

أرسلت أصابع زينة الطويلة النحيلة الصلبة وهي تعزف، تجري
أناملها القوية فوق أصابع البيانو بسرعة الضوء، ينطلق صوتها وهي
تغني أنشودة الوطن، صوتي إلى جوار صوتها متحشرج مبسوح،
مكتوم، ومكبوت، أصابعي إلى جوار أصابعها قصيرة سميكة ليس
فيها عظام، تشبه أصابع أُمِّي البضة البطيئة الحركة، أُمِّي بدور هانم
حرم الأستاذ الكبير زكريا الخريتي، وهي أيضاً أستاذة كبيرة تحتل
مكانة أدبية مرموقة.

في الليل، كانت صورة زينة بنت زينات تظهر لي في الحلم،
أراها جالسة فوق المقعد الصغير بدون ظهر تعزف على البيانو،
دون أن تنظر إلى أصابعها، عيناها مرفوعتان إلى النوتة الموسيقية،
تقلب الصفحة وراء الصفحة، تحفظ اللحن عن ظهر قلب، كأنما
هي صاحبة الأنغام التي تعزفها، صاحبة الكلمات في الأغنية،
وأصابعها تتحرك وحدها دون إرادة منها.

لم أعرف معنى كلمة «زنى» التي ينطقها المدرس بطرف
لسانه، كأنما هي بصفة يلفظها من بين شفثيه، لكنني تصورت أن
موهبة الموسيقى لها علاقة ما بالزنى، وإلا فكيف يمكن بنت الزنى
أن تتفوق علينا جميعاً في الموسيقى؟

في أعماقي كنت أحسدها، أراها تمشي في الشارع بقماتها
الطويلة الصلبة، تتحرك ذراعيها وساقها بسهولة، ترقص وتغني مع
أطفال الشوارع بحرية، لا تخاف أن تتأخر عن العودة إلى البيت،
ليس لها بيت تعود إليه، ليس لها أم تنهرها أو أب يصفعها على
وجهها إن تأخرت.

في الليل، قبل أن أسقط في النوم كنت أسمع أبي وأُمِّي
يتشاجران، كان عمري خمسة عشر عاماً، تلميذة بالمدرسة
الثانوية، أسترجع كلمات المدرس حين كان يقول إنني سأصبح
كاتبة كبيرة مثل أُمِّي الأستاذ الكبير زكريا الخريتي.

أرى صورة أبي منشورة داخل البرواز، فوق وجهه ابتسامة
مشرقة، لم أكن أرى هذه الإشرافة في البيت، كان أبي صامتاً
معظم الوقت، يعود من مكتبه في الجريدة ليدخل غرفة مكتبه في
البيت، غرفة كبيرة جدرانها الأربعة تغطيها رفوف الكتب، مكتبه
إلى جوار النافذة الزجاجية المطلّة على النيل، من خشب الأبنوس
المنقوش، تغطيه الصحف والمجلات، صورته معلقة فوق الجدار
داخل برواز ذهبي، ينعني أمام رئيس الدولة يتلقى الجائزة التقديرية
الكبرى في عيد الأدب والفن.

كان أبي يحذرنني من الخروج إلى الشارع، كان يقول لي إن

بنات العائلات الكريمة لا يلعبن مع الأطفال في الشارع، إن جرائم الاغتصاب خطيرة، تنشر الصحف من هذه الحوادث كل يوم، تزايد الجرائم مع تزايد الفقر والبطالة، شباب يتخرجون من الجامعات دون عمل من دون أمل في الحصول على الطعام. فما بال الحصول على زوجة، يعيشون الحرمان ويفتصون البنات في الشوارع.

كان شيء ما يجلبني إلى الشارع، داخل البيت كانت الجدران مطلية باللون وردية زاهية، لكن الهواء كان ثقيلاً كأنما يعينه دخان شفاف لا تراه العين، لا يشمه الأنف، أحسه يسري فوق جسدي ناعماً مشبعاً بالكراهية، بالصمت، بالاكئاب والحزن الخفي.

كانت نوافذ بيتنا مغلقة دائماً بالزجاج المزدوج والستائر منعاً لدخول التراب المتصاعد من الشوارع، وأيضاً الضجيج المتزايد، الأصوات الصاخبة المتصاعدة من الميكروفونات المعلقة فوق منارات الجوامع، دقات الطبول والرقص في حفلات الزواج، والكازينوهات والكباريهات، وصفارات البوليس والحرائق.

كنت أسأل أمي وأنا طفلة لماذا تزوجت أبي، ترد علي قائلة: «الحب يا مجيدة»، لم أكن أعرف بعد معنى الحب بين رجل وامرأة، أحاول في وجه أمي حين تنظر لأبي، أو في وجه أبي حين ينظر إلى أمي، أحاول أن ألتقط نظرة حب في عينيها أو عيني، دون جدوى، لم ألتقط يوماً نظرة حب داخل بيتنا، حتى كبرت وعرفت أشياء لم أعرفها.

كان أبي صامناً، وإن تحدث فهو يحكي عن شيء يتعلق بمحموده اليومي في الجريدة، أو رئيس التحرير، أو الوزير، أو رئيس الدولة، قد يحكي عن التظاهرات ضد الحرب خارج البلاد، أو سقوط الحكم في العراق، أو مشاكل الفقر في مصر والسودان وإثيوبيا.

كانت أمي أستاذة كبيرة مثل أبي، ربما أكبر منه قيمة، فهي رئيسة قسم النقد الأدبي في الجامعة، تحمل درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف، حصلت على الجائزة التقديرية الكبرى، قبل أن يحصل عليها أبي، صورتها معلقة داخل برواز ذهبي في غرفة مكتبها، تحني وهي تتسلم الجائزة من السيد رئيس الدولة في عيد الأدب والفن.

حين بلغت الخامسة عشرة من عمري بدأت أدرك شيئاً خفياً في علاقة أبي وأمي، أسمعهما في الليل يتشاجران، صوناهما يبدأن منخفضين منحصرين بطيئين، تزايد سرعتهما بالتدريج، قد تصاحبها أصوات أشياء تسقط على الأرض، أو صفعات على الوجه، أو ركلات بالقدم، تشتد الضربات تحت ضلوعي مع اشتداد العراك، ينكمش جسدي تحت القطاء، أكتم أنفاسي اللاهتة، أخشى أن يسمعا أبي وأمي، يكتشفان أنني صاحبة ولست نائمة.

حصلت هذا العيب الثقيل في قلبي السنة وراء السنة، أربعة

منذ طفولتها حرصت بدور على سمعتها، كان عليها تحتل شرف العائلة الكبيرة على كاهلها، شرف أبيها اللواء أحمد الدامهيري، كان ضابطاً في الجيش حين قامت الثورة، ثم يكن ضمن القادة الكبار، تربطه بأحدهم صلة دم أو رحم، حصل على منصب مدير عام أو أمين عام مؤسسة الثقافة الجديدة. في سنين المراهقة كان يقرأ روايات الحب العنوي، يرى صورته في المرأة تشبه البطل في قصة روميو وجولييت، كتب قصيدة حب لابنة الجيران، في أحلامه يرى نفسه شاعراً معروفاً أو روائياً مرموقاً، تسربت بعض أحلامه إلى ابنته بدور وهي طفلة، كانت تقرأ الكتب في مكتبة أبيها، يخفق قلبها تحت ضلوعها وهي تقرأ في سريرها قبل النوم، يراودها فتى أحلامها في الليل، يمارس معها الحب حتى تبلغ الذروة، يستفيض جسدها النائم تحت الغطاء باللذة الآتمة، تصحو في الصباح متوردة الخدين متورمة العينين، تغسل جسمها في الحمام بالماء الساخن والصابون، يتطهر الجسد من الدنس، لكن القلب يظل ثقيلاً بالإثم.

ثم جاء حريق القاهرة قبل قيام الثورة بسنة شهيرة، كانت بدور أحمد الدامهيري قد حصلت على الليسانس في الآداب والنقد، ينتفض جسدها باللذة حين ترق في أذنها كلمة الليسانس، تشبه لذة الجنس، الانتفاضة ذاتها، تشمل كيانها كله، الجسد والعقل والروح، يذوب الثلاثة في لذة واحدة جامحة، يهتز جسدها القصير السمين فوق كعبيها الرطيعين، تكاد تقفز في الهواء، ترقص، تغني، تطير لولا جاذبية الأرض، تشدها الأرض بقوة

أكبر من قوتها، تثبت قدميها في الأرض وينحس صوتها، يرى أبوها الدموع في عينيها، يظنها دموع الفرح بشهادة الليسانس، لا يعرف الأب شيئاً عن حقيقة ابنته.

في أعماقها كانت بدور تشعر بالحزن، خاصة في لحظة الفرح، ربما هو جسدها القصير القامة السمين، أو عيناها الضيقتان الخاليتان من البريق، أو عقلها المكبوت رغم حصولها على الليسانس، أو روحها الحبيسة داخل زنزانة الأدب.

لم تكن تفك قيودها إلا في النوم، حين ينام عقلها وروحها وجسدها، حين ينام أبوها وأمتها وكل الناس، حين يغلق الله عينه الساهرة التي لا تنام، حين يذوب الكل في الظلام، تصحو خالية خفية في عمق الأحشاء الدفينة، تتشمم الحب، ولذة الجنس الآتمة.

قبل الحريق كانت هناك المظاهرة الكبيرة، تسرب حب الوطن من الأب إلى ابنته بدور، كان يقرأ عليها أبيات شعر ركيكة، يلقيها على زملائه في الجيش، يتفنى بالموت فداء للوطن، بشرط ألا يكون هو الميت، أو ابنته من صلبه، كان شديد التأكد من حب الوطن، شديد التأكد أن ابنته بدور جاءت من صلبه، ليس من صلب رجل آخر، شديد الإيمان بوجود الله والملائكة واليوم الآخر وإبليس.

تسرب كل ذلك إلى ابنته بدور منذ الطفولة، في المدرسة

تقتي مع البنات أناشيد الوطن، في السابعة من عمرها بدأت تصلي
خمس مرات في اليوم، تصوم شهر رمضان، تطرد قتي الأحلام من
النوم، واليقظة.

نجحت بدور في السيطرة على عقلها الباطن، الذي يصحو
في النوم، استطاعت أن تفرض عليه النوم، تفوقت بدور على أبيها
في حب الله والوطن، أصبحت ضمن البنات المثاليات، يتغافل
الإيمان بالله والوطن في قلوبهن، يسري في عروقهن مع الدم، من
قمة الرأس حتى بطن القدمين.

لكن النوم كان يغلبها، يشدّها إليه مثل جاذبية الأرض، يسقط
جسدها في غيبوبة النوم، إلا بطن قدمها اليسرى، كانت نائمة
بطة مثل قدم أمها، تظلّ واعية صاحبة وإن نام الكون، تحسّ بدور
وهي نائمة أن شيئاً يذهب بطن قدمها اليسرى، ترقس الشيء
بقدمها اليمنى وهي غارقة في النوم، تظنّ أنّه أصبح إبليس، وتحذّى
إرادة الله، يدغدغ بطن قدمها وهي في اللاوعي، يحترسها على
الإثم.

في الصباح تصحو ويمود إليها الوعي، تسأل نفسها، لماذا
إبليس الشيطان يقف دائماً عن يسار المؤمنين أثناء الصلاة،
يحترسهم ضد الله، وأن الشيوعيين الكفرة من أهل اليسار.

لذة خفية كانت تسري من بطن قدمها إلى ساقها، تصعد عبر
القفذ إلى البطن والصدر، التهذان برعمان صغيران، بارزان قليلاً،
مؤلمان كثيراً إن ضغطت عليهما أصبح الشيطان.

كانت في طفولتها تظنّ أن إبليس الشيطان روح ليس له
جسد، مثل الله روح ليس له جسد، ثم كبرت وأدركت إن
للشيطان جسداً، وربما له جسد كامل الأعضاء، بما فيه العضو
الأثم، يتحدّى به إرادة الله.

في الحادية عشرة من عمرها رأت بدور لأول مرة وجه
الشيطان. في الطفولة كانت تخشى أن تفتح جفونها وهي نائمة، ثم
بدأت تكبر قليلاً، تسيطر عليها أكثر وأكثر هزيمة الاستطلاع، تريد
أن تعرف كيف تكون ملامح الشيطان، أنفه، رأسه، جبهته، أذناه،
فمه، ربما كانت تحسّ أنفاس الشيطان فوق عنقها من الخلف وهي
نائمة على بطنها، لكنها لم تملك الشجاعة يوماً أن تفتح جفونها
لتراه.

أصابها الدهشة في الحادية عشرة من عمرها حين اكتشفت أن
للشيطان شارباً ولحية مثل المعجائز، يكاد يشبه جذها لأبيها أو
لأمها، أو الرجل الحجوز في البيت المجاور، أو في فيلم «هرام
الشيخ» الذي رآته العام الماضي في السينما.

لكن النوم غلبها وهو يدغدغ بإصبعه بطن قدمها، كتبت السرّ
عن أبيها وأمها، أصبحت شريكة الشيطان في الإثم، تنظاها بالنوم
حتى يستحرق في المداعبة، تخفي رأسها تحت الوسادة، تكتتم

أنفاسها، تنظاهر بالموت، يشجعه موتها على الاستمرار والصمود إلى البؤرة المدفونة في ثنايا اللحم، داخل صمق الأحشاء، تقمرها لذّة خالية من الإثم، لأنّ الموت أدركها قبل حدوث اللذة.

غاب الشيطان ذات ليلة، امتدّ ضيابه طويلاً، تصوّرت بدور في الله عاقبه بالموت ثم سمعت من أمها وأبيها أنّه سافر إلى لندن لإجراء عملية البروستاتة، وثّنت الكلمة مؤنثة في أذنها، لم تعرف أين يمكن أن تكون هذه البروستاتة في جسد إبليس، ولماذا يخلق الله عضواً مؤنثاً في جسد الذكر، لم يعد إبليس من لندن، رُما مات هناك، طردت بدور الشيطان من أحلامها، طردته من النوم واليقظة، مضت ثلاث سنوات وأصبحت في الحادية عشرة من عمرها، ضاع إبليس من ذاكرتها تماماً. إلّا أنّه ظلّ يعيش في بطن قدمها اليسرى، يدغدغها حتى تروح في النوم، يحكي لها قصة الشاطر حسن والغولة، في الصباح تتوضأ وتصلّي بين يدي الله. لم يعد إبليس يقف عن يسارها، أصبحت فتاة ناضجة طاهرة مغسولة من الإثم.

لم جاء يوم المظاهرة الكبيرة، كانت بدور حصلت على الليسانس، فتاة مثالية يذوب في عقلها وجسدها وروحها حبّ الله والوطن، لكنّ قلبها ينوء بالمحب، آثار إصبع الشيطان فوق جسدها تشبه الحب، أي حب، أن يحتل الثلاثة مساحة واحدة من قلبها والله والوطن وإبليس.

يوم المظاهرة الكبرى وجدت بدور نفسها بين آلاف الأجساد، نساء ورجال وشباب وأطفال، من الحواري والأزقة والشوارع الكبيرة، من بولاق وأمينة وباب الشعرية، من الزمالك وجاردن ستي والمعادي وحلوان. عمال وموظفون وفلاحون وطلاب وطالبات المدارس والجامعات، يسرون بخطوة واحدة، أقدم حافية مشفّقة، وأحذية لامعة من الجلد المثين، وشباب وحاصل.

كانت بدور تمشي بينهم، تدبّ بحذاتها الجلدي على الأرض بخطوات قوية، تشمّد قوّتها من قوى الآلاف أو الملايين، يهتفون في نفس واحد، يسقط الملك، تحيا مصر حرة. كلمة «حرة» تلتصق بحلقها كالغصّة، جسدها رغم الحركة تحوطه القيود، تحرّك ذراعها وصاقها لتكسرهما، دون جدوى، تهتف بصوت يشبه الصراخ، صرخاتها المكتومة تذوب في أصوات الجموع. دموعها تذوب في عرقها، ثوبها يلتصق بجسدها تحت البلوفر الأزرق، إلى جوارها يمشي نسيم، جسده طويل ممشوق، يدبّ فوق الأرض بخطوة قوية ثابتة، عيناه الزرقاوان شاخصتان إلى الأمام، لم ينظر ناحيتها مرّة واحدة، هي ترعقه بطرف عينها طول الوقت، أنفه من الجانب شامخ مرفوع، شفاه مزومتان، يرتدي بلوفر من الصوف الخشن، رصاصي اللون منحول من المرفق، باقة قميصه ببضاء غير مكبوّة، حذاءه قديم يغطيه التراب، في كعبه قطعة حديد على شكل حدود الحصان، شعر رأسه خشن أكثر، يحتكّ في أحلامها بوجهها الناعم البشرة.

تجذب بدور إلى هذا النوع من الرجال، فيه ذكوره وحشونة، لا يحاف الموت من أجل الله والوطن، ليس من نوع ابن عمها «أحمد» يحاف من صرصور أو فأر أو ضفدعة تقهر في الحديقة، أصابعه رفيعة ناعمة تشبه أصابعها، قامه قصيرة مثل أبيه وعمه، اللواء أحمد الدامهيري، ورث عنهما الرأس المرتفع الشكل، والدقن المرتفع تحت شعيتين رفيعتين، الشفة العليا أكثر نحافة من الشفة السفلى، يهيم شفتيه إلى الأمام حين يستغرق في التفكير، الحركة ذاتها الموروثة عن أبيه وجده الشيخ الدامهيري، كان وكيلاً أو نائب الوكيل لجامع الأزهر الشريف.

بدور التفت سسيم في السنة الأولى بالجامعة، منذ ثلاث عيونهما انتفض شيء في أحماقها، شيء خفي دفين في الأحشاء، لم يكن زميلاً لها في كلية الآداب، كان يأتي إلى الجامعة أيام المظاهرات، تلمحه من بعيد يمشي، يذق الشيء تحت ضلوعها في اضطراب، يتأرجح جسمها القصير السمين فوق كعبيها الرفيعين، ترتفع قليلاً في مشيتها، تضغط بيدها على حزام حقيبتها المعلق فوق كتفها، تمسك به، تستعيد توازنها، يمر بها دون أن ينظر إليها، دون أن ينتسم لها كما يفعل الرملاء، قد يمزك رأسه علامة التحية ثم يمضي في طريقه لا ينظر إلى الحنف كانت هي تنظر خلفها لتراه من ظهره، عظامه مستقيمة، عضلاته مشدودة، ليس في جسده لحم، ذراعاه متحركتان وهو يمشي مع حركة ساقيه، يشق الهواء بجسمه الطويل الصلب كالرمح

مصى عامدان وهي تراه في أحلامها في العام الثالث بدأ

في حديث يسيم، هي التي بدأت حين رآه جاساً في أحد الاجتماعات، كان المقعد إلى جواره خالياً، جلست بعد أن اتسعت في وجهه وقالت: صباح الخير يا يسيم، ثم تكرر اللقاء يسيم داخل الجامعة، أو في حديقته الأورمان بجوار الجامعة، يجلسان معاً على الدكة الحشية يتحدثان، يتبادلان الكتب الثورية كانت بدور تجذب في أحماقها لثورة، للثمرد على كل شيء في حياتها، بما في ذلك الأب ولأم والعَم والجَد، وربما الله أيضاً وإيس. منذ السابعة من عمرها كانت تخاف الله، تغفل الخوف إلى حد الكره، لم تملك الشجاعة أن تعترف لنفسها بما بدور في خيالها، وبما يحدث لها في أحلامها، منذ طفولتها اقترفت آثام كثيرة أثناء النوم.

وهي تمشي في المظاهرة إلى جوارها سيم كانت تلمحه من الجانب، ملامح وجهه كأنها منحوتة في الصخر، ملامح حجرة صلبة حادة، أنه يشق الهواء كحد السيف، جسمه الطويل النحيل كأنما مصنوع من مائة غير اللحم، يحمله خفيفاً فوق قدميه ويمشي، كأنما ليس له ثقل.

منذ داعبتها أصبح الشيطان أراد بدور التخلص من ثقل جسدها، ذلك العبء الثقيل تحمله كل يوم، اللحم السمين الذي يعطي ذراعيه وصدرها وظهرها وساقها وبطنها قدميها، تحمى في الليل بقوة تحمل عنها العبء ذراعان قويتان تمتدان من السماء، تمتدان جسدها، يذوب جسدها بين الذراعين حتى ينلاشي اللحم

امتهدت المظاهرة ونعزمت الجموع، وظلّت هي تمشي إلى جواره، تريد أن تمشي إلى جواره حتى نهاية العمر، تريد أن يحملها بين ذراعيه ويمضي بها حتى الموت. كانت صامتة وكان صامتاً، يسيران جنباً إلى جنب، يخرجان من شارع ويدخلان في شارع، حتى توقف نسيم أمام باب بدروم في عمارة كبيرة، وقف صامتاً مطرقاً قليلاً، مستغرقاً في التفكير، ثم رلح عينيّه إليها، صوته فيه بقّة خفيفة، المقلتان الررقاوان في عينيّه تكسوهما لمعة تشبه الدمعة الحبيبة، كلماته متقطعة..

بدور لا أعرف ما أقوله لكن أن أحسن

أحسن بحث . أحسن مشعرك نغويته نحوي . وأنا أبادلك هذه المشاعر لكنتك من حقة أخرى يا بدور أنا أسكن في هذه العرفه في البدروم

كان ذلك مند بسين كثيرة، حين كانت بدور هي العشرين من عمرها، تحلم بالحب والثورة، حصنت على اليساس في كتبة الآداب، لم تكن تحبّ الأدب ولا النقد الأدبي، كانت تحبّ سيم وتريده، تحلم به، ولا تستطيع الحياة بعيداً عنه، تفضل أن تعيش معه في الغرفة بالبدروم على أن تعيش مع أبيها وأُمها في الفيلا الكبيرة في جاردن سيتي

لا تذكر بدور ماذا قالت له وهما واقفان أمام باب غرفته بالبدروم، هل نطقت بكلمة أحبت؟ ربما قالتها دون أن يخرج صوتهما إلى الوجود، أو ربما خرج صوتها مثل هواء ساخن من صدرها ليس له صوت.

طلّت واقفة مترددة، يدها تمتد إلى الباب الحشبي المشقوق، يدها الأخرى تمسك الحرام المعلق على كتفها، تشدّ عليه كأنما لتحفظ توازنها، كأنما تقاوم جاذبيّة الأرض، تشدّ جسدها إليها، تخشى السقوط.

هو كان واقفاً متردداً، لا يتحرك، الهوى بينهما أيضاً لا يتحرك، لا شيء يتحرك إلا أنفاسها. أم هو فلم يكن يتنفس، كان جامداً مثل تمثال

لا تذكر كم من الوقت مرّ وهذا وهذا هذا الباب المعلق، لم يمدّ يده بالمفتاح ليمسحه، كان المصباح في جيبه، لكن درعه لم تكن تتحرك، لا شيء فيه يتحرك

ماذا كان ينتظر؟ أن يراها مسدّير يتعود إلى بيتها، أن ترفع يدها عالياً ونصفعه على وجهه ثم يمضي في عيستها يرى شيئاً يشبه الدمعة الحبيبة، لا سمع ولا سحر، أو انصهرة المكسومة تحت الدموع، نظرة فتاة تشع بالإهانة، فتاة بدمع يمسحها لرجل فيرفضها، فتاة تمدّ يدها لإنسان تشدّ الخلاص فلا تمتدّ يده إليها

أخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب، دخلت وراه كأنما تمشي في النوم، وقفت ظهرها للحائط، تنصق بالجدار، تستمدّ منه الصلابة، تمرّت برودة الحائط إلى جسدها الساخن، انقضت وهي واقفة، سرت في كنيامها قشعريرة رهشة البارد، وخوف عامص.

أمسك يده الضقة الصغيرة في يده الكبيرة، تهاوت بين
ذراعيه مثل نعمة مصحف، تجاورت للضج إلى حد السقوط من
فوق الشجرة، تشدها جاذبية الأرض إليها، مثل قفاحة نيوتن.

كانت بدور قد فرأت شيئاً في علم العيزية، من اكتشافات
ميثوس وأيستين. عرفت النظرية النسبية والنظرية الماركسية، كان
سيم يقرأ في العلم والفلسفة، وهي تقرأ في الأدب والفن الأصيل،
يتبادلان الكتب، لم يكن سيم يؤمن بحكاية آدم، ولا للتفاحة التي
أفوته بها حواء، وكانت هي لا تزال تؤمن بما آمن به أبوها وأنها
والمدرسون في المدرسة

فوق بلاط الغرفة كانت مرتبة تغطيها الكتب والأوراق
والسشورات، فوق الجدران دُفوف خشبية تحمل الكتب
والمجلات والدوسيهات، في الركن كرسي من الخيزران معلّق
عليه قميص أبيض مغسول، النافذة مرتبة مسدودة بقضبان حديدية
تطلّ على أرض الشارع.

ثم تلاشت الغرفة بكلّ ما فيها، تلاشى المكان والزمان حين
هبطها إلى صدره، قبل شعرها وحبها، عاد إليها الحلم كما كانت
تراه كلّ ليلة، ربما كانت اللذة في الحلم أشدّ منها في الواقع، كان
سيم في أحلامها أكثر حرارة، أكثر افتتاحاً لجسدها، كان جسده
أكثر صلاحة كانرمح، يشقّ به الكون ويمشي إلى النهاية أو ربما
يكون الواقع دائماً أقلّ جمالاً من الحال

حين أفاق بدور رأب الأرض السلاط، والباعده المسدودة
بقضبان الحديد إلى جوارها كان سيم عارفاً في اليوم، أبعده
مموعه، تسري في أنفها، تكاد تشبه شحير أيتها، نغمة آدم بارده
في حلقه مثل عتق أيتها، عضلات جسده مرتجة منهدمة مسندة،
خالية من التحدي مثل جسدها وأما

ارتدت ملابسها على عجل، عثقت حرام حقيبتها على كتفها
سارت على أطراف أصابعها نحو الباب، لكنها سمعت صوته من
خلفها يتناديها: بدور؟

استدارت، وأنه يمشي نحوها بجسده الطويل بصلب، استعاد
جسده الصلبة وارتفاع القامة المقلدان في عيبيه تشقان غسوة
أررق إلى حدّ السواد، أو سواداً إلى حدّ الرقّة، كأنها تسطر في
قاع البحر أو في عين السماء في الليل.

كان الفجر لم يطلع بعد، أرادت أن تُلقي نصفها فوق صدره
ونيكبي، في أحماقها حزن منذ الطمولة لا تعرف مصدره، بين
ذراعيه يدور الحزن في فرجة نهر كيائها، تنفخ عن جسدها ألماً
عميقاً مدفوناً في الأحشاء. في رأسها حبة تشبه الإبرة، تدكرها
بأبيها وجدها وشرف العائلة، تدكرها بالله والشيطان، ودار جهنم
الحمرء بعد الموت

- بدور؟

- أيوه يا سيم

- ما رأيك نذهب في الصباح إلى المأدود؟

صدرها يحنو ويهبط مع الصربات القوية تحت ضلوعها، كلمة
المأدون ترون في أديها محيطة، عامصة، مرلوغة، لا علاقة لها
بالحب، أيمن أن تزوج في الصباح؟

وأموها راقدة في عرائشه يشرب الشاي، ويقرأ الجريدة، يتملأ
وينشأب مسترخياً مطمئناً إلى أن تبت العذراء الطامرة راقدة في
سريرها، أو تتأهب لدخول الحمام ولارتداء ملابسها لتذهب إلى
الجامعة

هل المأدون ضروري؟

- طبعاً يا بدور، لا رواج بدون مأدون...

ثم إن ..

لم يكمل كلامه، أطلق شفتيه، ينظر إليها كأب ينظر إلى
طفله، تصفره بعامين فقط، كأنما تصفره بمائة عام، لم تعرف
الفقر ولا الجوع، لم ترقد على الرصيف في الشارع، لم تشتعل
وهي طفلة في محل الميكانيكي، لم يضربها صاحب المحل بكعب
حدائه على أسفل بطنها، لم تنلق الركلات والمصدمات في قسم
البوليس، لم تر أمها تموت من الحزن أو تعرف الدم من صدرها
مع كل نفس، لم يحتق أبوها تحت الماء في السجن

- أن أكبر صنت يا بدور في العمر، أعرف قسوة الحياة، أنت
نسبه رقيقة أحاف عليك لو.

من توقف عند كلمة «لو»، أراد أن يقول، لو أنك حملت طفلك
هذه زواج، ربما يقتلك أبوك اللواء أحمد الداهيري، ثم انزعج
شفتاه عن ابتسامة مشرقة، اشتد الصوء في عيه، أحاطها بدراعيه،
همس في أذنها.

- لو أصبح لنا طفل جميل مثلك يا بدور؟

أغمضت عينيها فوق صدره وغابت في الحلم أيكون لها
طفلة أو طفل يشبه سيم؟ هذا القول الطويل الممشوق، هاتان
العيان المشتتان بالصوء، هذه الروح المشوَّبة الشائرة، هذا
التحدي، هذه الصلابة؟

أدافت على صوت صفارات البوليس، كان المجر لم يطلع
بعد، عربات البوكس المصفحة نهوب شوارع، كعوب البنادق
تدق الأبواب، كشافات الصوء تسقط على وجوه ضامرة شاحبة،
عمال مقراء أو شباب من الطلاب، يتعقبهم رجل المباحث في
المصانع أو المدارس والجامعات، صورهم داخل السجلات في
وزارة الداخلية

لم تعرف كيف أصبحت بدور في سريرها آمنة، أغمضت
عينها تحت المعطاء، سرى النعش في جسدها، فسرت الأحداث
الآخيرة إلى خيالها مع النوم، بدأت المظاهرة الكبيرة وهي تمشي
في الحلم، الحقتان المشتعلتان بالنور، نحمدن يمشدن في سماء
مظلمة، يدها ترحف تحت المعطاء تحسن جسده، في ثوب

اللحم يتجسد المحيم، يتحول الحباب إلى حقيقة تلمسها يدها،
صوته في أدها يسري من موجات الضوء... إن جاءها ولد سميها
ارين! على اسم أبي... وهمست بدور في أدها، إن جاءتنا بنت
نسميها ارينة! على اسم جدتي زينة

رأت طيف جذتها في الحلم بدخل غرفة نومها، كانت في
الثامنة من عمرها، قبل أن تموت جذتها زينة، تناديها مان ريزي،
طويلة القامة مشوقة، عينها كبيرتان مملوءتان بالبريق، كانت
تجلس إلى جوارها وهي راقدة في السرير، تحكي لها حكايتها
البحرية كانت نانا ريزي تريد أن تكون كوكب الشرق، ترقص
وتعني وتكسب الشعر، لكن أباه أخرجها من المدرسة، كانت في
الرابعة عشرة من عمرها، الأسود فتان الرفاع الأبيض، سمعت
الطلل والرمامير، ثم رأيت نفسها داخل عرفة يوم معقده، مع رجل
عرب عبط الملامح، قصير القامة، ظهره محني، فوق شعبة العيب
شاربه أسود كبير.

ببما كانت بدور في فراشها الدافئ تعلم بجذتها زينة، كانت
عربة مصفحة تقف أمام الباب الحشبي المشقق في بدروم العمارة
العالية، خمسة من رجال البوليس بالبنادق أحاطوا به كالدائرة،
ضوء كشاب قوي يسقط فوق وجهه، للمفلتان الكبيرتان في عينيه
تشقان غضباً يمدون أسود أروق، جسمه نحيف طويل صلب
كالرمح، رأسه مرتفع فوق عضلات عنق لا يلبس ولا يلتوي، ضربه
أبعد الجلود على رأسه يكعب البندقية، صدعه أشع على صدقه،

إلا أن كيانه الواقعي ظل متصبية في مكانه، لا يتحرك لا تنعصر
عضلة في وجهه، ولا يفرط له جسم

بلغ العصب بأحدهم أن يهتق في وجهه، ثم سدد له ضربة
قوية أسفل بطنه، في بذرة الألم واللذة، في عنق الأحشاء الدفينة،
حيث تكون بذرة الحياة والحب

حين ساقوه إلى العربة البوكس خارج البدروم، كانت الدماء
تسرف من أنفه وعينه، يسيل فوق العائقة البيضاء الكاشفة عن
صلوعه، يغمز شعراً أسود، يكسب بالندريع لوناً أحمر، يهبط
اللون الأحمر إلى سرواله لأسفل من القطن المصري، رائحة
القطن في أنفه مع رائحة الدم، ورائحة الراب، الأرض الحصنة
السوداء، ترعرج فوقها الشجيرات المحصورة بالسوارات البيضاء،
كان هفلاً في الثامنة من عمره، يعني مع أطفال القرية وهو يجري
بين مسجات الحضرة التي تلمع بشوه أبيض:

• بورت يا قطن النيل، يا حلاوة عليك يا جميل...
اجمعوا يا بنات النيل يا للاح ما لو هس مثيل، قطن ما شاء
الله...

داخل العربة البوكس وهو جالس يدها مكبلتان بالحديد،
ترأت له صورة جذته ركية، كانت طويلة القامة شامخة الرأس،
يدها كبيرتان مشققتان تمسك بهما العاس، هيناه سوداوان
واسعتان تشعان لعصب العالم، أمسكت العاس ذات يوم وهبطت

به على رأس العمدة، ثم أُنعت بالأس، واستلقت على الأرض في
راحة أبدية

لم تنقطع «صلة» بين مجيدة الكاتبة وروبة بنت ربات، عبد
العمولة كان شيء يجذب كلاً منهما للآخرى، رغم الاختلاف.
أصبحت مجيدة تملك عموداً في مجلة النهضة، يساعدها في كتاب
أبواب وأمتها في أمانها تكره مجيدة حروف اللغة والكتابة،
الموروثة عن أبيها راتب، وجسمه القصير القامة الموروث عنها
أيضاً، والصلابة الكسرة في حاردين سبي. على بابها الخارجي قطعة
بحر لأمعة، محفور عليها اسمها أبيها وجدّها:

«أبيلاً الحربي» كسمة الحرتني نلصق باسمها وجسمها
كالعصو المشوّه

حديقة كبيرة تحوط الست الكبير من الطوب الأحمر، تنمو
فيها الأشجار والبرهور والورد، يحوطها سور حليدي تنمو فوقه
شجرات البسمين والبوحافيد، أو الجهمية، برهورها الصفراء
والبيضاء والحمراء بلون دم العرّال.

يبدو المكان من الخارج جميلاً مبتهجاً، داخل المكان يقع
الفتح في الأركان، يتحفّى الكره تحت المفارش الحربية المشعولة
بحيوط ملوّنة راحية.

كانت سبّارة كبيرة سوداء تحملها من البيت إلى المدرسة،
بقودها سائق أسود الشر، يستويه الشوفير، قبل أن تنام مجلّة

تأخذها «فدفا» إلى الحمام، نعل جسمها نساء الدامن والصابون
المعطر، تجفّفها بالشكير الأبيض الكبير، تحملها إلى السرير،
تحكي لها قصة سندريلاً والأمير حتى يغلبها النوم.

في أحلامها ترى مجيدة نفسها تخلق في السماء مثل
المصافير، لم يجد لها جسم معلوّ باللحم الثقيل، ذراعاها
تتحركان في الهواء بقوة وسرعة، جناحان كبيران يخفّقان برفرقان،
ينعكس عليهما ضوء الشمس وضوء القمر بلون ملانكي أبيض،
أصابعها لم تعد قصيرة مميّنة طرية، أصبحت مثل أصابع ربة بنت
زينات، طويلة محيطة صلبة، تحري فوق أصابع البيانو جريئاً أسرع
من موجات الضوء، تمسكها أيلة مريم في حفّة الموسيقي،
ترفعها إلى أعلى لتراها الست كلهن، تقول بصوت عذب يصل إلى
جميع الآذان، بما فيها أدان أبيها وأمتها وجدّها والجيران في
حاردين ستي، والبوابين الجالسين أمام العمارات، والحلاق في
الميدان، يستقونه الكوافير، والشوفير الذي يقود الستارة، و«داد»
التي تحكي لها قصة سندريلاً قبل أن تنام.

- أصابعها خلقت للموسيقي، مجيدة بنت موهوبة ليس لها
مثيل بين البنات.

صوت أيلة مريم يرنّ في الحلم مثل اللحن الناعم، يدغدغ
أذنيها، تسري الدخدة من الأذنين إلى العنق إلى صدرها، إلى
الهد الأيسر فوق القلب تحت الضلع، يزحف برقة إلى البطن،
أسفل البطن، يرتجف قللاً فوق العانة الملساء الناعمة، لم يست
فيها الشعر بعد، ينزل فوقها إلى الفخذ اليسرى، يمضي في طريقه

المعاد إلى الساق اليسرى، حتى النهاية في بطن القدم اليسرى،
يدعدها كما نعود من البداية أن يفعل، يمتدحها اللغة القديمة
الجديدة، مع الإحساس الطاعني بالإتم.

لم تعرف مجيدة في طمولتها كيف تتحول الموسيقى في
أحلامها إلى لذة آتمة، تكاد تشبه إصبع الشيطان، رغم الاختلاف،
كانت الموسيقى تهبط من أديمها إلى بطن قدمها، لكن إصبع
الشيطان كانت تصعد من بطن القدم إلى أعلى، حتى مركز الكون.

قبل أن تمام تحكي لدادا عن أبله مريم، كيف تمسك أصابع
ريانة بنت رينات في يدها، ترفعها عالياً لتراها البنات كلهن، يرتفع
صوتها فوق الأصوات:

- أصابع زينة خلقت للموسيقى، بنت موهوبة، ليس لها مثيلة
بين البنات.

تدفن مجيدة وجهها في صدر دادا، تدمن أنفها بين نهديها
الكبيرين، تنضم حنان الأم، ترث دادا رأسها، نهس في أذنها.

- نامي يا مجيدة، ربنا أعطاك حبر كثير، أبوكي ما شاء الله
اسمه على كل لسان، وأنتك ربنا يحميها أستاذة كبيرة في الجامعة،
لكن رينة بنت رينات يا عيني عبيها، من غير أب ولا أم ..

ينقطع صوت دادا، كانت أصابعها عضة، ترفع يدها الكبيرة
السمراء تمسح دموعها بكم جفاتها الواسع الطويل،

- إيتي بصيطي يا دادا؟

- أبداً يا بتي.

- إيتي عنك أب وأم يا دادا؟

- طعماً يا بتي، كل الناس عندها أب وأم

- إلا زينة بنت رينات يا دادا؟

- كان عندها أب يا بتي، أبوها كان راجل من ضلع راجل.

كان زينة الرجال ..

- أبوها راجل فبن يا دادا؟

- ربنا أخذه يا بتي.

- يعني مات؟

- أبوه يا مجيدة يا بتي.

- ليه ربنا أخذه يا دادا؟

- ربنا دائماً يأخذ أحسن الناس.

- ليه ربنا ماخذش بابا وماما؟

- أسكتي يا مجيدة، وكي صوتك، نامي يا بتي، بعيد الشر

عن أبوكي وأنتك

كانت مجيدة في الثامنة من عمرها، لا تفهم ما تقوله دادا، إذا
كان الله يأخذ إلى السماء أحسن الناس فلماذا لم يأخذ أبوها
الأستاذ الكبير وكرياً الحرتي، وأنتها الأستاذة الكسرة بدور
السامهيري، ولماذا تصطرب داد وتدعو الله أن يبعد الشر عن أبيها
وأنتها؟

إذا كان الموت شراً من عند الله فلماذا يموت أحسن الناس
ويصعدون إلى الله في السماء؟
ويبقى الأشرار أحياء؟

في الشارع وهي تمشي إلى المدرسة تلمح ربة بنت زينات
تلعب مع الأطفال، يتجمعون من حولها يرقصون ويغنون معاً
أغاني الفلاحين، نورث يا قطر النيل، يا حلاوة عليك يا جميل، أو
طلعت يا محلا نورها، شمس الشموسة، يالآ يا سلا وسحلب لب
الجاموسة، جاهد على الساجيا يا حلي أسمر وحليوا، عارج
الطاجية وحلي غيلي غيوا.

ثم تكن تحت ركوب السارة مع الشموير، يتطلق بها من
البيت إلى المدرسة، لا يتوقف قليلاً لتطلق على أطفال الشوارع
وهم يرقصون ويعتوب، يقول لها إنهم أولاد الأبلسة، لم يعرف
معنى الكلمة، قال الشموير، إنها جمع كلمة إبليس الشيطان.

لم تتصور مجيدة أن لشيطان له أولاد وبنت، كان في خيالها
مثل الله ليس له أولاد أو بنات

" دون أولاد حرام يا بنت مجيدة، دول حلال حرامية، أومي
تكلمي حد منهم.

- ربة بنت زينات كانت معايا في المدرسة، كانت موهوبة
في المدرسة، أبنة مريم كانت تقول إنها أحسن بنت في
المدرسة...

لم يكن الشموير يستمع إلى ما تقوله مجيدة، كانت عيناها

الخاترتان تشخصان إلى الأمام، ثابنتين فوق الطريق، شرته سوداء
مثل البوابين في جاردن مني، لكنه لا يرتدي جلباباً أبصر، بل
بدلة لونها كاكبي تشبه بدلات العساكر، يصع فوق رأسه قبعة من
الفخاش السميك الكاكي يستويها «الكاسكيت»، أصابعه الكبيرة
السراء تحوط عجلة القيادة في ثبات وقوة، تكاد تشبه أصابع دادا
وهي تدعك لها رأسها بالماء الدافئ والصابون في الحمام، ليست
مثل أصابع أمها البضة الناعمة، الطرية، تشبه أصابعها

تحمي مجيدة أصابعها تحت المعده، تخمض عينيها لتسام،
لكن نور الللمبة الكهربائية بجوار السرير يكشف العرفة الواسعة،
جدرانها منقوشة مرسوم وردية، دولاب ملابسها في الركن لونه
وردية، مكتبها الصغير فوقه كتب المدرسة والكراريس، وأقلام
ملونة، كشكول كبير علاقه وردية تكتب فيه أحلامها، مائدة صغيره
فوقها مفروش أزرق مرسوم عليه زهور الياسمين محيوط الكساء

ولما تجلس على السجادة للعجمية المرر كشه إلى حوار
سريرها، تحكي لها القصص قس أن تمام، ترتدي جلباباً واسعاً
أدكن اللون، عنقها طويل قوي المصلات، يحمل رأسها الملعوف
بطرحة بيضاء، وجهها ضاحك محبب تطل منه العيمان، مفلتان
سوداوان صغيرتان، داخل بياض واسع تشويه حمرة البك.

حين بلغت مجيدة الخامسة والعشرين من عمرها كانت تمتلك
عموداً في مجلة السهضة، تصدر يوم الخميس من كل أسبوع،
اقترح أبوها أن يكون عنوان الممودة «أمانة الكلمة»، كان عموده
في الجريدة اليومية الكبيره يحمل عنوان «أمانة العهد»، يضعط

عسى حروفها المحمسة، حرماً حرماً، كأنما يخشى أن يعلت حرف
أو تعلت الكلمة كلها، تتبخر في الهواء، في اللاشيء.

منذ الثامنة من عمرها كرهت مجيدة الكتابة، كانت مثل
جسدها القصير الممتلئ معروضة عليها، كانت واجباً من واجبات
المدرسة والبيت، مثل الصلوات الخمس كل يوم، وصوم شهر
رمضان، كانت مثل أصابع يديها وقدميها مورثة عن أمها وأبيها،
لا تستطيع الخلاص منها

عوق المكسب في غرفها يرفد الكشكول السمين الممتلئ
بصفحات البيضاء، أبيض وسمين وغلظ مثل جسدها، صفحات
خالصة، حاوية، برمجتها بسحرية. مد الطعول حتى الشاب
والكهولة ظنّت هذه الصفحات للبيضاء ترمقها بسحرية، صوت
يهمس في أذنها له صحح إيليس، أو ربما صوت الله يقول لها:

أنت يا مجيدة لست موهوبة، أنا يا مجيدة التي أعطي الناس
الموهبة، وقد أعطيتها لربي بس رياء، لأنني حرمتها من الأب
والأم

كان أبوها يكتب في عموده بالجريدة أن الله عادل، وأن
رئيس الدولة يحكم بالعدل بين الناس في مصر، قد يحرم الله
طفلاً من الأهل أو المال لكثرة نعمة الذكاء، أو موهبة
الموسيقى، أو يهرس في قلبه حب الله والوطن، قد يكون الإنسان
فقيراً لكنه غني النفس

كانت أمها تكتب في النقد الأدبي، تلقي المحاضرات في
الجامعة عن الأدب والشعر والروايات، والمسرح وأفلام السينما،
يرسل إليها الناس كل يوم رسائل في البريد، طروداً من الكتب
والمجلات، وشرائط من الموسيقى والأفلام، والحوارات الأدبية
في الراديو والتلفزيون، يتنافس الكتاب والكاتبات على بيل
رضاهما، يرسلون إليها الهدايا، يمكنها بمقال واحد في مجلة النقد
الأدبي أن تخرج كتاباً من الظلمة إلى النور، وتنتشر كاتبة مغمورة
من المدم إلى الضوء ونجوم الفن والأدب.

لم تكن لها مكانة زوجها السياسية والصحفية، لكن مكانتها
الأدبية والعنية كانت في القمة، تصلها الدعوات لحضور
الاجتماعات مع الرئيس، والوزراء، والسفراء، والمؤتمرات الأدبية
واقعية خارج البلاد.

في أعماقتها لم ترغب بظهور الظاهري أن تكون بقعة أدبية،
ترى أن الناقد الأدبي أقل قيمة من الكاتب الروائي، أو الشاعر، أو
الكاتب المسرحي أو السينمائي، تهمس في أذن صديقتها صفاء،
الظلي وميلتها في الجامعة:

- مهة النقد الأدبي متطفلة على الأدب الحقيقي والفن، مثل
الديك الشريطية، نحن نقاد الأدب لسنا إلا مبهدين قاشلين،
نمؤن من فشلنا بنقد أعمال الآخرين، نحن عاديون، ميديوكر،
مثل بقية البشر، ليس عندنا موهبة، نحاول الوصول إلى الأضواء
عن طريق تسليم إبداع الآخرين، نحن مثل ماسحي الأحذية يا
«صافي»

تدري صديقته صعدا الظلي مكتمة «صافي».

- أقول لك يا صافي بصراحة لا أقولها لأحد، لا أشعر وأنا أكتب مقالاً نقدياً بأي لذة أو فخر، بل أشعر بالمهانة، لأنني ألتج هذا شخص آخر أكثر مني موهبة

في أدراج مكتبها في غرفتها تخفي بدور دوسيتها كبيراً سمياً مليئاً بالأوراق المكتوبة بخط يدها، خلافاً لونه أصفر، مكتوب عليه الرواية المسروقة، بدأت هذه الرواية منذ مسين طويلة، منذ تلك الليلة التي مرّت بها مثل كاسوس مخيف، أو حلم عابر بالجنة حيث قطعت الثمرة المحرّمة

في روايتها أعطت البطلة اسم بطرية، بدلاً من بدور، واسم الطفل عريم بدلاً من نسيم

وفي طمعة الليل بعد أن تام انتها مجيبة، بعد أن يتم زوجها ركريا الحرستي، بعد أن يحلوا البيت من الخدم، وتحمل دانا حقيبتها السوداء انجلدية وتعود إلى بيتها، بعد أن يهضم الميكرون فوق الجامع المجاور، وتتوقف الطبول وطرقعات الصابجات في الكارينو المظلل على السيل، بعد أن تكف سيارات البوليس عن الحركة وتنعدم الصفارات والأبواق، وصراخ المرضى في مستشفى قصر العيسى القديم، وبنزازات الموتى الخارجة من الباب الحديدية الكبير، تولول خلفها النساء المكلومات والشكالي والأرامل واليتامى.

بعد أن يتم الكون، ويمضى إبليس عنه عن ضحاياه، ويرحم

الله مخلوقاته فيعلق عيه الساعره التي لا تنام، حبس نهض بدور من سريرها المريض الذي يصنه جسد زوجها إلى جوارها، تسأل من الفراش وافدة على قدميها، نسير حافية على أطراف أصابعها إلى غرفة مكتبها، تضيء الللمبة الصغيرة، تمد ذراعها السمينة القصيرة إلى الدرج المعلق، تفتحه بتمشاح مخبأ في صدرها، تشد بأناملها البضة الدوسية الأصفر، يجف حلقها وهي ترمق الأوراق المراكمة، مئات الأوراق المكتوبة وغير المكتوبة، ليلة وراء ليلة، شهراً وراء شهر، سنة وراء سنة، مئات الصفحات، آلاف الصفحات بخط يدها، بالألم والعرق والدموع، تكتسها وتعيد كتابتها، تقرأها وبعد قراءتها، مئات المرات، يجف حلقها وهي نمرأ، يسحب الدم من وجهها إلى قاع قدميها، تمط شعبي الممتلئين باللحم إلى الأمام، تمطهما مثلما تمطهما حين نمرأ رواية وحيدة لكاتب صغير أو كاتبة غير موهوبة

كانت انتهت مجيبة طمعة في الثامنة من العمر، وافدة في سريرها في غرفتها، معصمة العيسين، إلا من شقّ ربيع بين الجمون، يتسرب إليه ضوء خافت من تحت عتب الباب، موجات ضوء تتحرك في ظلمة الليل الساكن، تأتي من غرفة أنها البعيدة، أو غرفة أبيها في الناحية الأخرى من الصالة، موجات ضوء خافتة تشبه حركة الهواء، أو أوراقاً يحركها الهواء، أو صوت احتكاك من الفلم بالورق، أو أوراقاً تترقق ويُلقي بها في صفحة القمامة، أو هواء ساخناً يخرج من الصدر مع الأنفاس، أو تنهيدة عميقة كالشهيق أو الزفير الطويل اللانهائي.

قد يحتمى بصوت ومعلم السكون، ثم تبدأ أصوات أخرى،
تنتشر من خلال الجدار، تسمع أباهما وأبنتها يتحدثان بصوت عالٍ
في المرائش، صوت أبيها خشن غليظ متعشرج، صوت أمها حاد
رفيع مثل الحرس، لا يكفان عن التجار حتى يغلبها النوم

في الصباح تظن أنهم سوف يعترقان، سوف تعد أمها حقيبتها
وسرحن، أو يعد أبوها حقيبة ويرحل، إلا أن كليهما لا يرحل،
ولا يعد الحقيبة، ولا شيء حدث إلا في الحلم.

تراهما جالسين إلى مائدة العطور، يشربان القهوة والشاي مثل
كل يوم، يقرآن الصحف، يشادلان بعض الكلمات حول ما يحدث
في مصر أو العالم، أو يقرآن في صمت، لا تسمع مجبدة إلا
صوت رشقات الشاي، يرش أبوها من فجان الشاي بصوت عالٍ
حاد، أمها ترشف بصوت رقيق أنثوي لا يكاد يسمع

لم تكن بدرجة إلا شخصية من الشخصيات في الرواية
المسروقة، إلا أنها كانت تعيش في حياة بدور الداهيري، كأنما
امرأة حقيقية من لحم ودم، تكاد تحسها راقدة إلى جوارها في
السريр، أو جلسة معها في غرفة مكنها، ترمقها في صمت وهي
تقرأ أو تكتب، أو تشادل معها بعض الكلمات، تتحاصمان
وتتصالحان، كما يحدث مع بدور وروجها دكرها الخرقشي، وقد
نشط بدرة بعض العبارات التي لا تعجبها في الرواية، بل قد
يحدث فصلاً كاملاً، أو نصف فصلاً من عندها، وقد تحكم على
معضها، على بدرجة، بالموت تحت عجلات القطار، أو رمياً
بالرصاصة.

تخصّصت بدور في القدر الأدبي، أدركت أن بدرجة مثل أي
شخصية في أي رواية، قادره على السرّد على المؤلف أو المؤلفه،
قادرة على الاتصال عن خالفها، والثورة ضلّعه، والتموّق عليه

كانت بدرجة تمشي بخطوة ثالثة، أكثر ثباتاً من بدور، لم تكن
ترنني كعباً عالياً، ربما لأن قامتها كانت أطول من بدور، أو أكثر
نحافة ورشاقة، وأكثر شجاعة في خرق العواصم، والإقدام على
الموت دون أن يظرف لها جفن.

ذلك اليوم أتحدث بدرجة قرارها أن تتحرّر من العبء الثقيل
داخل جسدها، أن تتحرّر من الذكرى الأليمة في خلايا عقلها،
لرثت ملابسها وخرجت، اختارت ثوباً رمادي اللون واسعاً، لا
يكشف عن استدلوات جسدها الأنثوي، له كشكشة فوق الصدر،
تحمي نهديهما والجرح الأعلى من بطنها، فوق كتفها علقت حزام
حقيبتها الجلدية، داخل الحقيبة كان مطرود يحوي رزمة من
الجبهات، ادخرتها من مصروعهما اليومي، وما كانت تسرقه من
جيوب أمها وأبيها

كانت تشعر بلذة غامضة حين تسرق بعض الجبهات من أبيها
وأبنتها، فلا يكشفاً السرقة، ولا سبب أبوها، كانت محفظته
متضخمة دائماً بالأوراق المالية، يحفيها بعيداً عن العيون في جيوب
مظلاته الثمينة داخل الدولاب في غرفة النوم، كان يملأ الكثير من
البذلات، من الصوف الإنكليزي الناعم لشتاء، ومن الأقمشة
الخفيفة للصيف، لكل بذلة جيوب داخلية وخارجية

يتلعت حوله قبل أن يدس المحمطة في أحد الجيوب، يخشى أن تلحظه عين زوجته، أو أحد الخدم، أو ولدا، التي كانت تنظف الغرفة أحياناً، أو تنصع للملاس المكوكة داخل الأدراج، أو تلذم له فئجان القهوة. لم يكن يلحظ عين ابنته بدرية، ربما لأنها كانت ترمقه من شق صغير في الباب المولوب، أو ربما لأنها ليست ابنته الحقيقية من لحم ودم، بل شخصية في رواية كتبها ابنته ثم سرقت منها، ولأن ابنته كانت تتحلى بالأمانة والأخلاق الطاهرة، مثل أي فتاة هذراء في مثل عمرها، لا يمكن أن تسرق من أيها

كست بدرية تمشي في الشارع الإسمعت، كعب حذاتها العريض المربع يدي الأرض بانتظام، فوق جذلو المبنى ساعة تشير إلى الثانية ولا ربعاً، موعده في الثالثة تماماً، لم يبق من الزمن إلا خمس عشرة دقيقة وننتقل إلى عالم آخر، قشعريرة برد تسري في جسده، الشمس قوية بعد أن انتهى الشتاء، وجل عجوز يمشي أمامها، ينهث، يمسح عرقه بمسديل أبيض كبير، يتعم آيات من القرآن، أو ربما يكلم نفسه، امرأة ترتدي طرحة سوداء تجر خلفها طعنة تنشج ببكاء مكثرم

أمام باب العمارة العالية وقفت تنفط أنفاسها، رفعت يديها إلى اليافطة المعلقة في الدور التاسع، أخرجت من حقيبتها متديلاً من الورق الخفيف، مسحت وجهها وعينيها، ساقها بزأب أسود البشرة، ضخم الجسم، إلى باب المصعد، رمقها بنظرة صفراء، مدت له يديها مجييه، لمعت أسنانه البيضاء الكبيرة في ابتسامة عريضة، تقلصت في حمضة حين

كان باب الشقة مفتوحاً، مثل كل الأبواب المفتوحة تنصيد الصحايا، عبادات الأطباء، مكاتب الخائوية، صالونات الحلّفين، محلات الجرارين، السماسرة، المحامين، وكلاء الشركات الأجنبية، والمهن الحرة، ومكاتب الأحزاب السياسية والصحف، ورجال الأعمال والجمعيات الخيرية التي أصبحت تسمى الهيئات غير الحكومية، والمدافعين عن حقوق الإنسان، وحقوق النساء.

فوق الباب رقعة لامعة من النحاس، مكتوب عليها الاسم واللقب، مواعيد الريارات والأسعار، في المداخل مكتب الاستقبال، رجل يرتدي مريضة بضاء جالس وراء مكتب صغير، فوقه دفتر ضخم دون اسمها، أخذ منها ورقة الحسابات، وأعطاه رقماً، راحت تبخل في وقتاً طويلاً وهي واقفة ثم جلس في عرفة الانتظار، أخذت تتأمل الوجوه كلها نساء، وحوهن شاحبة مخنوقة، جالسات صامسات مطرقات، وروسهن مثقلة بالعبء، بالخوف من المييب، إحداهن تلفت رأسها بطرحة بيضاء، تحتم بعض الآيات المقدسات، فتاة شابة شعرها أسود طويل ترتدي الميني جيب، وجهها تخطيه مساحيق وألوان، رموشها الغزيرة تيرمش في حركة دائرية، ومقنتها بنظرة سريعة ثم حركت رأسها إلى الناحية الأخرى.

دقت الساعة الرابعة، قادها التورجي إلى باب صغير، في نهاية سرداب طويل، حيث يقبع الموت مشكراً داخل معطلم ليض.

منذ طفولتها كرهت يدريّة الأطباء، لم تكن يبكي مثل مدور

حين يعرض العلب الإبره في جسده، يكوّ على أسنانها وتكس
الأكم

صعدت إلى المصنعة الطويلة من المعدن اللامع، إلى جوارها
مصنعة أخرى صغيرة، فوقها تلميح الأدوات الحادة، مشرط
وسكاكين ويزر وأسيخ حديدية، فوق الأرض اللاط حردل كبير
مليء بالدم المتجمد، أو يقطع اللحم الصغيرة الحمراء.

قبل أن يربط ساقها المفتوحتين إلى العمودين الحديديين
تتمطر جسده واقفاً، بعضت عن نفسها الرعشة والقشعريرة،
ارتدت ملابسها بسرعة، خرجت تجري إلى الشارع، لم تسترد ما
دفعت للتمورجي، لم تنظر خلفها ..

وانتهت بدور من الفصل الأول في الرواية.

قالت بدور لنسها

أكايت بدرية أشجع متي وأكثر أمومة؟

في الليل تبكي بدور على روايتها المسروقة، راحت منها في
اليوم مع طمئنتها الضائعة، حملت بها في مكان وزمان لا تعيها،
وضاعت منها في الحسم.

في اليوم تمشي تبحث عنها، تحوب الشوارع والحواري
والأرقة، تتوقف عند أبواب الكنائس وبعوامع، تتعثر قدمها أحياناً

شيء ملغوف داخل عطاء من الصوف الوردى الناعم، تتعرف على
الدون والرائحة، الأصابع الصغيرة النضة تشبه أصابعها، الوجه
الصغير الوردى ناعم مثل ورق الورد، بشرتها بلون بشرتها، تعطيها
يقع دم جفّت ودموع لم تجفّ، جفونها معنفة مائلة بعطرات مطر.

لو لم تصح جفونها لما حدث ما حدث، لما هزّت بدور أنها
طمئنتها، لما تدجرت أنها حملت بها في البقعة أو المسم، لما
نهضت من فراشها الدافئ في منتصف الليل وجذبت الطرقات
تبحث عنها، لما مزقت شعرها ولطمت حديها وغرست السكين
في صدرها طوال الليل.

لكن جفونها المغلفة المتورمة انفتحت فجأة، ربّما أدركت
المولودة أنّ أمها تعارفت إلى الأبد، أو الأم أدركت أنها تغرق
طمئنتها إلى الأبد، تنزع من صدرها القلب أو الكبد، تلفّه وهو
يقطر بالدم داخل العطاء من الصوف الناعم، تدلّ كبد من البرد،
تحمله من تراب الشارع وقطع الرلط، تمسح كفيها بالأرض قبل أن
تنزع من صدرها، قبل أن تتركه وتمضي بعيداً في الطريق لمظلم
الطويل اللانهائي

كانت بدور تصحو في الليل، شيء ما يوقظها، يصبح مدبّبة
شعر في لحم كتفها، يور قدم يركنها في بطنها، شمرة موسى
تمشي فوق معصمها، يد ترتفع عالياً وتسقط على وجهها في صمعة
عوية، تهت من اليوم مفتوحة العيون، تتصوّر أنه روحها وكرين

الخرنوبي يصنعها، أو أنها بدرية حراحت من بين الأوراق المتراكمة
 بجوار السرير وسدّت إليها صرّة فوقه. ترفع يدور يدها عائلاً لتردّ
 انصعقة بصمعة صمائه، لكن يدها الصضة الثقيلة لا ترتفع، ذراعها
 صمينة فصيرة ممدّصة بجسدها، فسيها محبوس داخل هظام
 ضلوعها، كبدها منزوع من شقّ كبير في جنبها الأيمن. مدّ هذا
 الشقّ الطويل العائر في جسدها لم تعد يدور فادرة على المقاومة
 في طموحتها كانت أكثر شجاعة، في المدرسة لا تسدّد إليها إحدى
 الرميلات ضربة إلا تردّ عيناها بضربة مماثلة أو أشدّ. كانت تمشي
 بين البنات مرفوعة الرأس، تمشي في المظاهرات نهتف ضدّ
 الحكومة والاستعمار، إلى جوارها يمشي نسيم، طويل القامة
 محشوقها، المقلتان الكبيرتان في عينيها ينعكس فيهما ضوء
 الشمس. يتغير لونهما مع حركة الضوء، الزرقة العميقة الدكناء إلى
 حدّ اللون الأسود، كعين الليل، أو عين النهار حين يأتي الصبح
 وتشرق الشمس

في أحلامها قالت بدرية ليدور... سيكون لك طفلة أو طفل
 يهاتين المقلتين، منتظرين في عينيها أو عينيها وتملكين الكون.

لو لم تفتح جفونها وترى المقلتين الزرقاوين السرداوين لرُبما
 هاشت بدور حياتها مثل غيرها من النساء، لرُبما هسّتها عشر
 الروحية السعيد مع ذكرها الخرنوبي، لرُبما ابتهدت بمكرها العالي
 في الجامعة، وإنتاجها العظيم في النقد الأدبي، والعمود اليومي
 الذي يملكه زوجها في جريدة أبو الهول، وابتها مجيده الخرنوبي
 التي تكب في مجلة النهضة، ويطافات الدعوة التي تأتيها بالبريد،

والكتب والمؤلفات التي يرسلها إليها الكتاب والكاتبات يشدون
 منها كلمة أو مطرة أو لفنة كريمة

كانت يدور تحمي حرسها العميق تحت وجهها المسود
 المسحور، تطوي سرّها الدفين في ثياب أحشائها، ترسم فوق
 ملاعجها انسامة مشرقة، تطبق ضحكة صدية من حين إلى حين،
 ربّما لا يكون هناك شيء مضحك، لكنها تطلق ضحكتها المميزة،
 طويلة وحادة، تنتهي بشهيق متفطع الأنفاس يشبه الشهيق المكنوم.

لأن خبراء تربية المواشي يؤكفون هذه الحالة، حين تصاب
 البقرة الأم باكتئاب مزمن، بعد أن ينزعوا عنها وليدها، بعد أن
 تنظر في عيني وليدها قبل أن يفارقها، كان الخبراء يغطون عيون
 البقرات الأمهات، يضعون فوق عيونهن غطاء سميكاً لا يشفّ
 الضوء، تلد البقرة عيناها أو جعلتها دون أن تراها، دون أن تلتقي
 العيون لحظة أو أقل من لحظة، دون أن تتلامس العيون في نظرة
 واحدة أو نصف نظرة. إن هذه «نظرة الواحدة» هي التي تبقى مع
 الأم، لا تفارقها حتّى الموت، وإن كانت بقرة، فما بان أن تكون
 ناقدة مرموقة، اسمها بدور، أو بطة في رواية أدبية اسمها بدرية؟

في الليل تتحسّس بدرية بطنها من تحت «المطاء»، تحت كفّها
 البضة الباردة تحسّ دقائق العذب الصغير، وفسات القدم الدفيقة
 الرقيقة تدقّ جدار بطنها، تصعظ بيديها فوق الصوت تكسبه، تلمّ
 أصابعها حول العنق الصغير تحقّقه، تريد أن تراه متاً، وتريده أن

يعيش ويرى السور، تتحرك بين الإرادات، إرادة الله وإرادة
الشیطان، كان الله يريد مبعأ، لأنه ابن ربي، وكان الشيطان يريد
حيث يتألم في سماء الكون كالجم

في الطرقات المظلمة كانت بدر نثني، تفردا بدرية من
يدها، تسحبها من خدعها كما يسحب الملاح يقرته من خلعه،
عيناها لا تريد الطريق أمامها، الغمامة المربوطة حول رأسها، أو
لأنها مغلفة الجفون في يوم صيف، أو لأنها تركت أمرها ومسيرها
في يد بدرية. إنها بدرية التي تحضرها على العصيان، منذ الطفولة
تدفعها إلى الخروج إلى الشارع، إلى الهروب من المدرسة
والمشاركة في المظاهرات، إلى الهتاف ضد الله والوطن، ضد
الأب والأم والجد، ضد المدرسين والمدرسات. إنها بدرية التي
دفعتها إلى دخول الغرفة في البدر، هي التي وقعت في حب
نسيم، هي التي أوادت أن يكون لها طغى برث فوامه
الممشوق، يمشي فوق الأرض بحصواته الشامخة، مقتلان كبيران
شامختان إلى الأمام، لونهما أرق أسود يعمق البحر في الليل أو
السماء حين تسطع الشمس، تصورته رجلاً آخر اسمه نعيم، كان
هو حبها الأول قبل أن يدركها الحيف. إنها بدرية التي فتحت
جفونها وراة المعلنين قبل أن تخفي في الظلمة، رأيتهم لحظة أو
نصف لحظة، لم تكف بعدها عن البحث بعد أن يسام الكون
ترتدي ملابسها وتخرج، تمشي في الشوارع، تنظر في عيون
الأطفال، تحمق في عيونهم تبحث عن المعلنين، قد تكون الظلمة
رافدة فوق الرصيف عارفه في السوم، جعومها معدة، فدعها

الصعيرتان مشقتان، بشرتها صمراء حرقنها الشمس، عبقرة بدوثر
بيضاء وصمراء تعلوها جروح وكدمات، شعثها مفرجتان قليلاً مثل
الأطعمان في السوم، تتسم لأنهما أو أبيهما المجهول في الحلم، تفزع
الطفلة عسها لثري بدرية جليلة إلى جوارها، تمد لها يدها برعيف
خارج من القرب، أو قطعته كعك، قبل أن سهض وتمشي بمبدأ،
بيستا المقلتين نفسيهما، ليستا العنيتين نفسيهما، ليست هي النظرة
المحمورة في خلاها العقل، داخل ثياب المصغ، ليست هي زينة ابنة
نعيم

لا تمتد لطفلة يدها إليها، تعرف أنها ليست أنها، إنها امرأة
أخرى لا تعرفها، واحدة من هؤلاء النساء، عضو في جمعية رعية
أطفال الشوارع، أو رعاية مرضى السل أو الجذام أو الإيدز، أو في
مجلس الطفولة أو الأمومة أو الوالدين، أو موقمة في حزب
الحكومة أو المعارضة أو حقوق الإنسان.

لا تمتد الطمعة يدها في إباء وشسم، لا تريد حسنة ولا شفقة
من هؤلاء أو أولئك، لا تريد رفيف خبز أو قطعة من الكعك، بل
تريد أن تذهب إلى المدرسة وجامعة مثل غيرها من بنات النسي،
تريد أن تكون لها كرامة وشرف وشهادة ميلاد، وشهادة التيسانس
والدكتوراه.

تعود بدرية إلى بيتها مهوكة القوي، محنية الرأس، تكاد تشبه
بدور بعد أن تزوجت. لم يكن ركبها الحزني حتى أحلامها، تقدم
إلى أبيها يطلب يدها، كانت الثورة قد قامت وسقط الملك عن
العرش، جلس في مقاعد الحكم مولد صمد، يرندون ملابس
عسكرية، أحدهم هو أبوه اليورنشي لدامهيري، كانت أخته قد

تزوجت من ابن عم أحد قادة الثورة. جمع الدامهيري البذلة العسكرية، ارتدى ملابس مدنية أسفة، أصبح له مكتب وحر في المؤسسة أو لجنة الثقافة والأدب والفنون والصحافة، يجمع بين عدد من الوظائف والديان العليا مثل غيره من العسكريين. يمكن الواحد منهم أن يشرف على عدد من الهيئات والمجالس والديان، تحمل اللجنة اسماً مركباً من كلمتين: العليا الدائمة، كان الواحد منهم يحمل سبحة صفراء في يده، يصلي الجمعة وراء الصف الأول، أو الصف الثاني، يتصور أن الله معه في كل خطوة، أن لجنته الدائمة العليا هي من عند الله، وأنها دائمة دوام المخلوق الواحد.

كان زكريا الخرتيني صحفياً ناشئاً، كتب بعض المقالات في مدح الملك، حذرها من ذاكرته بعد قيام الثورة، بدأ يكتب عن الثورة المجيدة ثم عن الاشتراكية العربية الإسلامية ليست هي اشتراكية كارل ماركس اليهودي المنحد.

يصعب حسن القلم على الكلمتين «اليهودي المنحد»، كلمة واحدة منهما كانت كافية لتبويت سمعة أي كائن حي أو ميت.

في الصباح وهو يرشف القهوة يتطلع زكريا الخرتيني إلى الصور المنشورة في الصفحة الأولى، لم تكن أعلامه تصل إلى هؤلاء العظام في الصفحة الأولى، يقب الصفحة بأطراف أصابعه القصيرة النحيفة، تتطلع عيناه الضيفتان الغائرتان إلى وجوه الصفحة الثانية، يرى وجه الأستاذ الكبير الدامهيري تحول الدامهيري من رجل عسكري إلى مفكر كبير، يتحدث في الأدب والفن والثقافة، صورته تظهر داخل يروار مرتفع فوق حصر من أحبار، أو مقال

صغير يكتبه إن شاء له أن يكتب، أو قصيدة ركيكة من فصائله في العزل السياسي، أو في حب العواني.

ذات يوم وهو يقرأ الجريدة، رأى صورة فتاة مستديرة الوجه، شعرها طويل ناعم يسدل فوق كتفها، عيناها ناصتان في نظرة الأنثى الحاملة بالحب، يدها البضة السمينه فوق المكتب، بين أناملها الرقيقة قلم قصير يشبه قلم الحواجب، اسمها مطبوع تحت الصورة: الناقدة الشابة الجديدة بدور زكريا الخرتيني.

كان الجرح العميق في أحشائها قد التأم، مسحت من ذاكرتها صورته، الوجه والقوام والمفلس، الغرفة من البلاط في البدر، عرفت أنه مات في السجن، مات مينة طبيعية بإرادة الله، كما جاء في التقرير الطبي، لم يكن الوحش الذي مات من الصورة في السجن، أو أصابه رصاصة وهو يمشي في المظاهرة، أو طارده عرقه من البوليس وهو يهرب في الليل، كم كان عدد هؤلاء؟ الذين دسوا صورة الملك؟ الذين هتموا يسقط الاستعمار البريطاني؟ تحب مصر حرة؟ هؤلاء الذين هنجوا الطريق أمام الثورة؟ لكن ما إن جلس الرجال العسكري على العرش حتى غيروا التاريخ، أصبحوا هم الأبطال واندثرت أسماء الموتى والقتلى في العدم، جفت دماهم في الشوارع، والسجون، والمعتقلات، ضاعوا من ذاكرة الأمة والتاريخ، ومن الكتب المقررة للتربية الوطنية في مدارس الأطفال.

تزوجت بدور في حفل كبير، حضره كبار رجالات الدولة، وأعلام الأدب والفن والصحافة، زكريا الخرتيني يمشي محتالاً

داخل بدلة العريس، بدور ترتدي ثوب الرفاف الأبيض من الدانتيل
الرقيق، يهداه الكبيران مصعوطان تحت الوثيان الحرير، صدرها
يعتلو ويهبط تحت الدقب العروة المتصاعدة، أنفاسها تلهث وهي
حالسة، ترمق وجه العريس من الجانب، رأسه مثلت، عيناه
عائرتان تحت جبهه عريضة مثنت، أنفه كبير حاد مقوس قليلاً،
جسمه عارق داخل الكرسي الكبير المدقب، جسم نحيف قصير،
شعر رأسه أسود، بواحد صنعة مزجج تحت الشعر الخفيف في
منتصف الرأس، قدماه صغيرتان داخل حذاء جلدي لامع، مذهب
البوز، يشبه ذنب المثلث المدقب، في بوز طويل

صديقته صفاء الطلي تمسك يدها البيضاء الصغيرة في يدها،
أناملها ترتعش، كفها مبلاة بالمرق.

- تشجعي يا بدور

- ريتا يستر يا صافي.

- ايوة ريتا موجود.

كانت الطبول تدق والموسيقى تمزق، أصية مبروك حليكي
هريسك الخفة يا عروس يا زاية الرقة

تور كلمة زاية في أدن بدور «رائية»، نقطة واحدة ترفق من
فوق حرف الون، تخرج شعثها عن تهيدة، أو ابتسامة، تملت
منها ضحكة قصيرة متقطعة تشبه الشيج المكتوم، ترمقها صافي
سطره جدية، وتكتم الصعك

في غرفة النوم قبل أن يحنح عنها ثوب الرفاف، وهو يهمس
في أذنها «أحبك» أدركت أنه يكذب، هدأت أنفاسها قليلاً وكفّت

الغريبات تحت صلوعها عن التصاعد، جاءه صوت بدرة من
تحت اللواعة وهي واقفة تحت، الكذب بالكذب، وانعش بالعين،
والسن بالسن يا بدور، كما قال الله في كتبه الكريم

كانت بدور تؤمن بالكذب السماوية، لكن بدرة كانت مثل
صديقها نعم، تدرك أن مستحيل الإنسانية في العموم والصوت، أن
الكون كائن متطور عبر ملايين السنين، أن الإنسان لم يخلق من
الطين.

بعد انقطاع زمة بنت رينات عن المدرسة، ظلت أبلة مريم
تبحث عنها، صورتها لا تعارق ذاكرتها، مشيتها بين البنات طويلة
وممشوفة مرفوعة الرأس، جلستها إلى كرسي البيانو بغير ظهر،
ظهرها مستقيم المقام مشدود، أصابعها الطويلة «نحيفة الصلبة»
تجري فوق البيانو بسرعة الضوء، عياف قطعان من الحجر
البركاني الأزرق، شعلتان من نار سوداء ررقاء يتغير لونهما مع
حركة الأرض حول الشمس، مع انتفاضة العشب إن أهبطتها
إحدى البنات، الابتسامة الطمولية المشرفة، أشعة الصبح تبدد
الظلمة، حين تنسم أبلة مريم في وجهها. أبلة مريم كانت تعيش
في شقة صغيرة من غرفتين، في شارع صغير متفرع من شارع
التحرير، فاطمة أنها المسلمة تزوجت من أبيها ميخائيل، دون
ورقة رسمية، لم يكن الشرع ولا القانون يبيحان للمسلمة أن تزوج
من رجل غير مسلم، هربت عاصمة من عائلتها في الصعيد، وهرب
ميخائيل من أهله للبحيرة، التقى في مدينة القاهرة، في إحدى
المظاهرات ضد النظام

أصبح أخته مريم مدرسة للموسيقى، كان ميخائيل عازفاً على العود في فرقته موسيقية قبل أن يهاجر خارج البلاد، أختها فاطمة قتلتها أبوها الصعيدي بطلعة ناز

في ليلة مظلمة باردة، بينما كانت أبله مريم تمشي في شارع النيل، رأت طفلة راكدة داخل الكشك الحشبي، فوق دكة طويلة خشبية، كانت هناك أربع دكت مثل هذه الدكة داخل الكشك، يرق عليها أصمال الشوارع، هارقين في اليوم داخل جلاب بلون الرماد. فوق الأرض إلى جوارهم نرقد قطعة كبيرة عيناها المحضراوان يكسوهما ريق، يلعب في ظلمة الليل، من حولها ستة من القلط الوليدة، تحوطهم من كل جانب، تلتصق بجسدها، بدنها بأفهامها، تلعبها بلسانها، تمنح عنها التراب والدم.

كانت أخته مريم تسكن حذاءها الجفطي الأسود، كعبه مرتفع سميك، يدق (اسفلت، القدم وراء القدم، ترق الدقات في سكون الليل عالية حادة، انصمت الفتاة لسماع الصوت، صمت صمدها نسة إلهي، انصمت الحصرة في عينيها بنار متقدة، كشفت عن أنيابها تنأب للدفاع عن مولوداتها الست، كانت القلط الشاردة في الليل مثل أطفال الشوارع، تحوص معارك كثيرة، ضد الكلاب الشاردة، والمصاهبات من قطاع الطرق، لصوص وتجار مخدرات، وشباب بلا عمل ولا أمل، وفلاحون هاجروا من الأرض البور والفقر، وعشائر طردتهم المصانع المملسة، وبنات الليل لم يبق لهن إلا الجسد يبع في السوق، وروجات أصبحن في الشارع بعد أن مضى الروح كدبة خائفة ثلاث مررات

نمتوت زينة بنت وبنات بين بنات الشوارع، لا يمكن أحداً أن يقتصها وإن غابت في اليوم، أصابعها الطويلة النحيمة المدببة مثل المصابير، تعرجها في أي عشق، تشق أسننها العويّة الحادة مثل السكاكين أي جرح من الجسم، تخرج أنيابها قابضة على قطعة من اللحم

في النهار تجلس بين البنات على الدكك الحشبية، أو على سور النيل الحجري أو الحديد، تقرأ عييهن أهنية كتبتها في الحلم، حفظتها عن ظهر قلب في اليوم، مع اللحن والموسيقى، تدق بأطراف أصابعها على الدكة الحشبية، أو حديد السور أو قطعة الحجر، أو الأرض الإسفلت، أصابعها قوية صلبة المعظم، أصابع حديدية لا تلين، دامت فوق الصخر وهضمت الرلند، تدق اللحن مع الإيقاع، تمنّي معها البنات، يرقصن معها داخل جلابيهن الممزقة، يضررن الأرض بأقدامهن الطمويه المشققة، تنقش السحابة من عيونهن السوداء أو الرقعة أو المحصرة، بلون الررع، مثل عيون القطط الصغيرة تحوطها الأم، كانت زينة بنت وبنات تحوطهن كالأأم، تكبرهن بعدم أو هامين، تبدو كأنها أكبر منهن بعامة عام، كأنها لم تولد طفلة، بصحت داخل الرحم، خرجت إلى العالم حنة طويلة القامة، قوية الشكيمة، إن سدد إليها العالم ضربة، سددت إليه ضربات، لكن الطفلة في أحضانها ظلت تعيش، ونفثت، حتى آخر الرمق، تحت ضلوعها يخفق قلبها كالأطفال حين يأتي الصبح، حين تنسم في وجهها أبله مريم أو واحدة من البنات في الشارع أو في المدرسة، أو على خشبة المسرح

لم يكن لها صديقة في المفروسة إلا مجيدة الحريتي، تدعوها أحياناً إلى بيتها الكبير في جاردن سيتي، تلعبان معاً في الحديقة الواسعة حول البيت، تعرفان معاً على السياف في بهو الصالة الكبير، أصابع مجيدة ممثلة باللحم، عظامها رفيعة، حركتها بطيئة، قامتها قصيرة مثل قامة أبيها زكريا الحريتي، تتأرجح وهي تمشي كالبطة مثل أمها.

كانت هناك غرفة كبيرة من الطوب الأحمر في الحديقة الخلفية، تنمو فوق جدرانها حتى السطح شجيرات النرجانيل، الجهمية المسحية واليغناء والصفراء والحمراء بلون دم الغزال، جدران الغرف من الداخل معصاة حتى السقف برفوف الكتب. في الركن مكس كبير محاور اللمعة، فوق المكتب لعبة كهربية كبيرة، وأوراق كثيرة مسراكمه، قصاصات صحف ومجلات، مقالات مكتوبة بخط يد زكريا الحريتي، كان يأتي إلى هذه الغرفة أحياناً يشد الهدوء حين يروح في الابتعاد عن البيت، أو عن زوجته بدور، وصديقاتها ذوات الصوت العالي الحاد، خاصة صديقة صهرها صفاء الطي، لا تكاد تدرقها في الجامعة أو في البيت، تقرأ عليها مقالاتها في النقد الأدبي قبل أن تنشر، تتأقشان الساعة وراء الساعة، حتى يأتي الليل، تحمل صفاء حقبتها وتخرج، تناديهما بدور قبل أن تخرج.

— يا صافي، نسيت أقولك...

— إيه يا بدور؟

تقفان فوق السلالم الرخامية تتحدثان، تنطلق ضحكانهما من حين إلى حين، يتعزف زكريا الحريتي على ضحكة زوجته من

آلاف الضحكات، ضحكة ماعمة معطولة تنتهي بشهيق متقطع يشبه النشيج المكسوت. لم يكن يطيق سماع هذه الضحكة، يصعقه على وجهها في المرائش لتكف عن الضحك. إنه يكت برفع يده ويصعقها بكالها مثل ضحكتها حين يرقد فوقها، لا ترفع يده لترد له الصعقة، تطرق برأسها، تكتم البكاء أو الضحك، تكتم الرغبة في أن ترفع يدها عالياً ونهاياً فوق وجهه ضرباً وصفعاً، أن تمر له عن رأبها فيه، منذ سمعت يقول لها أحبك، تفرح شمتها عن الكلمات المكبوتة في أحشائها، يخرج من بينهما هراء ساخن دون صوت.

لم يصعقها روحها إلا بعد موت أبيها، ثم بروحها إلا لأنها ابنة الأستاذ الكبير الدامييري، يرى صورته مشوره في الصحف مع كبار رجالات الدولة، على شاشة التدمزيون يألو مثل السحوم، يركب متلة سوداء كبيرة، يسوقها وحل أسود المشره يرسي علامس الجبود، يسكن للعبلاً الكبيرة المطلة على النيل، به مكتب فخيم تعطي جدرانها رفوف الكتب، في الأدب والفن والسياسة والتاريخ والفلسفة والدين، يمكنه بحجزه فلم أن يحوز صحفياً ناشئاً معموماً إلى كاتب كبير أو رئيس تحرير.

في الحديقة الواسعة حول البيت كانت «مجيدة» تلعب المسافة مع «رصة بست زسات»، نخشبي «مجيدة» وراء شجرة أو دحل الكاراج تحت السيارة، أو في المخزن بجوار الكاراج بين الصنديق الكبيرة من الحشب، أو من الورق المقوى الكرتون، تعزف فيها أمها الكتب والروايات التي نأبها بالريد، لا تفتح أمها هذه

الروايات، تنقي بها موى الأرض إلى حول مكتبها، مع الصحف والمجلات التي قرأتها، بأبي دادا تنظف الخرفة، نحمل الكتب والروايات بما هونها من أسماء وصاوين وأختام البريد، تحملها داخل كيس كبير من البلاستيك الأسود، تمشي بها عبر البهر الكبير، نهبط السلالم الرحامية إلى الحديقة، نجتاز الممرات الحجرية بين أحواض الرهور والورود، تصل إلى الممر الطويل بين السور الحديدي والأشجار، تدور حول البيت مع الممر حتى الحديقة الحلقية، قد تتوقف لحظة لتلتقط أنفاسها، أو لتختلس نظرة داخل غرفة البية الكبير، كما كانت تسميه، تلمحه من خلال المائدة الزجاجية، جالساً وراء مكتبه، يقرأ تحت ضوء اللبة الكهربائية، أو يكتب عموده اليومي، أو يحملني في الفراغ، عينا إلى أعلى، كأنما ينتظر الوحي من السماء.

لم تكن مجيدة تحتين في غرفة أبيها، مئة واحدة دخلت، كان أبوها مستغرقاً في الكتابة، رفع رأسه من فوق الورق وصاح غاضباً:

- اطلعي بزه أرمي تدخلني هنا ناتي الأوضة دي ما حديش يدخلها مفهوم؟

- حاضر يا بابا.

- كانت زينة بنت زينات قادرة على الإمساك بمجيدة في أي محباً هي الحديقة، العقلان الكبيرتان في عيبيها الواسعتين تشقان وهجاً أردي وأحضر وأحمر، تنموز عيناها بلون أحواض الرهور، تكشف الأركان الحمية في الحديقة مثل أشعة الضوء. وكان جسمها حليماً، تجري به بين مروع الشجر كالفرشة البيضاء، إن

لوتدت ثوبها الأبيض من الفطس المصري أنها ريات كانت تشري لها ثلاثة أمتار من الفطس من شركه المحنة الكبرى في شارع التحرير، تدفع أبلة مريم ثمن القماش، وثمن الحذاء الجدي الأسود، والشريط الأبيض في شعرها الأسود الحش، السافر كالأسلاك

كان يكمي أن يكون للبنت هذا الشعر حتى تموتها الألسنة، كانت شعور البسات من العائلات ناهمة مرسدة فوق ظهورهن، مستلعة تحت لمسات الهواء أو أصابع الرجل بعد البروح.

لم يكن لريانة بنت زينات عائلة. أبوها مات وهي في لرحم، ورثت عنه ذلك «الجين» الحنيد الصلب، صلابة العظام الطويلة المشوقة، والرأس الأكثر صلابة، والشعر السافر كالأسلاك الحديدي، يحمي الرأس من الضربات، راسقتين الكبيرتين تدوران كما تدور الأرض حول الشمس، داخل عيبي واسعتين سوداوين درقاوين بلون الأرض والبحر، يحوطهما يديان أبيض صديق، بلون الأمواج تحت أشعة الشمس، أو قسم الجبال الشاهقة وراء البحار.

من خلال جدار الرحم سمعت أنها تهتف بسقط انظم، تحيا للحرية، إلى أفتيها في الليل كان يسري الشبح المنقطع لمكثوم، صوته الكرماج يلسع الهواء، يسقط موى اللحم الحي، يرتفع إلى السماء، ترف من الدعاء، وقطع حية من الجسد، كموت «تدق

نصرت أسفل النظر، بين المعبدين المشدودتين، فوق رأس ذلك
 المعصم الذكري الذي يستويه في السجون القصيب، يرمق رئيس
 السجن قصيب المسجون بعينين هسقتين عاثرتين، لونهما أصمر،
 مشعاع بالحسد، والإعجاب، يقترن الإعجاب دائماً بالحسد،
 كان قصيب الرئيس السخوب صغيراً نحيفاً مفؤوس الظهر، تسري فيه
 جماء غبيلة صفراء تعاني الأنيميا والجوف من الفم والرؤساء، إن
 أصابته انتصاباً يترشح متأرجحاً بين الإقدام والإدبار، يظل دائماً
 منكشأً في سرير الزوجية، لا تثرة إلا فتاة صغيرة من بنات الهوى
 في سجن النساء، كان يكذب على زوجته، يقول لها إنه يذهب
 للطبيب، يعالجه من الضعف الجنسي، يتسلل من فراشها في الليل
 ويذهب إلى بنات الهوى، بعد ابتلاع حبة رداء من المياغرا

يترکز الإعجاب والحسد في رأس المسجون الشامخ، إن
 سقطت فوقه الضربات يظل مرغراً نحو السماء، يتحدى السماء
 والرؤساء، في الليل يحكم بالسيف بحسكه في يده، يضرب عنق
 المسجون، يسرق رأسه الشامخ، يركبه فوق عنقه الطري المنتوي،
 دون جدوى، لا يركب هذا الرأس فوق هذا العنق، دون جدوى،
 دون جدوى، في النوم أو في السقطة، دون جدوى لا يصبح
 للسجان رأس المسجون أبداً.

محيدة وريه سب رينات نعب المساك في الحديقة انو سعة،
 إن احتصب محبته تحت لأرض نعر عنبه رينة سب رينات،
 تمسكه من ذراعها، تشده من يدها ونصرح فرحاً

مسكتك يا محدة

سعيّر الأدوار حسب النعبة نصبح مجيدة هي المساك،
 تحتفي رينة بنت رينات، نعلك محبلة الرباط حول عنبها، نطر
 حولها باحة عشاء تفتش بين الصناديق هي غرفة أنمرون، تبحث
 تحت البسيرة في الكراخ، تفتش في الحفر في الأرض بين
 الأشجار وأحواض الورد.

لم تكن مجيدة نعر على رينة بنت رينات مرة، لم تكن
 المساك تمسك بنت رينات، فهي بنت شوارع، تدرت على
 الانخفاء عن عيون الشياطين والآلهة، لم تكن عين إبليس الساهرة
 قادرة على رؤيتها، وعين الله التي لا تنام كانت تدم حين تحتفي
 رينة بنت رينات في الغلام

إلا مرة واحدة استطاعت عين إبليس أن تلمحها وهي تجري
 بين أحواض الورد، امتدت ذراعها الطويلة الصلبة التي تشبه
 القصب من الحديد، وأمسكها من ذراعها، شده من يده إلى
 العروة الحليلة في الحديقة. كانت لحظة واحدة وهي تجري بين
 الزهور كالغراشة البيضاء، رفع الهواء ثوبها الفضي الأبيض عن
 ساقها، منقط عين إبليس فوق المحدثين الناعمين المفتوحين
 للهواء وهي تممر، صعدت عيه إلى أعني، مع أجسد الصعر
 الأملس حتى أسفل النظر، حيث العنة الملساء الناعمة التي تم
 يست فيها أشعر بعد.

كانت رينه سب رينات في التاسعة من عمرها، طعمه

بالمدرسة، ابنه مريم تمسك أصابعها الطويلة السحيقة عالياً ليراهم
النساء، تقول أنة مريم

أصابعها خلقت للموسيقى يا سماء، ربة بيت وبنات
سيكون لها مستقبل كبير في عالم الفن يا بنات

تسكنش مجيدة داخل مقعدها في عري، تطرق إلى الأرض
مخجلاً من جسدها القصير السمين، أصابعها قصيرة سمينة طرية،
تلتوي فوق أصابع البيانو، لا تصيبها تلك الانتصاب القوية الصلبة،
لا تدق على البيانو بثلاث الحركة الأسرع من الضوء، عنقها مثل
جسدها قصير سمين طري لئن العضلات يلتوي تحت ثقل رأسها
وهي تمشي.

بتراكم الإهجاب والحسد في قلب مجيدة الصغير، عمرها
ثمانية أعوام، تكبرها زينة بنت زينات بهام واحد، تبدو كأنما أكبر
منها بمائة عام، كأنما عرلت الحياة والموت، والله والشيطان،
ولم تعد تخافهما.

لكن قلب مجيدة مليء بالخوف، تخاف نار جهنم الحمراء
بعد الموت، تخاف كنف أبيها حين ترتفع في الهواء لتسقط فوق
وجهها أو وجه أمها، لتتقن الصعقة وتسكت مثل أمها، أو تحبس
اللحمة الحسنة من قس، لا تستطيع أن ترفع يدها عالياً لتسقط فوق
وجهه، يدها بضعة سمينة بطيئة الحركة مثل يد أمها، رأسها يطرق
إلى الأرض مخجلاً من جسدها القصير السمين كما تفعل أمها حين
تمشي

كان اليوم جمعة، خرجت بدور وانتهت مجيدة بربار صافي،
صديقه لأم الوحيد كانت صافي تسكن وحدها في شقة صغيرة
شارع المعجورة في أول الشباب تزوجت صافي من زميل لها في
الجامعة يؤمن بالماركسية، تطلعت من الله والرسوم من أجل
الحب، عدها زوجها على الحب والإخلاص، ثم سكر لعدها
صبيته في الشقة مع الخادمة الصغيرة، قل لها إن لأسباب متعددة
بالتبيعة، وإن التغيير هو قانون الطبيعة الثابت، إن كلمة الخيانة
الزوجية من محلفات الإقطاع والملكية المردية، إن الزوجة لا
تمتلك زوجها، لأن الإنسان حر، الحرية هي أعلى مبادئ
الأخلاق، لا يساويها إلا الحب بعد الطلاق تزوجت صافي من
زميل آخر يؤمن بالله والرسول، يحترق بين يديه سبعة صفراء،
فوق جبهته زبيبة سوداء من طول السجود بين يدي الله، عاهدتها
على الحب والإخلاص، تطلعت صافي من كارل ماركس وفردريك
إنجلز، لفتت حول رأسها حجاباً يخفي شعرها، تزوجته على ستة
الله ورسوله، ثم بعد عامين وهي تمشي في أحد الشوارع البعيدة،
في الطرف الآخر من المدينة، قرأت فوق باب بيت اسماً يشبه اسم
زوجها، الاسم الثلاثي بالحروف نفسها، محفور فوق رقعة نحاس
صغيرة مثبتة فوق الباب بالمسامير.

توقعت لحظة متشككة، قالت لنفسها قل أن تدق الحرس،
تشبه الأسماء الثلاثية في كل السجلات، حتى كشوف الاشتباكات
ومكاتب البوليس، قد يدخل الحرس رجل بريء بمحرد الشبه في
الاسم، أو يهضم من انفسر حيث يسحب الرئيس، بسبب تشبه
الأسماء ليس إلا

دقت الجرس ثلاث مرّات حتى انتعج الباب، رأت أمامها روحها، ملجعة ودمه والرسة في منتصف جبهة، كان مرتدياً مائة بيضاء فيها رموز وردية، سرواته واسع مفتوح الأزرار، يطلّ من الشقّ فضيّه الذي تعرفه، لا يمكن أن تحطّته من بين القصبان في أنفها رائحته لا تزال مثل ليلة الأمس، ارتفعت يدها عالياً في الهواء، كادت أن تسقط فوق صدره، لولا أن ظهرت من خلفه طفلة صغيرة أمسكت يده وهي تصيح. بابا! دفع الطفلة يده إلى الداخل، قال لزوجته وهو يرفع وجهه ناحية السماء

- أنت مزمّنة يا حبيّتي والله والرسول. قانون السماء يعطيني الحقّ في الزواج بأخرى، وقانون الدولة أيضاً، إن شئت ادعيني إلى المحكمة

كان اليوم جمعة، يهرج زكريا المحرّتي من الصبلا في جاردن سبني إلى الجامع في الشارع المحاور، كانت الجوامع تتكاثر في الشوارع والأزقة والمحاري، قد سبب الجوامع الصغيرة الوليدة داخل البيوت، في بناء البيت، أو مدخل البيت، أو تظهر عبارة صغيرة فوق جدار، بثبت فوقها ميكروفون بالمسامير، لتصبح جامعاً يذهب إليه الرجال للصلاة الجماعية صباح يوم الجمعة، والاستماع إلى خطبة الإمام، شيخ الجامع.

كان يوماً دافئاً من أيام الربيع، حرارة الشمس نسري في الجسد بعد برودة الشتاء، حسم زكريا المحرّتي البذلة الثقيلة من الصوف، والكومية التي لفتها حور عفه، ارتدى بذلة حريرية فوق قميص مفتوح دون وسطة العنق، يلامس الهواء الناعم عقه القصير

الشمس، يسري إلى لحم صدره المعطى شعر أسود خفيف، يختبئ العمام وراء العمام،

يتخلّل السواد شعرات بيض في صدره ورأسه بعد أن تجاوز الستين، أصبحت له صلعة كبيرة في منتصف رأس، تلمع تحت أشعة الربيع بضوء أصفر، عيناه ضيّقتان غائرتان تطفو فوقهما نظرة صغراء، كلّما وقع بصره على عمود زميله في الجريدة، يشيع بوجهه مبدءاً عنها. الجريدة معلّقة فوق الأكشاك الخشبية في النواصي والميادين، مبروشة على الأرصفة في الشوارع، بجوار الجوامع والكشّس، والمدارس والمعاكم ودور اللهو والمسرح والبنما.

لا يحلو شارع أو رفاق من كشك بسع الصحف، ورصيف أو جزء من رصيف مغطى بالمجلات والجرائد، على رأسها حريدة أبو الهول اليومية الكبرى، تطلّ من صفحتها الأولى صورة الرئيس، تحوطها من كلّ جانب فوق الأسفلت الأحجية والمصاحف والمسابيح، والمباعر والمساكنة الصيام، ومواهب الصلاة، وصور المرشحين في انتخابات البرلمان أو الشررى أو الرئاسة أو مجالس القري والمحافظة، وصور النجوم في المسرح، والسينما، والتلفزيون تتجاور الصور فوق الأرض والجدران، صورة فضيلة الشيخ الكبير بالعمامة واللحية والشارب، إلى جواره صورة النجمة اللامعة زيري خليفة أنها زوزو في عمام الرقص والمنا.

كأن ركزها الحرسى يحرك السحرة بين أصابعه المصبرة
 الحقيقة، يشعر بشيء من الأسرحة، بعد أن أنهى كدسه عموده
 اليومى، بعد أن خرجت روحه وابسه من البيت، هوى لأحصى
 روحه، ترفه عيشه، أنتي لا فام مثل عين الله، تكشف حياته قل
 أن يحدث، قبل أن تمشي في حلايا عمله على شكل فكرة صدرته،
 أو رهشة عابرة يصبب لها الشيء الحصى اسفل بصره، حين تقع
 عيناه على فخذي طعنة تقصر في الطريق، أو عثاة مراقة ترتدي
 الميبي جوب.

يتحزر ذكرها الحرتيني من عبء الضمير بعد أن يؤذي
 الصلاة، يركب الطائفة إلى مكة المكرمة كل عام ليمسح ذنوبه
 الكثيرة، يهمس في أذن الرجل المترج إلى جواره في المسجد
 - يا سلام يا أخي، الله كريم على عباده، الإنسان بالطبيعة
 مدب فاسق، لكن الله غفور رحيم، لولا الصلاة والصوم والحج
 ما كان الإنسان يتحمل وطأة ذنوبه، كان الواحد منا يموت يا أخي
 من ثأيب الضمير.

- أي والله يا أخي، يغفر الله لنا جميع الذنوب إلا أن شرك
 به، حتى الرنى يا أخ يعمره الله لنا طالما أننا نعبده وحده دون
 شريك:

- موضوع الرنى ده محل نقاش، حضرتك مين يا أخ؟

- أن واحد من هاد الله، مؤمن صغير في أورشليم الحكومة

وحضرتك مين يا أخ؟

- أنا ركز الحرتيني!

حضرتك تشتغل إيه؟

يشعر ركز الحرتيني بعضه في حنقه، كأن بصور أن كل
 الناس تعرف اسمه، تقرأ عموده اليومى كل صباح، ترى صورته
 المنشورة على صفحات المجلات، على شاشة التلفزيون في
 الحوارات والأحداث، على رأس عموده الطويل الرفيع، داخل
 البرق المربع

- أنت لا تقرأ الصحف يا أخ؟

- لا والله يا أستاذ، كنت رمان وأنا شاب أقرأ الصحف،
 وأصدق كل كلمة مشورة، لكن بعد أن كبرت وشبت عرفت أن
 كتهم كذابين، من أزن برليس يتاعا لغاية برليس الأمريكى
 ولاجليري والعرباوي، كلهم يا أستاذ بدون استثناء كذابين،
 حتى ابني يا أستاذ بيكذب علي، وبنتي ومراثة، إلا مراثة أكبر
 كذابة، لفت رأسها بالعجاب وعملت نفسها ولية من أولياء الله
 الصالحين، كل السواد ليسوا الطرح عشان يضحكوا علينا يا أستاذ
 مش كده ولا إيه؟

- إيه

- يعني إيه إيه؟

- يعني فيه ناس تعرف ربنا وتخاف النار في الآخرة، مش
 كده ولا إيه؟

إيه

نعمت صححة من الناس في لحظة واحدة، ترون في المسجد
 ناس وسط المسمات بالياب المعقسات، تبدو كمنورة بين

الرؤوس المنحنية في حشوع، والجباه الملاصقة للأرض.

- فولي يا أستاذ، هو ربنا موجود بصحيح؟

- طبعاً يا أستاذ، أستمع الله العظيم من كل ذنب عظيم

أبي عاص مشفق، يقرأ كتب كثيرة، يعولي إن علم الكون
أثبت إن ربنا هير موجود

- أياك مشفق جاهد، نصف مشفق، وطلي صوتك الناس
سمعاك، ركز دماغك في الصلاة، ربنا موجود مية في المية، حلي
ابنك يقرأ المصود بتاعي في جريدة أبو الهول، عشان يجمع بين
العسم والإيمان

- حضرتك بتكتب في الصحف يا أستاذ؟ حضرتك صحفي؟

- أبوه يا سيدي

- يعني إنت واحد من الكذابين؟

أفلتت ضحكة أخرى، ضحكة واحدة من دم أحدهما، ليس
هو زكريا الخرنيتي، مطأ شفتيه إلى الأمام، نهض من جلسته
مشاقلاً، بدلك عظم ظهره، عادر الجامع بمنشي بحركة بطيئة،
مساءه السحيفتان مفزمتان قليلاً، ظهره مقوس قليلاً، يرتج قليلاً في
مشيته، يأرجح بين السعادة والحزن، بين العصبية والرفيلة، بين
الإيمان والعلم، يكاد يشبه كسمانه المشورة في عموده اليومي،
تندب كالسدود بين الحكومة والمعارضة، بين الأمانة والحيانة،
يحمل عموده هوار، أمانه العهد، يستعير من كارل ماركس بعض
التعارف، ومن كتاب الله بعض الآيات، يفتيس من القرآن

والإنجيل ما يشاء، ومن خطة الرئيس ما يراه مناسباً، يحار العراء
في أمره، لا يعرفون بالمصيط ما يقول، هل هو مع الحرب أو ضد
الحرب؟ هل هو مع السلم أو اللاسلم، هل هو مع الإيمان أو
اللايمان، أطلقت عليه زوجته مدور اسم الرجل الرقيق، صديقه
صافي قالت عنه: السراب الذي تراه العيون الجاهلة ماء

مع حركة الساقين في المشي أحزن زكريا الخرنيتي بشيء من
الشاط، مع أشعة الشمس الدافئة تسري في عروقه اليابسة، ونسمة
الهواء الرقيقة تنعد من فتحة القميص إلى صدره وبطنه، تدغدغ
الجزء الأسفل من البطن بما فيه الشيء، مع حركة المخلبين في
السير على القدمين، واحتكاك اللحم باللحم، كان الشيء ينشني
بشيء من الشوة، يتعفن قليلاً باللثة أو اللسان في اللثة، لم تكن
روحته بدور فادرة على محبة اللثة، ربما لأنهم مقطوعة البظر منذ
الطفولة، مكتونة منذ أن ولدتها أمها، مجموعة بأبيها العسكري،
تحول بقدرة الله إلى كاتب كبير، أو لأنهم أحببت رجلاً آخر، منذ
ليلة الرفاف أدرك أن في حياتها رجلاً آخر، بل قبل ليلة الرفاف،
عند رأى صورتها داخل البروار عيدها ساعستان الممهلتان في
أنوثة مراوغة، مظرة بنات الهوى، تتخفى تحت ستار من الأدب
والفن والثقافة، والعد المسرحي والسيماي.

كان زكريا الخرنيتي يسي أذنه «كثير»، يمسحها بالحج
والصلاة والصوم، تزوج بدور دون حب دون صدق، كان روحاً
قاتماً على العقل، عند رأى صورة أبيها مشورة في الصحف مع
رجال الدولة، منذ أصبح أبوها رئيساً لتلك المؤسسة الكبرى

مفتقده و الأدب والصحافة، قال له عقله الناطق في الحلم
انه يا زكريا يا ابن المحرنتي، هذا الرجل هو فرصتك الوحيدة
هو طريق الوصول إلى أحلامك في الصحافة

مد وأنه بدور في أول لقاء. قال لها عقلها الناطق في النوم
اسمعي يا بدور يا بنت الداهيري، هذا الرجل انهاري وحوالي،
يستهر المرمض بنصوص قبل غيره من الشباب، تروا في مدرسة
الثورة، إنه لجبل انصاع بين عصر ملكي قاسد، وعصر جمهوري،
أكثر حسداً، بين كارل ماركس ومحمد رسول الله، بين الاستعمار
لبريطاني المتخفي تحت ورقة التوت، وبين الاستعمار الأمريكي
الغاري إلى حد المسق، بين بساء يرتدين للحجاب، وساء يرتدين
الميمي جوب، بين هؤلاء وهؤلاء الفتيات الجدد، تلك الواحدة
رأسها بالحجاب وتكشف عن بطنها داخل المجنر الضيق

زكريا المحرنتي يرمق سلفان الستات وهو يحشي في الشارع،
تصعد هباء الصيقتان العاترتان مع المساق الطويلة الممشوقة إلى
المخذ الممتلئة بالسحب، تضرب البنت بكعب حداثها الأرض مثل
الجواد الجامع، ترتجج لإلتان المكورتان أسفل ظهرها، تمتد إصبعه
في خياله يوسم، في اشتق العميق بين الإلثمين، كل منهما مستديرة
صلبة مثل الكرة المطاطة، لا يعرف السبب من المولد من المختلف، في
المراهقة كان يشتهي الأولاد الذكور، أحلامهم مشفوعة كالسمور،
أحده المدرس الأول ذات يوم إلى المرحاض، حيث ألقاه
العذرية، واحد هو ولدنا أصغر يتيماً ليس له أم ولا أب.

يطرد زكريا المحرنتي هذه الذكريات انمعية، مدفونه في قاع
أحشائه اللغوية، يهر رأسه على إيقاع الموسمي الرافضة في
الراديو، أو في التلمزيون فوق الرف داخل المنهى، فسه يتحفف
من التعب، انتهى من كتابة هموده اليومي، العباء ثقيل بجسم
على صدره حتى يلفظه فوق سورفة، أمامه يوم كامل لسر فيه
زوجته ولا ابنته، يشعر بشوة حقة حين تعيب روجته عن البيت،
تسقط الأملال غير المراتية من عقه وجسده، يصبح البيت منكأ له
وحده، يفرد دراعيه من آخرها، يفرد ساقيه حتى تطفط فقرات
ظهره، يخرج السوة الحضراء الصغيرة من الدرج السري أسفل
المكتب، يحتفظ في الدرج بأسراره القديمة، مشورات الحرب أو
الحلية السرية في الشاط السبسي، بشاطه الجسسي السري، صور
بنات النهري، خطابات فرامية جاءت من النساء، أو كتبها بغط يده
دون أن يرسلها إلى واحدة منهن، أهيات شعر كتبها في الخزل
والحب، عبارات مهذبة بريئة، وعبارات بلذبة يسمعها من أولاد
الشوارع، تطرب لها أديان، ينتشي لها جسده، كانت البداة شيئاً
ضرورياً للوصول إلى قمة اللذة، وكانت بوجته مهذبة، مثل بنات
المثلاث، إن حمس لها بكدمة بلذبة أثناء الجماع تمط شعنتها
ناشمترازة نسري في جسدها برودة من قمة الرأس حتى بطن
القدمين، وإن ضعط عليها بكن جسده، أو نخسها يسكين في بطن
قدمها، أو ثنابا اللحم، لا نستعص في كتابها خلية واحدة، أو
يطرف لها جهم

من نافذة غرفته لمعها وهي تدخل من الباب الخارجي
للحديقة، كان يتأمل وجهه في المرآة، يسوي الشعرات القليلة فوق

الصلبة العنساء، يرمق دفة المثلث بالزجاء، لا يعرف ماذا يفعل
باليوم الطويل حتى تعود ووجته، فتش في القوتة السرية عن رقم
عشبة قديمة، رن جرس السلوى طويلاً دون أن يتقطع الجرس،
أدبر القرص بأرقام أخرى دون جدوى، لم يعثر على واحدة منهم،
قال لنفسه هي ضيق:

هل عثرن جميعهن على زوج أو عشيق، هل ذهبن جميعاً
إلى الحجج ليسبحن دنوبهن أو أصابهن فيروس الإيدز عقاباً من
الرب؟

حرك رأسه ناحية السادة يتطلع إلى السماء، فجأة لمحها
تدخل من الباب كأنما لبثت السماء الدماء، كأنما أطلع الله على ما
دار في عقله فأرسلها إليه قبل أن يسطق بالرجاء، دخلت إلى
الحديقة بقامتها الطويلة الرشيفة، تبدو فتاة شابة وليست طفلة في
التاسعة من العمر، ليس لها أب ولا أم، ضمتها دانا زينات إلى
حضنها كالأم، تولت أبله مريم دفع الفتاة، تبنأت لها بمستقبل
زاهر في عالم الفن والغناء، ترعابا ابنة مجيدة كالأخت، تعطف
عليها زوجته بذكر مثلما تعطف على البناتي واللفظاء. حين فتح
لها الباب سألت بصوت مرح يفرّد:

- مجيدة هنا يا عتو؟

- أيوه يا حلوة ادخلي.

كان اليوم جمعة، تتصاعد الأصوات الراققة من خلال
ميكروفونات، الابتهالاب والكبيرات، وأشهد أن لا إله إلا الله،
تكرر الشهادة آلاف المرات، ملايين المرات، تخرق الأصوات

الأذان، وطبقات الأرض والسماء، تصل إلى أسمع الآلهة
والملائكة والشياطين، وأسمع الكائنات الحية فوق الأرض، حتى
القطط أصبحت ترقّد الشهادة، لأتهات وموودانها الصغيرات،
ترهف القطط آذانها لسماع الأصوات، لا تفهم القطط معنى
الكلمات، لكنها مثل أطفال الشوارع تتقطّ اللحى، برّده عن ظهر
قلب، تظنه أعنيه نعتيها الأم لطعمها عند النوم، أو قصيدة شعر
ترقدها الطفلة في المدرسة، أو إيقاع رقصة يؤدّيها الأطفال على
الرصيف أو فوق خشبة المسرح.

دخلت زيتة بنت زينات إلى غرفة المكتب الكبيرة، جدرانها
مغطاة برقوف الكتب، شرفت بدعشة الأطفال:

- ياد ده كتب كثيرة أوي يا عتو؟

- أيوه يا حلوة.

- إنت قربتها كذا؟

- طبعاً يا حلوة.

فوق المكتب المصمم لوحة مفروش عليها حروف بالخط
السحني الكوفي. يهدي الله من يشاء ويضلّ من يشاء.

يهدي زكريا الحرثي هذه العبارة في حياته، الهداية من عند
الله والضلّال من عند الله. للصلان في حياته جادّة أشد من
الهداية، تسري في جسده لذة الضلال، حارّه وساحه كالدّم بحري
في عروقّه، يتجمّع الدّم أسفل بطنه، يرحف تحت شعر العانة إلى
فتحة الشيطان ومركز العواية.

كانت رومة بسبب رومات تسمى بدمتها الممشوقة، شاقول
البلوحات والغازات وانقطع الأثرية. في ركن الحرفة أريكة من
المجد العاشر الساع، جس عليه زكريا المخرنبي ممسكاً تمثالاً
صغيراً لرأس نفرنبي

- تعالي هتا يا حنة شرقي التمثال ده .

- ألاء ده حلر أوي مين الست دي؟

- دي الملكة نفرنبي!

- كانت ملكة بحق وحقيق؟

- طبعاً، يا ترى عجبك التمثال؟

- أوي يا عموا

- حديه لك، ده هدية مني لك!

لعبت أصابعها الطويلة المحملة حول التمثال، ببعض عبه،
يرمقها ركن، المخرنبي بجانب عبه، أنعها من الجانب مرفوع في
كسريه، مهدها الصغير يمس فوق صدرها تحب الثوب الأبيض،
لم يصبح ندياً بعد، حلقة صغيرة دقيقة، تمتد إصبعه تلامسها،
يلتهب الدم في جسده مع التلامس، كهرة أو تيار كهربي يسري
في أحشائه، يتفرض ويلهث كالممسوس بقوة أكبر منه.

انفضت من فوق الأريكة واقفة، ألقت التمثال على الأرض،
التفت أصابعها حول أكرة الباب تفتحه، لكن الباب كان مغلقاً،
والمفتاح في جيب زكريا المخرنبي، لم تكن طعنة مثل بسات
العائلات، تمزيت على المقاومة في الشارع، فقدت هفوتها مد

مركتها أنها فوق الرصيف، لم تعد تحارب النصوص وفتح الطرق.
كانت هي التسعة من العمر، يكبرها ستة وثلاثين عاماً، رجل ذكر
هاج ذكره، إن هاج ذكر الرجل فقد ثني عقله، كما ورد عن لسان
رجل من أولياء الله، بدأ الصراع بينهما في غرفة المكتب، بين
رجل كبير في رأسه ثلث عقل، وطفلة صغيرة عقدها كبير أكبر من
عمرها، استطاع أن يمزق ثوبه الأبيض من القطن المصري، أن
يمزق لميصها الداخلي، أن يترع عنها الكيلوت الصغير الأبيض،
أن يشد ساقها بعيداً عن الساق الأخرى، أن يدس قضيبه بين
فخذيه، لكنه عجز عن دخولها، عجز ذكره المنتصب أن يشق
طريقه بين ثياب اللحم

كان الطريق معلقاً تماماً، كأنه ليس في جسدها فتحة يدخل
منها القضيب، كأنه ليس بها مهس أو فة مهبل يدخلها عصب
الذكر، كأنها ليست أنثى مثل غيرها من الإناث

لم ينحبل ثلث عقده أن طعنة مثلها تملك هذه القدره، أن
يكون لعصلات جسدها هذه القوة في تجاربه السابعة كانت
بواحدة منهم تسلم في النهاية، وإن قومت وتمنعت وصارعت،
وإن كانت شابة قوية العضلات، فهي في نهاية الأمر تكف عن
المقاومة، ترقد تحته بلا حول ولا قوة، قد تبكي طالبة منه
الرحمة، تتوسل إليه أن يعتقها لوجه الله، لا نزيد دموعها إلا
رغبة فيها، لا تفعل توسلاتها شيئاً إلا إشعاله بحمى الاختصاب،
في أحماقه طفل في المدرسة تم اختصابه، ارتبطت لذة الجنس في
عقله وجسده بالاختصاب، بالانتقام من المدرس الأول الذي هتك
عذريته، من أسه الذي كان يدسه بالعصا الخيران، من حرس

الحمامة، جروا وراءه في المصاهرات، يصرونه بالهزوات، أصبح يتعشى مثل رملاته بعسرة، صرب أصحاب مثل أكل الربيب، يردد مع تراديو أغاني الحب واللوعة والسواح واليهة والهجرات، تربط الحب في جسده وعقله بالألم، تلاحمت الرعة في الجس بالمص وفسوه، كنما رادت فسوه المرأة عليه راد حبه بها، لا يحث من النساء إلا من تهجره وتؤلمه، تصارعه وبصريه وبوجهه، حتى يئن أنيأ بين يديها، كالظلم بين يدي أمه أو أبيه القاسي، أو العبد بين يدي الله الأكبر الجبار.

في صراعه الطويل معها تصور أنها في النهاية سوف تلبس، سوف تعلبها الأنوثة وتسحبها الإرادة لم يدرك زكريا المحرثيني إلا نوعاً واحداً من الأنوثة، أنوثة تربت منذ الطفولة على الخنوع، وإن قاومت أو تمتعت وليس ذلك إلا جزءاً من اللعبة، دموعها جره من اللعبة، قسوتها أيضاً جره من اللعبة، وإن هجرته أو صرته بحرامه الجلدي حتى يئن ويتوجع، وليس ذلك إلا جزءاً من اللعبة، مثل لعب الأطفال في البيوت.

لكن زينة بنت زينات لم يكر لها بيت ولا لعب أطفال، شانت في الشارع، على جانب الطريق، مثل أشجار التين الشوكي، إن أمسكتها يد دون إرادتها فبرزت فيها أشواكها حتى تنزف منها الدماء أسانها أيضاً كانت قوية صلبة كالسماسير، عجزها في لحم كتفه، في عقه، في بطنه، أسفل بطنه، في رأس القصيع داته، قصمت بأسانها قطعة منه، صال الدم غريراً فوق المسجدة المعجمية المرركشه في عرفة المكس

عاب زكريا المحرثيني عن الوعي مصحح لحظات، رقد هو

الأرض يئن بصوت مكتوم، يحول الأيسر بعد لحظات إلى ما يشبه الشجير

مدت ربه بنت زينات ذراعها الطويلة نحوه وهو رافد فوق بطنه، سحبت من حبه المصاح بأصابعها الرفيعة المدببة، سحبت عني رؤوس أصابعها إلى الباب، أدارت المفتاح في الشق الصغير دورتين، تسلفت بخارج الباب دون صوت، أعلقت الباب وراءها بالمفتاح، أصبح زكريا المحرثيني حبيس غرفة مكتبه حتى عادت روحته إلى البيت آخر النهار.

رقد زكريا المحرثيني في السرير ثلاثة أيام، عالج جروحه بالقطن وصيغة اليهود. في اليوم الرابع عادت إليه رغبته في الجنس، كانت تعاوده من حين إلى حين، يمدّ ذراعه في الليل عبر السرير العريض، تلامس يده ظهر زوجته بدور، غارقة في النوم، شخيرها خافت مكتوم، تكتم صوت شخيرها وهي طائبة عن الوعي، تخشى أن يسمعه زوجها، باتت العائلات لا يشخرون في النوم، دوات الأنوثة الكاملة أنصهين رفيقة ليس لها صوت.

يهرّها من كنفها بحركة رقيقة.

- بدور، يا حبيبي، صاحبة والأنايمه؟

- مایمه یا زکریا.

- وتشکلی وبتی مایمه یا بدور؟

- آیوه یا زکریا

لا مفتوح بدور جفونها، تعرفه من صوته حين يوق، حين يريد أن يصرخ عذبة الشيطان في جوفها، في الوعد الذي أمسكه بورقه الرواح، يظن أنها جاهرة به حين يريد، وإن كانت في عز السوم يوقظها، يداعبها قللاً بوصفه، في بعض قدمها اليسرى، قد ربت عبر السنين على اكتشاف مواقع الألم والنبذة، مراكز الشهوة والحب، بذلك بوصفها ذكريات، انصولة، يوقظ شهوتها في السوم أو في الموت، يشدّها من شعرها لتصحو، يضربها برقة فوق عذبة، إن أغضبها برودها يصنعها على وجهها، أو يلمسها بحرامه الجندي فوق بطنها ومخدها.

لم تكن تزد له الضربة بضربة مماثلة، كان يعلم أحياناً أنها صنعتها على وجهه، أمسكت الحزام الجلدي وراحت تضربه حتى يتسلخ جلده، حتى توقظ الشهوة الدفينة في أحشائه ضد الطفولة، لا يحدث ذلك إلا في الحدم، لا يملك الشجاعة أن يقول لها، اضربي يا حبيبي اضربي، انزع عني قشري وخذيني .

ماذا يمكن أن تفعل معه؟ رجل بلا رجولة؟ ذكر بلا ذكورة يشتكي الضرب مثل النساء؟

تلك الليلة كان راقداً ما بين الحلم والحقيقة، عقله شبه غائب، غلبة الشيطان منتفخة لم يفرغها، حمز من الانتصار على طفلة في التاسعة من عمرها، مرقت لحمة بأسنانها، وحبيته داخل العرق في أعماقه إحساس بالهوان والرعة في الانقراض، ليس لديه إلا زوجه يتمم معها أو ابنة محبوبة يصربها دون مس، أو لسب تافه، يريد أن يفسد معه العصب، أن يستقم من كل الرخاء الذين صربوه، وكل النساء المواتي وفصه، من رئيس الدولة الذي لم

يسلم في وجهه، أو التورير، أو رئيس التحرير، جسده يستمض بالعصب، عاصب من نفسه أيضاً، دناءه نفسه التي تدفعه إلى ابتداء، والسعال، واحتلاس أنمال أو السرفه، واعتصاب السبات الصعيرات، والسلسل من فراش التروجية إلى بيوت العاهرات، نفس أقماره بالسوء يا زكريا، الإنسان مدبّر بالطرفة والطبيعة ولا فما كانت التوبة ولغفران؟ الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

يخفف عن نفسه الألم بكلمات من عبد الله، دون جدوى، دون جدوى

في أعماقه رهبة في أن يضرب نفسه بالحزام الجلدي، أن يوقظ زوجته لتمسك الحزام وتضربه، يصرخ بصوت مسمر وهي راقدة إلى جواره، اضربي يا بدور، أرجوكي اضربيني لأنتهيكي، إنكني جروحي لتلتئم روحي وتشفى!

لم تسمع بدور إلا فحيح صوته المتحشرج وهو نائم، كان غارقاً في النوم، ينش بصوت خافت، يدوب الشخير في الأنس، يقطع الصوت لحظة، حين ينفذ من جنب إلى جنب، أو يحرك رأسه فوق الوسادة من اليسر إلى اليمين

ناولها الحزام الجلدي ذات ليلة، قال لها اضربيني، وقعت أممه بدور عاجزة عن السطو، عاجزة عن أن ترفع يدها بالحزام وتضربه، شيء هقيق مدفون في أعماقها ضد الطفولة، شيء يشبه الخوف، أو العار، أو العصب، لا، لا يمكن أن ترتفع حين يصرخ في عين الرجل، لا يمكن أن ترتفع عن الحادم في عين السيد،

للسيد أن يضرب الحادم، يترجل أن يضرب العراف، العكس غير ممكن، غير مباح في الشرع والعرف والقانون وأخلاق العائلات أمسكت بدور الحرام الجليدي وراحت تضرب الجدار، انتهالت فوق الجدار ضرباً، كأنما الجدار هو زوجها وأبوها وعنتها وجذها والشيطان والله، أرادت أن يتهاوى الجدار ويسقط، أن تسمع آتيه بأذنها، أن تدوسه بقدمها.

لكن الجدار بقي في مكانه لا يسقط، بلغ به الغضب مداه، أمسكت الحزام الجليدي وراحت تضرب نفسها، تضرب جسدها، دراهيها وساقها وفخذها، من قمة رأسها إلى بطن قدميها راحت تضرب بالحزام الجليدي، حتى تهاوت إلى الأرض تثر كالحيوان الحويج

في سريرها كانت استنها مجسده تنعص، من خلال الجدار تسمع الصفعات والضربات، لا تعرف من يضرب من، أبوها يضرب أمها، أم العكس، منذ الطفولة تسمعها يتشاجران، السنة وراء السنة، أربعاً وعشرين سنة، لم يكف أبوها وأنها من الصراع في الليل، وفي الصباح يعود كل شيء كما كان، يشربان الشاي، يقرأن الصحف، يتبادلان الابتسامات، أو نظرات الحب والعتاب، قد تغلت من أحدهما كلمة أو حركة أو نظرة جانبية تنم عن الكره والعداء.

ترمز صورته داخل البرواز فوق هموده اليومي، الكاتب الكبير اسمه باليونان العريض، زكريا الخرنوبي يرمق صورتها عن غلاف مجلة النقد الأدبي، المافدة الكبيرة أستاذة الجامعة، أحبارهما

مشوره في باب المجتمع الرقي، سماع انصحافه حركتهما مثل هجوم النمل والأدب والسياسة، ورعامة الأحزاب والهيئات المعب والجمعيات، تخط بدور شعبيها، عيناها تمران فوق الأسماء، تعرفهم من قرب أو عن بعد، يخط زكريا الخرنوبي شفثيه أيضاً، شفته العيا أكثر امتلاء من السفى، صمير الحجم، رأسه صمير مثلث الشكل، يمسك بأطراف أصابعه ذقنه المثلث المدتب، بذلك قبلاً وهو يقرأ هموده من أوله حتى آخره، من الصوان: «أمانة العهد» إلى الكلمة الأخيرة والتوقيع، يعيد قراءته وهو يدلك دقه، أو الشعر فوق صدره من تحت المامة الخمرية، قد تمتد يده إلى اشعر فوق العانة من انشق المصوح في سرواله، أو تمتد إصبعه يبتعب في أدبه أو أنه، حركه مقرره في نظر روحته، سم عن أصل وصبع، لم يكن من عائنه ذات مكانة رفيعه هي شعافه، أعم الملك على حده نفب النش في عصه من الرمس، في العهد البائد الفاسد، كان الملك يمح القواديس الألفاس، يقودونه إلى العوسى في الدراب ويبيت الهوى، أو سحلا في الدين حلقوا دون أسبه أو جنة السلطان، يمنع الواحد منهم لقب الباشا أو البيه، وإقطاعية كبيرة من الأرض، أو منصباً في الحكومة أو البرلمان، تظهر صورته في الصحف مع رجالات الدولة، يفتح المشاريع الخبرية لوجه الله، حتى قامت الثورة فانسحب كرسي العرش من تحت المؤخرة الملكية السمينه الممثلثة باللحم، جلست في الكرسي مؤخرات جمهورية تنشد الامتلاء بعد الخواء، تتطلع إلى الامتلاك والملكية المردية، تحت اسم التنهير أو الطهارة أو الأمانة أو العفة والاشتركية

كان الحرثي الأب يعلم في اليوم، أصبح كاتباً كبيراً مثل طه حسين، كتب مشورة في كل مكان، في المكتبات والجامعات والبيوت، يدا فيها ذلك الكتاب عن الأدب الجاهلي، أو الشعر الجاهلي أو العصر الجاهلي، أو شيء من هذا القبيل لم يقرأ الحرثي الأب الكتاب، سمع عنه من أحاديث الرجال عند الحلاق، هبوا يكسوها برون الإحجاب حين يذكرون اسم طه حسين.

- راجل عظيم يا أخي طه حسين!

- أشجع راجل في القلدا!

- أتهموه بالكفر يا أخي!

س جهلاء جباء

كانه رائع والله يا أخي

بكره كافر بصحيح؟

- لا يمكن! طه حسين مؤمن بميث الربة ذا الراحل يعلم في

الأهر الشريف.

- شيخ الأهر أكبر كافر في البلد يا أستاذ!

- لا يمكن!

- كل جمعة يخطب في الجامع، اللهم إ حفظ جلالة الملك

دعراً للبلاد، ده أكبر منافق أكبر أفاك في البلد

- الإفت واتفق أشد من الكفر يا أخي.

- أي والده يا أستاذ،

كان زكريا الحرثي طملاً في المدرسة الابتدائية، سمع من زملائه في الفصل أن والده الحرثي نشر كتاب يشبه كتاب طه حسين، صورته ظهرت في الصحف مع غلاف الكتاب بعنوان طه حسين والد العكر في مصر.

تولت النقاد الشباب هذا الداء، هذه الطريقة السهلة السريعة للحصول للحصول على الشهرة والأصواء، أن يضع الواحد منهم اسم كاتب مشهور فوق غلاف كتابه، يكتب عنه بعض مقالات نقدية، بالمدح أو الذم أو لا هذا ولا ذلك يملأ الصفحات من كاتب لم يقرأ من كتبه إلا نصف كتاب، أو يضع صفحات أو مقالاً تقليداً نشر في مجلة ما، أو سمع عنه في الراديو أو من زملائه عند الحلاق.

وقع الحرثي الأب في المحذور، دخل كتابه من طه حسين ضمن المتنوعات، حادته السلطات ومنها مشيحه الأهر، نشرت الصحف أن كتاب الحرثي يؤكد أفكار طه حسين الكافرة

كان الأب يأخذ ابنه الطفل زكريا إلى الحلاق، أو إلى المعهى أو النادي يلقيه من الطفولة على الجوس مع الكبار، والاسماع إلى الأحاديث في السياسة أو الأدب أو الفكر، ورث الأب عن أبيه حليماً طموحاً، أن يكون معكراً أو كاتباً كبيراً، أن تظهر صورته داخل البيرواز في الصحف مع الكبار.

يوم التحقيق أخذ الحرثي الأب ابنه الطفل إلى الجلسة في المحكمة، أراد لابنه أن يشهد عقلمة أبيه، يراه محاطاً بالأصواء وعدسات التصوير. الصحفيون يطردونه أمام باب المحكمة، في يد كل منهم قلم ينفون ما يخرج من بين شفتيه، يلتفت الصحفي

منهم الكلمة قبل أن تحرج، يسلطها بن القلم كالمقط،
كالمعاجيس يلفظ دزاق المعدن النعيس، يمشي بيهم الحرثيني
لأب محتالاً كالطاووس، شامعاً برأسه باعراً يطرف عيه إلى ابنه
زكرياء يتكأ في مشبه حتى يجتمع من حوله الصحفيون، حتى
يرى ابنه المشهد كاملاً، حتى ينحفر المشهد في ذاكرة الابن،
يورثه للحفيد ويدخل سجلات التاريخ.

ركباً يمشي إلى جوار أبيه ممسكاً يده، شامعاً برأسه المثلث
الصغير، يشبه رأس أبيه، ذفه مثلث صغير، أدناه ثلثتان بحض
الكلمات المشائرة في الجو

يا سعادته اليه كتابك رائع، لكن عندي سؤال، حصرتك
مع طه حسين أو صده؟

إد فريت الكتاب تعرف يا أستاذ - باين عليك لم تقرأ
الكتاب مثل كل الصحفيين.

والله العظيم قريبه كنه من العلاف للعلاف، لكن والله ما
هرفت موقف سعادتك بالهبط

يدفع صحفي آخر رميحه ويحتل مكانه أمام الخريتي، يادره
بالسؤال: يا ترى المحكمة ستقرر البراءة يا سعادة اليه؟ الكتاب
رائع وكله داخل في الإيمان، لم أقرأ كلمة كمر واحدة
- شكراً يا أستاذ.

- تذكر طه حسين كان مؤمن أو ملحد والعاذ بالله.

- يا أخي روح اقرأ كتابي وأنت تعرف!

يتعمد الخريتي أن يشحط في لصحفي بصوت عالٍ خشن،
أن يشهد ابنه سلطة أبيه، قدرته على الشحط في الصحفيين، زهد
أبيه في الأضواء مثل كبار الكتاب، تطاردهم الأضواء وهم زاهدون
فيها، عازفون عنها مترقعون عليها، يضعون نظرات سوداء حتى
لا تعرف عليهم الأضواء.

كان الحرثيني يضع مظارة سوداء تشبه مظارة طه حسين، لكن
فأمنه قصيرة، جسمه صغير حثيل، بسيت له قامة طه حسين
الطويلة الشامخة

طال التحقيق داخل المعرفة المعلنة في المحكمة، في مهنته
سأل المحقق الكاتب الكبير الحرثيني:

- هل تؤمن بوجود الله يا أستاذ؟

- هل يدخل هذا السؤال ضمن تحقيق قانوني؟ أنا لست
متخصصاً في القانون، لكن أعلم أن هذا السؤال لا يراجهن به إلا
الله سبحانه وتعالى يوم الحساب

- هذا السؤال قانوني يا أستاذ، نحن دولة تقوم على
الإسلام، دين الله الحنيف، أرجو أن تجيب عن السؤال بنعم أو
لا.

- أرجو أن تعيد السؤال مرة أخرى.

- هل تؤمن بوجود الله؟

كان الأب الخرتيني يرمق ابنه الجالس في ركن العرفة مرهف الأذنين، تلتقط أذناه كل كلمة وكل حرف، ينتفض جسمه الصغير في الكرسي حين يشخط المحقق في أبيه، لم يسمع أحداً يرفع صوته على صوت أبيه، لم يعرف سلطة تعلو سلطة أبيه، كان صوت المحقق أعلى من صوت أبيه، يشخط فيه أحياناً حين يرد بإجديات مردوعة يحاول الخرتيني بالمراوغة أن يهرب من الإجابات الدقيقة الحاسمة، لا يريد أن يهرم أمام ابنه الطفل، يرفع صوته أحياناً وقد يشخط في المحقق بصوت سلطوي متعال.

حين سأله ما تفسير معنى الله أراد الخرتيني أن يشرح المحقق، أن يكشف جهته، أن يوزنه في الإجابة عن شيء عتس غير واضح، أن يثبت لانه أنه قادر على المواجهة والتحدى

أطرق المحقق لحظة يعكر في الإجابة، استرد الخرتيني في هذه اللحظة سلطته، أدار رأسه نحو ابنه وابتنسم في زهو، أبوه يشتصر دائماً، لا يهزمه أحد وإن كان القانون ذاته أو الشرع أو الحكومة.

رفع المحقق رأسه وصاح بصوت غاضب:

- أنت هنا متهم يا أستاذ، ليس للمتهم أن يوجه الأسئلة، عليك الإجابة بنعم أو لا، هل تؤمن بوجود الله؟

أطرق الخرتيني رأسه، عضلة صغيرة ترتجف تحت عينه

يسرى، منذ طفولته ترتجف هذه العضلة حين يشخط فيه أبوه أو المدرس في المدرسة، أو إبليس حين يعصيه أو الله ذاته، حين يشخط فيه غاضباً عليه، حين تلمح فيه ساهرة لا تنام منه من تحت الغطاء، تتسلل إلى ما بين فحده، تداعبه، تدلّكه، حتى يبع اللذة.

وأجاب الأب الخرتيني وهو معترق إلى الأرض، بكلمة واحدة كما أمره المحقق، قال،

- نعم

في طريق العودة إلى البيت كان الأب يسر عكس الرأس صامساً، سم يبدد كلمة واحدة مع ابنه، سألته روحه وهي تفتح بهما الباب

- عمتو به؟

عمر عاصباً في زوجته، ينفس فيها، هن عضبه المكبوت من المحقق، ومن كل من أعضوه منذ لولاده حتى انصوت، يشق في وجهها بيده الممدودة، تكاد يصبه تحرق فيها.

- اصبري شوية يا ولية لعابة ما آخذ نفسي!

تركته في الصلاة، دخلت إلى غرفتها وأضقت الباب وراءها جلس في مقدمه يلث قبلأ، لم يكن يلث ابنة وإن صعد عشرة

أدوار، كأنما رحمت إليه الشبحوخة فحاة، وجهه أصبح طويلاً
محبلاً ومادياً، أبه حالي في وكن الصالة يرمقه، يحاذي النظر إلى
أبيه، يجلس مطرفاً صامتاً، كتنهات مخنثان إلى الأمام، شعره
يتساقط فوق رأسه المثلث الشكل، تتراعى تحت الشعر الحفيف
صلصة تلتمع في الضوء، يكاد يشبه أباه في صورته المتعلقة فوق
الحائط، من حولها شريط أسود.

- هات لي كويابة مية يا ابني.

بيسما هو يرشف من كوب الماء، وأبيه إلى جواره ينظر إليه
معين صغيرتين عاثرتين، تظلمو فرجهما دعة حيصة، لا تفظ ولا
تسخر، نظر الأب في عني أمه وابتلع اللعنة مع رشعة الماء، وقال
نصوب، لأسد الجريح.

- طه حسن تراجع في التحقو وأعلن أنه مؤمن، وأبوك يا
أبي ليس أشجع من طه حسين

أصبح زكريا يرقد حبلوة أبيه إن أنهكته ووجته بعدم الشجاعة،
هيبه المائدة كانت ترمقه حين يتراجع عن كراهه، أو يعيرها إن
عارضه رئيس التحرير، أو الوزير، أو من هو أكبر مهما، يتراجع
مرقداً آراءهم، يقتبسها لعموده اليومي، يضيف على كلمات الرئيس
هالة من القدسية، أو الفلسفة العميقة، أو المكرة اللامعة المبدعة،
لم يصل إليها مفكر أو فيلسوف

تمر عيبها السادة فوق عموده، تملأ شعنتها في بوز طويل،
يبدلها البوز برز أكثر طولا، يبادلها النقد بنقد أشد

- جودك يا صتي ليس أشجع من طه حسين، ثم مدد عن
شجاعتك يا أستاذة؟

- أنا عمري ما تعاهرت بالشجاعة يا زكريا أنا طول عمري
جبانة.

ثم تكمل لنفسها بلا صوت، أكبر دليل على جبنني أبي
أنجوزتك!

كان يرادها دائماً السؤال، لماذا بروحت زكريا الحرسية؟
اسمه مشتق من حوان الحرنيت، وأمه مشبه الكمشري، عيبه
صيقنك عاثرتان كعبي القمار
تصرت يديها فوق صدرها تسأل نفسها، ليه إنجوزت لراجل
ده؟

تذكر بدور أنها كانت تمر بأرمة نمسية، كتب لها الطبيب
النمسي حوياً مؤمنة، وحبواً مهذبة، وحبواً هذا الاكتئاب، دود
جودي

يسألها الطبيب عن طعولتها

- حصل لك حاجة في الطفولة يا بدور؟

- أبداً يا دكتور كانت طعولتي سعيدة

تسند فوق الأريكة الكبيرة في غرفة الطبيب، برئت على يدها
الفضة محتان.

- حادسي متفكري يا بدور

فدعة حوسه تسمع في عينيها، لعة الحنان تجلب لها
الدموع، تريد أن تمد يدها وتمسك بيده، أن تصع رأسها فوق
صدره وتبكي، برعها ببطرة حافة، نظرة الطبيب الجاذ، لا يسمح
الطبيب النفسي للمريضات أن يقفن في حبه، خاصة هذا النوع من
النساء ما إن يربت عليهن بحنان حتى يقفن في حبه، سواء
محرومات من الحب والحنان، كالأرض الظمأى، تترقب من
اسماء قطرة ماء.

- حاولي تفكري أيّ حادث في طفولتك يا بدور.

سحادث مؤلم يا دكتور؟

- أبوه

- ربي إيه؟

- حادث اعتصاب مثلاً

- لا ما حصلش أبداً أبداً

تلتقط أدن الطبيب الرعشة العميقة في صوتها، السرعة الفائقة
في الرد وإنكار الحدث، حمرة الدم الصاعدة إلى وجهها، أصابعها
البضة ترتجف قليلاً، رجفة غير مرئية إلا لفمين المدربة

- كان راجل خرب أو من الأسرة؟

- قصد مين يا دكتور؟

- يعني مش فاكرة؟

- فاكرة إيه؟

- كان عمرك كم سنة يا بدور؟

بدور الطبيب ويلفت حول الموضوع بالأسئلة المختلفة، تدرّب
على هذه الطريقة للحصول على المعلومات من المريضات، تشبه
طريقة البوليس والمباحث في استخراج الاعترافات من ألواء
المساجير، يحقها الطبيب بمختر خفيف، أو ياولها كأساً من نبيد
عمر الخيام، أو الويسكي المحفّف بالماء، يربت عليها بيده
الرقيقة، ينسم في وجهها بعينيه المحصراوين بلون الرزع، يهمس
بصوت حوى

- غمضي عيني، حاولي تنامي يا بدور

- أنام؟

- قصدي نسرخي شوية يا أستاذة بدور، تسي عصف شوية،
نمكي اللجام حول ذاكرتك.

تغمض بدور عينيها، تسترخي عضلات جسدها المشدود،
يرتخي الحرام الجلدي حول عينيها، تذوب قشرة البسخ تحت
سحنات الدم الساخن، تتغير كيمياء الدم قليلاً مع موجات المخدر
الباعية، ينخف القلب من العبء، تملو وجهها ابتسامة خالمة،
تمفيها تكشيرة، تخشفي هي الأخرى، تصبح علامتها هادئة
مستسلمة لتتأثر من المدغم، تسرج الشفتان من صوت أئيبه
بالهمس، أو الحديث في النوم:

سرقوها مني يا دكتور؟

ممن هي؟

الرواية يا دكتور

- انتي ناقدة لروايتي؟

طول صمري اكبر السقف يا دكتور، عمري ما كنت عايزة
أكون ناقدة للنقد الأدبي مهنة طليعة، للنقاد كتابات متطفلة، زي
الدهيدان الشريطية، نعيش على حساب شعور آخر، عنده موهبة،
عنده اكتفاء ذاتي، إحنا السقاد عدنا عقدة نقص، إحنا كتاب
فاشليس، نعوض عن فشلنا بنقد الغير، مهنة للنقد الأدبي ري مهنة
ماسحي الأحذية، شعلنا تلميع أحذية الآخرين.

- بشأن كده كتبت رواية؟

- أبوه، كان لازم أثبت للعالم أنني أقدر أكتب رواية، أنني
روائية كبيرة مش ناقدة من غير قيمة

- أنا أحب أقرأ الرواية يا بدور، هاتيها معاكي المرة الجاية

- الرواية مش معاينة يا دكتور،

- مع مين؟

- الحرامية .

- الحرامية مين؟

- التي سرقوها.

- سرقوها ممن؟

- المولودة يا دكتور

- إيه؟

قصدي الرواية المولودة .

حار للطبيب النفسي في حالة بدور، لم يكن في إمكان
الوصول إلى مواطن الألم، في عقلها أو جسدها، بتعلب عقلها
الواعي على أحداث الماضي باللسان، عندها الباطن مربوط بحرام
من الحروف المبرأكم، طبقة فوق طبقة، حبلاً وراء حبيل، من أمها
وجعلها إلى الجذبات الساعيات، مد آلاف السموات، مد تأنيم
حواء والخطبة الأولى.

- أبوه يا دكتور أنا جبانة، يعني حاكرون أشجع من طه
حين؟ أكبر دليل على جبنتي أنني تزوجت

- كل الستات بيقولن كدة يا بدور، دايمًا يندموا، والندم
أحطر شيء، الندم سبب الاكتئاب، ثم إن زوجك راجل عظيم،
نار على علم، أنا باقرأ عموده كل يوم الصبح، أحسن عمود في
الجرنال هو عمود ذكرها المحرثتي.

ترمقه بنظرة متشككة، أصبح الساق صمة لعصر، الوباء
المنتشر، يصب الناس جسيماً حتى الأطباء، لا علاج له إلا ثورة
أو بركان يقهر الأرض.

جسدها السمين العصير ينمض فوق الأريكة، في أحضانها
حين دفين للثورة، تعود فتاء في الساعة عشرة، تمشي في
المظاهرة تهتف، يسقط العلم تحيا الحرية، إلى جوارها يمشي
نسم، طويل مشوق عيناه تشعل الضوء، يحولها بدراعه،
يهمس في أذنها، سيكون لنا طفل بغير العالم!

ثم تكبر بدور تقرأ عمود روحها، لم تعد أديانها تسمعان صوته حين يحكي عن أمجادها، عن رسائل الإصحاح من العزراء، والفارسية، والوزير، حتى الرئيس نفسه، هتاه على العمود، حين التقه في صلاة الجمعة، كان يقف في الصف الثاني خلف الرئيس مباشرة، يسمع صوت الرئيس وهو يتلو آيات القرآن، يسمع ألقاسه حين يركع بين يدي الله، وطمطمعه عظم ركبته حين يسجد وتلامس جبهته الأرض وهو يحكي لزوجته ينهل بالسعادة، كأنما أنعم عليه الرئيس بوسام الشرف، أو جائزة التوفيق الكبرى

إلى مائدة المطور في الصباح لا يمل النظر إلى صورته فوق عموده، يختلس النظر إلى العمود الآخر، يقلم رميله محمود الفقي، يتابع عيني زوجته وهي تقرأ العمود، تنوق بدور طويل عند عمود محمود الفقي، تقرأ من أول كلمة حتى آخر كلمة. يخاطبها زوجها بدهجة ساخرة.

- يظهر إنك معجبة أوي بمودة؟

- الحقيقة إن عموده ممتازا

- أحسن من العمود بتاعي؟

- أنا ما قرئتش عموده لسه يا زكريا.

- قرئت عموده قبل عمودي يا بدور؟

- أيوه يا زكريا

- يعني عموده أحسن من عمودي؟

ترمه مطرف عينا، يعمره لون أصفر يشبه العيرة، يرد صوته في أديانها كأنما يقول، قصيبه أحسن من قصبي؟ كنه العمود في ألقاسه مرادف لكلمة القصيب، الأعمدة هي قصبات من الحديد أو الحشب

- بتضحكي على إيه يا بدور؟

- مش باصحت على حاجه يا زكريا.

- أنا عارف انتي بتضحكي على إيه، أنا عارف إنك بتعنيني متوسط المرحبة، كتاباتي عمرها ما أعجبتك، من يوم ما إنجوزنا عمري ما شفت في عينيك نظرة إعجاب بكتاباتي، طول عمرك وأنت معجبة بممود الفقي، وهو كمان معجب بيكي، كان لازم تتجوزي بممود الفقي، مش عارف اتجوزتني ليه؟

- وأنت اتجوزتني ليه يا زكريا؟

- خلطة يا ستي أيام الطيش.

- أيوه صحيح خلطة يا زكريا.

- خلطة العمر.

بدور الحوار بينهما على هذا النحو، لسة وراء الستة، يعترف كل منهما أن الزواج كان خلطة، لا يحاول أحدهما إصلاح الخلطة

أمامهما فوق المائدة إبريق الشاي، وإبريق انقهوة، بدور تشرب الشاي في انصباح، روجها يشرب القهوة مع اللبس الحالي الدسم، صحن به جبن نحائي الدسم، حنة قريش، طماطم وحب

وجرجير، ريت ريتون تقدم بهما العمر وواد الكوليسرون في
الدم، وارباع الصعظ بنعب دكرى الجولف في النادي مع زملائه
في الصحافه، بدور تمشي في النادي مع صديقته صافي، أو مع
استها محبده، تلف منعب الجولف مرتين كل أربعين دقيقة، مرتين
أو ثلاث مرات في الأسبوع

أحياناً يأتي رميل من زملائها في الجامعة فيمشي معها، أو
محمود المقى بعد أن ينهي من الجولف يرافها في رياضة المشي
البطيئة، مع تبادل الأحاديث والأخبار عن أحداث السياسة والأدب
والنقد والعن والثقافة

ترشفت بدور الشاي مع قصعة خبز محمص بالجينة البيضاء،
المدهوكة بالزيت الزيتون، تمسك السكين الحاد الصغير، تقطع
شريحة من الطماطم، يدمع السكين تحت ضوء الشمس، ترمقه
بدور، أصابعها البضة ترتعش، أصابعها الرعشة منذ ذهبت إلى
الطبيب النفسي، رادت محاورها، أتزحف السكين خلسة وتدخل
في يدها؟ أو في يد زوجها الممسكة بالجوونال، أو يده الأخرى
الممسكة بمنجاة القهوة باللبن؟

يتحرك السكين وحده دون إرادة منها، ربما هي نائمة تحلم
وليس جلوسه إلى مائدة المطور، تذوب الحقيقة في اللحم، مد
بدأت كتابة الرواية لتحلط عندها الأمور، ربما هي الرواية مصدر
الاشباح التي تظفده في النوم، الأصوات التي نسمعها وهي
جالسه في غرفه مكتب، الظلال التي تتحرك فوق الجدار، لها
أشكال آدمية، أو من عبر بي «دم»، يدمع السكين وحده عن مائدة
العصور لسحرو العمود في الحورمال، يحرق الصورة في الروار

فوق العمود، تعد من الورقة تتدخل في صدر زوجها عن الممامه
الحريرية، يتدفق الدم بنون أحمر فوق الممامه البيضاء، ومعرش
المائدة الأبيض، مع ذلك بطل ركوب يقرأ عموده، لا يكف عن
قراءة عموده، وتأمل صورته المشورة على رأس العمود، يستدير
السكين من شدة العيط ليرحف فوق يدها البضة، تحترق شعرة
السكين الناعمة الحادة تمشي فوق معصمها، تدخل في بطنه، حل
الدم، تصنع شقاً صغيراً من الخارج عميقاً في الداخل

تدرك بدور أنها بدنية التي تمسك السكين، بدنية تملك
الجرأة لاقتراف جريمة قتل دون أن يضبطها البوليس، نستطيع
بدنية أن تتخفى بين أوراق الرواية، أن تهرب من العيون كالحبال،
كالظلال المتحركة فوق الجدران يرمقها زوجها وهي تقطع الجينة
بالسكين، يرى أصابعها ترتعش، يرى الشحوب في وجهها، عيناها
مكسنان، لا ترفعهما نحوه، تخشى أن تلتقي عينها عيناه فيرى ما
يدور في خيالها، ربما يمسك السكين ويغزوه في صدرها قبل أن
تعمل هي، ترى في عيناها الرغبة الدمينة، في أعماقها رغبة في
القتل لا تسويها إلا رغبة في الجنس، يقول لها الطبيب النفسي،
أن الإنسان لم يتطور كثيراً عن الحيوان فيما يخص الجنس،
تتلاصق فريزة التدمير والموت مع الشهوة، حين يشتهي الرجل
المرأة يقول لها، أموت فيكي، وهي تقول له: أموت ميت.

يؤكد لها الطبيب النفسي أنها تحت روحها حتى الموت، حتى
سرعة في منه، أو قتل نفسها لا يقدم على الانتحار، لا من بعث
نفسه إلى حد الموت

وهي تمشي في النادي مع صديقها ترم شفيتها وتقول لها

صافي: طبيبك النفسي في حاجة إلى طبيب نفسي يعالجه من أمراضه، معظم الرجال مرضى، يعانون ازدواجية الشخصية، خاصة الرجال من الطبقة المثقفة العليا. يتزوج الرجل زميلته المثقفة من الطبقة ذاتها، زواج اجتماعي ليس إلا، لتصبه في الحفلات، تتصور معه في المناسبات، في الليل ينسل من فراشها إلى الخادمة في المطبخ، أو السكرتيرة في المكاتب، لا يشتهي إلا العتيات الصغيرة من الطبقة الدنيا، تراه الواحدة منهم رجلاً هظيماً، هظيماً بادر الوجود، ليس له مثيل، إله أو نصف إله، كما كانت تراه أمه ترى الأم ابها هزالاً وإن كان قرداً، تملأ أذنيه منذ الصغولة بكلمات من موع أنت أدكى من كل زملائك، أنت فلة من فئات العدى، أنت موهوب يا بني ليس لك نظير بين الرجال.

نرم صافي شعبيها، تبخل لعباً مرء، تلف رأسها بطرحة بيضاء، كانت تؤمن بالماركسية، حتى هجرت زوجها الماركسي، وتزوجت من زميلها الإسلامي، لارتدت الحجاب ونشرت كتاباً عن حقوق المرأة في الإسلام، حتى هجرت الرجل الإسلامي وتزوجت كاتباً ليبرالياً، طلب منها أن تحلع الطرحة وتكف عن التشلق بالدين، خلعت الطرحة ولدت التيربون الأبيض، تحوطه بعض حبات اللؤلؤ، نشرت كتاباً عن النقد الأدبي، هجرها زوجها ليحاضر طالبة من طالباتها في الجامعة، هلاقة حب دون ورقة وراج رسمية، أو عقد عرقي، اكتشفت العلاقة بالصدفة، اعترف لها زوجها أنه يحب العتاة والعتاة تحبه، إنه حر والعتاة حرة، لم نعلم صافي هذه الحرية الجديدة وفزرت الانفصال عن

- أنت أشجع مني يا صافي، أحلم كل يوم بالانفصال عن
وكرها دون أن أملك الشجاعة

- أنت تحافين الوحدة يا بدور.

- ألا تشعرون بالوحدة يا صافي؟

- الوحدة غير من جليس السوء يا بدور، كنت مثلك أخاف الوحدة، أرى بالهوان خوفاً من الوحدة، كنت سجين الخوف، حتى عرفت الوحدة فوجدتها جميلة مريحة، نحن نولد في الخوف، نمش في الخوف وموت في الخوف.

- ألا تحافين يا صافي؟

- أخاف من إيه؟

- الموت مثلاً؟

- الموت مثل الوحدة مجرد وهم، نحن لا نحس بالموت حين نموت، لأن الميت لا يحس شيئاً، تصوري يا بدور أن تعيش حياتنا كلها نخاف من شيء لا يمكن أن نحس به!

- أتؤمنين بالحياة بعد الموت؟

- كنت أؤمن بها ثم تحزرت من هذا الهم أيضاً.

- والإيمان بالله يا صافي؟

- كنت شديدة الإيمان بالله يا بدور، قبل أن أدرس الدين، أردت أن أتمش في دراسة الدين ليصبح إيماني أكثر عمقاً، إلا أن العكس كان يحدث، كلما رادت معرفتي بالله زاد إنكاري له

يتنفس جسد بدور وهي تمشي إلى جوار صديقتها صافي، عيناها ترتجفان، ترفعهما إلى السماء، نحس أن يصب الله لعنة

عنى صامى، أن تسقط إلى الأرض مصابة بالشلل في جسدها كله،
أو على الأقل الشلل في لسانها الذي ينطق بالكفر.

كسب أزمس يا بدور يكسب الله الثلاثة كما أمرنا ربنا في
القرآن، كسب ألفي الأحاديث الدينية في المؤتمرات والإذاعات
وأشهر المقالات عن الإيمان والتفري وحجاب النساء، لكن شيئاً
غريباً كان يؤرقني في الليل، أنهض من الفراش أتوجساً وأصلي، لا
أكف عن الركوع والسجود، أتعلم بصوت حاد حتى لا أوقظ
زوجي، أستعمر الله من كل دب عظيم، أكررها المرة وراء المرة،
عشرات المرات، مئات المرات، أحرك حبات السبحة بين أصابعي
الصرغشة، تصورت أنني مريضة بالحصى، لكنني كنت مريضة
بالشك، حتى تعمقت أكثر وأكثر في دراسة الأديان، كلما كنت
أعمق أكثر كانت الرعدة تزول، ويزول معها الإيمان، نحن نرت
الإيمان من الأسرة يا بدور، يدخل الإيمان حلاها عقلاً وجسماً
منذ الولادة حتى الموت، لا يمكن التفرغ منه إلا بالدراسة
والتمسك في العلم والمعرفة والدين نفسه، إنه طريق صعب مليء
بالمخاطر، أن أفتح لك قلبي يا بدور لأنك صديقة عمري، أرجو
أن تكنمي هذا السر ولأقلنوس، نحن نعيش في دولة دينية، لا
تسمع بحرية التفكير، وهم كثرة الحديث عن الحرية، لكن
الأحرار لا يتحدثون عن الحرية، لأنهم يعيشونها، فاعد المشي
بتكلم مع طوال الوقت.

كنت بدور نصت إلى صديقتها وهي مطرقة الرأس، الرعدة
تسري في أحشائها، شحات الدم الساخنة تصعد إلى الرأس ثم
تهبط إلى نص قدميها، شيء يحس بطرق قدميها يشبه إصبع الشيطان

في طموانتها، يندفع بطرق قدميها اليسرى، كان الشيطان يقف دائماً
عن اليسار، كما سمعت من الناس حولها، هي انبسط وهي
المطربة.

- كان زوجي يقول لي إن الدين ضروري للأخلاق، إن عاب
الدين غلبت الأخلاق، لكنني اكتشفت أن الأخلاق لا علاقة لها
بالدين، بل هناك تناقض كبير بين الدين والأخلاق، كان زوجي
شديد الدين، شديد الإيمان، وفي كل ليلة يكذب علي، يقول إنه
تأهب إلى الاجتماع أو إلى المؤتمر أو ليقابل الوزير أو الوكيل، ثم
يذهب إلى المرأة الأخرى في بيته أو في بيت البغاء، كان يقول إن
من حق الزوج أن يكون له أربع زوجات، بخلاف الإمام والجواري
ومن ملكك اليمين، كان عضواً في تلك المجمعرة التي رعت
شعار الإسلام هو المحل، أو تطبيق الشريعة وإلغاء الدستور، كان
زعيماً لأحمد الدماهيري الأمير

انتفضت بدور وهي تسمع اسم أحمد الدماهيري ابن عمها
للشيخ، كان وكيلاً للأزهر أو نائب الوكيل، ورث عن أبيه الصماعة
والرأس المربع الصغير، والدق المربع والشعة العليا الأكثر نحافة
من السفلى، يميلها إلى الأمام علامة التفكير العميق، أصبح أحمد
الدماهيري أحد الرعماء الجدد، ينادونه الأمير، من حوله هدد من
الشباب العاطلين عن العمل، يحملون شهادات عليا، أحلامهم
مجهضة، يقودهم أميرهم إلى حظيرة الإيمان، جسمه نحيف قصير
القامة أصابعه صغيرة ناعمة تشبه أصابع الست، صوته ناعم،
عظامه طرية، يخاف من المصراعير ونعثران، في أعماقه حساس
بالنقص، يعرضه بالكبرياء والعظمة، يشد عضلات صدره ويمشي

شامحاً برأسه، فوق جسده الرسيه السوده بحجم حته العول
السوداني، لحيته سوداء كثيفة تتدلى فوق صدره، حساسه ماصع
البصر، عمامه ناصعة الباص، يحيي الشباب بحركة بطيئة من
رأسه مع اهتزازة صغيرة.

- أحمد ابن عتي أصبح رجلاً خطيراً يا صامي، كان طملاً
مدللاً، لم يرحب في شيء إلا أحده، بالمكر أو بالهليل، بالمين
أو بالصع، إن لزم الأمر، أحمد الداهيري يمكن أن يقتل لبال ما
يريد وهو يريد.

توقفت بدور عن الكلام لم تكمل الجملة.

- أحمد الداهيري يريد زينة بنت زينات

- عرفت إزاي؟

- كل الناس عارفة الحكاية دي، زينة بنت زينات أصبحت
نجمة معروفة، رجال كثيرون يجرون وراءها، لا أحد يستحقها،
بنت موهوبة بصحيح، بنت أمها رضعت لبن أمها داد، زينات!

ثبت صافي عينيها في عيني بدور، تتحرك عينا بدور بعيداً
عنها، تمنح زكريا الخرتيتي يلعب الجولف، ينشي بجسمه القصير
النحيل ليضرب الكرة، نظير الكرة مسافة قصيرة في الهواء، ثم
تسقط على الأرض، يمشي نحوها شامخاً بأنه كما يفعل زميله
محمود الفقي وكبار الكتات، من خلفه يهرول الصبي الصغير يحرر
معونة المسحمله بالمصير، إلى جواره يمشي محمود الفقي،
ضويل القامة مشقوق، خطوبه واسعة ناسه واثقه بنفسها، مش
حروقه على النورق، ظهره أكثر وسامة من وجهه، عينه مطعنان
ليس فيهما برق، مقلتان صعبتان لونهما باهت

لم تكن بدور تجذب إلى محمود الفقي، فقط حين تراه من
ظهره تعود إليها الذكرى، كأنما هي حياته امرأة أخرى ليست هي
بدور، ربما هي بدريه، كانت بدريه في التاسعة عشرة من عمرها،
تمشي في المعظاهرات الكبيرة، إلى جوارها يمشي نعيم طويل
القامة مشقوقها، الممستان الكبيرتان في عيه نشقد وهجاً أررق
أسود يلون عين الليل، أو ابصر تعكس عليه أشعة الشمس.

- زكريا الخرتيتي يغار من محمود الفقي، يظن أنني واقعة في
غرامه.

- وأنت واقعة في غرام طيبث النفسي....

- هو واقع في غرامي، حب من طرف واحد يا صافي.

- العكس هو الصحيح يا بدور

بدور الحديث عن الحب والرجال، كانت صافي أكثر خبرة
من صديقتها بدور، عرفت هداً أكبر من الرجال، زملاء وأصدقاء
وأحياء وعشاقاً، تقول لبدور:

- أنا أبحث عن الرجل الذي يستحقني، لكنه لم يخلق بعد،
ربما لن يكون مخلوقاً أبداً، ثم تصحك وتلقي برأسها إلى الوراء،
كان شعرها أسود غزيراً مقصوصاً الأجرسون، بعد أن خلعت
الطرحه والتيربون مع غلعه أرواحها، قامتها أطول قليلاً من قامة
بدور، أقل سمه، حنوبها أكثر اتساعاً، تنظر إلى الأشياء في ثبات
أشبه بالحصاة، شفته نحيفة، تلبس شفتها السفلى نظرف لسانها
حين تتكلم

- أنا في الحفصة لا أنجذب إلى الرجال، في المراهقة كنت

أحت امرأة، الآن نعود إلي مراهقتي في مرحلة الكهولة، بصراحة
يا بدور أنا أنجذب إلى النساء، أحياناً أصبغ نفسي مثلية تحت
امرأة، تصوّري أنني حست مرة إلي أعانق رينة بنت زينات!
- عناق بريء، عناق الأخت لأختها، أو الأم لابنتها
- لا عناق غير بريء يا بدور!

تطلق صافي ضحكة عالية يكاد يسمعها لاعبو الجولف،
تشاركها بدور في الضحك، تتخفف قليلاً من العبء، من الثقل
في قلبها، من المخوف الدفين العارض من الطمولة

- أبوه الضحكي يا بدور الدنيا فانية، احسا بنعيش مرة واحدة،
مرة واحدة فقط لازم نعيشها بالطول وبالعرض، اسمعي النكتة دي
عن عبادة الرجال، تفصحت صافي كثيراً قبل أن تحكي النكتة،
بهتر رأسها في الهواء مع شعرها القصير العرير

- كان فيه راجل عاوز يتجاوز بنت عذراء مية في الحبة،
عمرها في حياتها ما عرفت راجل، كل ما يتقدم لواحدة عشان
يحطباها يعمل لها اختبار، يكشف لها عن قضيبه من تحت البطون
ويسألها إيه ده يا شاطرة؟

طبعاً البنت تقول له: ده قضيب، يرفع الراجل بنظرونه
ويخرج، يقول لنفسه لا يمكن اتجرزها، دي عارفة الرجال، كان
يكبر الانحسار ده مع كل بنت وطبعاً تسقط البنت في الامتحان لما
تفوه. ده قضيب، أحيراً أخيراً بعد كم سنة من الاختبارات نجحت
وحده في الاختبار لما كشف عن عصبه وقال لها إيه ده يا شاطرة
فانت ده رمازة

يا سلام فرح أوي الراجل وقال لنفسه أحيراً وجدتها اريك
البس العذراء التي عمرها ما شاف قضيب راجل
بعد عشرين ثلاثين سنة بعد ما تزوّجها وحلّف لها دست عيال
كس قاعد في ليله رايقة في الملكوت. بعد ما شرب كاس بيضاء
حظر لعقله انه يسألها وهو يشير إلى قضيبه ويقول: لكن اراي يا
حبيبتني ما عرفتيش أن ده قضيب؟ انهجرت زوجته فيه بصوتها
العالي وقالت: هو ده قضيب ده؟ ده القضيب طول دراهي ده
واشارت إلى دراهي الطويل.

انهجرت بدور وصافي في ضحكك متواصل حتى دمعت
عبرتهما، مسحت كل منهما عينيها بمنديل ورق شفاف معطر،
وقالت صافي: هو ده غباء كل الرجال يا عررتي، إيه رأيك نروح
المسرح الليلة نسمع زينة بنت زينات، كتبت أغنية جديدة وحفنيها
الليلة لأول مرة، انتي عارفة إنها بتكتب كلماتها وألحانها، فنانة
موهوبة بصحيح، أم كلثوم كانت بتغني كلمات وألحان من تأليف
غيرها، لكن زينة بنت زينات موسيقية وشاعرة وصوتها جميل
كمان، كنت أتمنى يكون لي بنت زيها.
- وأن كمان كنت أتمنى يكون لي بنت زيها.

- هتدك بنتك مجيدة ما شاء الله، كاتبة مرموقة، مقالاتها في
مجلة النهضة مقروءة.

مطلعت صافي كلمة مقروءة بعرف لسانها، لم تكن تمجيداً
كلمات مجيدة المعرثي، تقيد أبها في طريقة الكتابة، وتقيد أمها
في نقدها للأدب

- معجدة ورثت أبوها يا صافي، صورتها تشبهه بالضبط لما
كان شاب، أحياناً أحسن منها يسته هو من يتني أنا، كان نفسي
يكون لي بنت تشبهني،

وهمست بدرجة لأوراق الرواية، كان نفسي يكون لي بنت
تشبه نعيم.

في الليل تحنض بدور القلم، يدور الحوار بينها وبين بديرة
ومعهم، والشخصيات الأخرى في الرواية، يقطع الحوار أحياناً،
يجفّ القلم، يطمعن الضوء المشع من المقلتين الزرقاوين
السوداوين، كبيرتان في العيين الواسعتين، جسم نحيف طويل
صلب كالرمح، رأسه مرتفع فوق عضلات عنق لا تلين ولا
تلنوي، ضربوه على رأسه بكعب البندقية، صفعوه على صدغه،
إلا أن كانه الواقف ظلّ متصباً في مكانه لا يتحرك، لا تنتفض له
عضلة في وجهه، ولا يطرب له جفن، حسن ساقوه إلى العربة
البوكس خارج البدروم، كانت الدماء ترف من أنفه وفمه، تسيل
عرق العائنة البيضاء الكاشفة عن ضلوعه، يصرها شعر أسود،
يكتسب بالتدريج لوناً أحمر، يهبط اللون الأحمر إلى سرواله
الأبيض من القطن المصري، رائحة القطن في أنفه مع رائحة الدم،
ورائحة التراب، الأرض الخصبة السوداء تنزع فوقها الشجيرات
الحضراء، بالنورات البيضاء، كان طفلاً في الثامنة من عمره، يمتي
مع أطفال القرية وهو يحري بين مساحات الحضرة تلمع بضوء
أبيض

نورت يا قطن النيل، يا حلاوة عيبك يا جميل، اجمعوا يا
بنات النيل يا لالا ما مألوهني مثل، قطن ما شالله...

فوق رصيف الشارع كان الأطفال يعنون الأعباء، تدق زينة
بنت زينات اللحن، أصابعها الطويلة الرقيقة الصلبة تدق الإسفلت،
ليس هو اللحن القديم، ليست هي أعباء القطن والنورات البيضاء
في مساحات الخضرة، انفرشت الخضرة، ذهبت الشجيرات
والنورات، ضمرت وجوه الأطفال، لم يعد لهم أرض ولا بيت
ولا أمل، أقدمهم الصغيرة تمشي دون حذاء، يجتازون المسافات
في ظلمة الليل، يولدون فوق الإسفلت، يشقون صعدت القمامة
مع القطن المشردة والكلاب، ترمقهم الميون داخل السيارات
الطويلة باردهاء، يعدون صهم، يعشقون السواعد خوفاً من
الأمراض، يتحسسون محطاتهم في جيوبهم، خوفاً من السرقة أو
الشل، يحكمون إغلاق الأبواب والناظر.

ينبت الأطفال بأقدامهم المشققة فوق الرصيف، يحوطون رينة
بنت زينات كالآم، يرددون وراها الأعباء، يرقصون معها على
الإيقاع، يتوقف المارة في الشارع، يشهدون العرض، فرقة كاملة
من الأطفال، يتبادلون الأدوار، يتبادلون الآلات البدائية، «طبلية
والرق والمرمار والناي والعود، أصواتهم تتصاعد مع تصاعد
اللحن، كمويهم المشققة تدق الأرض، يتحول الغناء إلى هتاف،
آلاف الأفواه تهتف معهم، يسقط الظلم تحيا الحرية، الأجساد تسد
الشوارع، عمال طردوا من المصانع المغلقة، شباب تخرجوا في
الجامعات دون عمل ولا أمل، ساء تكاليف وأرسل ومطلقات،
موظفون في الحكومة انحسرت أعينهم وروحات مقهورات،

خادمان في البيوت ومسحوق الأحذية ودايات

دادا رينات كانت تمشي في المطهرة، في الصف، الأخير مع الخادمان، جسمها طويل نحيف، جذبها قدم من الجبردين، في قدمها حذاء من الكاوتش كلن أبيض اللون. تنفّرق المطهرة تحت خرطوم الماء والغاز المسيل للدموع، الميكروفونات تزعق بأصوات تطمس على الطلقات، تسقط بعض الأجسام، تنرف السماء، تدوس العربات المصفحة الدم، تخطف الشباب، تمتلئ السماء بالدخان والغبار.

تواصل دادا رينات المشي حتى يأتي اللس، اسها أحده ولم يعد، اسها الوحيد راح معها، لا تعرف من أحده معها، توبس الحكومة أو انه، ترتفع عبيها إلى السماء تسأل الرب المتعقبي وراء السحابة السوداء.

- أنت يا رب اللي أحدثت والآن تحكمه؟

يرتعد جسدها خوفاً من عقاب الله، يعود الإيمان إلى نفسها مع الرعدة، يحتل أنفها وفمها بتراب الشارع، كان ابنها الوحيد أملها الوحيد، قلدة الكبد والقلب طويل الغامة مشقوق، خطوته فوق الأرض ثابتة واسعة، المقلتان الكبيرتان في عينيه تشقان بالظنوء، ينظر في عينها ويتسم:

- خلاص يا أمي الثورة جدي بكرة، شوقي يا أمي الشعب كله ثر حتى الأطفال في الشوارع والقطط والكلاب.

- سدا اختفاء ابنها لم تعد دادا رينات تبسم الدليل، ثرندي

حلبابها وتنتعل حذاءها الكاوتش، تخرج في الظلام نحت عنه، تدور عبيها بمشاة الأرض والسماء، يسير صماتج القمامة والصناديق الملقاة في عرض الطريق، تستريح قليلاً فوق دكة خشبية مكسورة على حافة الليل، تتأمل سراً من النمل والخنافس يزحف نحو كرم من القمامة، والأطفال يتنافسون مع القطط الصغيرة على قطعة من الخبز، أقدامهم عارية، طفل يعرج وهو يجري يسابق كلباً أخرج، يثرث السيرة المصرة في الليل ساه.

تعود دادا رينات إلى غرفتها في البldroom، تملأ كيساً من البلاستيك الأسود ببقايا الطعام، كان البldroom مخزناً لكل ما يلقي به سكان العمارة، كل ما يفيض عن حاجتهم يرمونه من السارد، ملابس قديمة وصمام رائد ومقعد مكسورة، ومراتب مهترئة يعوج منها البول، ونظائير محوطة الور

تملأ دادا رينات الكيس الأسود من البلاستيك، تمسح عن الحبر العسار، تنفّ قطعة اللحم في جريدة قديمة، تلمح صورة الرئيس أعلى الصفحة، أو صورة وزير، أو كاتب كبير من أصحاب الأعمدة، فوق عموده ثرى صورته داخل البرواز، هناك مطبوعتان بالعيار أو الطين، أو مخرومتان بشوكة سمك أو عظمة ضلع مأكولة.

تمسح بكفها الغبار والطين عن ورقة الجريدة، تلف بها الخبز وبقايا اللحم، أو قطعة من الكيك، كعكة من بقايا كعك العيد، أو شريحة من الجبن، وحبّات زيتون أخضر أو أسود، وليموناً مخللاً أو نصف خيار.

تخرج دادا رينات في الليل حاملة الكيس الأسود، تجلس

فوق الدكة الحشوية، يتجمع من حولها الأطفال والعطط والكلاب،
تفتح الكيس فوق الرصيف، عاهد نرمقاهم وهم ينتهمون الطعام،
عيوبهم تلمع بالفرح، عيوبهم يكسوها الريق، يشبه الريق في
حيي أبها وهو طلع، حين كانت تضع أمامه كوب اللبن أو البيض
العقلي في السمن.

بيسما كانت دادا زينات هائدة إلى هرفتها، وهي تمشي في
الظلمة، تعثرت قدمها في شيء صغير ملفوف، ليس طفلاً ميتاً أو
كلباً أو قطّة داستها سيطرة مسرعة، كثيراً ما تعثرت قدمها في أشياء
ميتة، ملقاة في عرض الطريق أو فوق رصيف، تنثني بجسمها
التحيف، تلتقط الشيء بأصابعها الرقيقة الطويلة الرفيعة، نهزه المرة
بعد المرة، تتأكد أنه ميت، تحمله بين ذراعيها بعيداً عن الطريق،
تضعه على جانب الرصيف، أو تحفر له حفرة بين الأسفلت
والأرض بحداء النيل.

كان الشيء الملفوف ساخناً، تمشي في عروقه الدماء،
أحسّت دادا زينات السخونة وهي تحمله بين ذراعيها، النبض كان
يسري منه إلى صدرها، ارتجفت وثوقفت، كشفت الغطاء عن
وجهه، طالعتها العقلان الكبيران تشعان بالضوء، كشفت العطاء
من المحدثين الصميرتين المصمومتين بقوة، لم تر قصب أسه
الصمير بل الشق في جسد الأنتى، رفعت عينيها بحاطب الرث

ري بعصه يا رث، البس ري الولد، بحمدك يا رث ع
الحلوة وع المرة

لم تعارقي صورتها سد الطفولة، قامتها الطويلة الممشوقة،
رأسها المرفوع، مفلتاه الكبيران تتوقجان، تجري أصابعها
الطويلة الرشيقة فوق البيضاء بسرعة الرق، كنت أتمنى أن أكون
مثلها وإن قالوا عي بست دمي

على جدران المراحيص في المدرسة كما نكتب اسمها
بالطباشير،

- زينة بنت زناث.

كانت نكتبه فوق السبورة أمام هيونك دون حياء، تعثر بأمتها
زينات، كتّ بخجل من ذكر أسماء أمهاتنا بصوت مسموع، لا
يمكن أن نكتبه فوق الكراسة لما بال السبورة، لم تكن أمي خادمة
بالبيوت مثل أمها، كانت أمي الأستاذة الكبيرة بدور الداهيري،
زوجة الكاتب الكبير زكريا الخرنيتي، أكتب اسمه إلى جوار اسمي
فوق السبورة:

- مجيدة زكريا الخرنيتي.

أقول للبنات إن لأبي عموداً طويلاً في الجريدة، وعزبة كبيرة
في المسصورة، نرمقي البنات بأصجاب، نتملقني الساطرة
والمدرسون والمدرسات، إلا واحدة هي أبله مريم.

كانت تدرس لنا الموسيقى، تمسك أصابع زينة بست زينات،
ترفعها عالياً لترها كل الليالي،

- أصابعها خلقت للموسيقى يا سات، انظرون إلى أصابعها،
إنها موهوبة ليس لها مثيل، مخلوقة للموسيقى،

كلمة الموسيقى كان لها سمعته سيئة، سمعت المدرس يقول،
- الموسيقى من أعمال الشيطان، مثل الرقص والعناء، العناء
مهنة الحواني الباعيات، وليس بنات العائلات، من تمام ممكن على
صوت الموسيقى وليس ترتيل القرآن ندخل النار وتحترق فيها إلى
الأبد.

تسري الرعدة في جسدي وأنا جالسة في الفصل، انتفاضة
تشملي من قمة الرأس حتى بطن القدمين، أحسّ شريط البول
الدافئ ينساب من تحت المريضة فوق ساقي اليسرى، يملّ جوربي،
يدخل في حدائي الجلدي الأسود، أطق فخذتي بقوة أخشى أن
تتسرب الرائحة إلى الفصل والسات.

في الليل تطاردني الأشباح، يتجسّد الله أمامي على شكل
رجل صحن الحنطة، وجهه يعطيه الشعر والشارب واللحية، عيناه
حمراوان مشتعلتان بار حمراء، صوته يحرق أذني مثل قصيب
حديد في محق في النار، يدخل القصب أذني اليسرى، كان الله
يأتي دائما من ناحية اليمين، أما إبليس الشيطان فكان يأتي من جهة
اليسار.

كنت في الثامنة من العمر، أخلط بين الله وإبليس، كلاهما
يظهر على شكل رجل يعطي الشعر رأسه ووجهه، عيناه مشتعلتان
بنار حمراء، يهذي بالعقاب، إصبعه الطويلة المدببة تكاد تغرق
عيني، أدفعه بعيداً عني وأنا خارقة في النوم، لكنه لا يتعد، تظل
إصبعه الطويلة الصلبة أمامي، يشبه القصب الحديدي الطويل

المدتب، يهبط من عيني إلى عيني، يلتف حول عيني، يحسني
بأصابع حديدية، أصبع فمي لأصرخ، لكنّ صوتي لا يخرج، تهبط
إصبعه من العنق إلى الصدر، يحرر طعنه الحادة في صدري، في
السند الأيمن إذا كان الله، في السند الأيسر إذا كان الشيطان، لم
يكن نهدي قد بررا بعد، مجرد برعمين صميرين لكل منهما حلقة
سوداء مستديرة، تدوسها الإصبع حتى أصرخ من الألم، يضع كفه
الكبيرة فوق فمي ليكنتم صوتي، ثم تهبط الإصبع فوق البطن،
أسفل البطن، فوق العانة المسببة بغير شعر، يسرق من فوقها
ليدخل في ثيابي اللحم، حتى «بؤرة الخفية في الأحشاء».

في الساعة من عمري عثماني أبي بسلام، أسجد بين يدي
الله أطلب المعفرة، كنت أظن أنني الأئمة وليس الله أو الشيطان،
كان أبي يقول، أحلاما تكشف عن رعبنا الأئمة، يطلب متى أن
أصلي حين أن أدم، سمعني مرّة وأنا أنكم في النوم، كنت أظرد
لإصبع التي تطردني في الحلم، أصبها عني بكل قوتي، أرفع
في وجهه، أوجه إليه الشبائم، سباب من نوع شديد الداعة، مثل
الذي كنت أسمع من أولاد الشوارع.

بلغت التاسعة عشرة من عمري، ذهبت إلى الطبيب النفسي،
زميل أبي القديم في المدرسة، حكيت له عن أحلامي، لم أنطق
كلمة الله أو الشيطان حتى أعطاني المعفّر، تمذدت فوق الأريكة
ما بين الرهي واللاهي، سمعت الطبيب النفسي يقول:

- احكي يا مجيدة لا تحامي.

- أنا حايمة يا دكتور

- حايمة من إيه؟

- من رثا

ليه حايمة منه يا مجيدة؟

كانت عفة لسانها قد انجذبت قليلاً، بدأ صوتها يخرج متعسجاً مكتوماً مرتجعاً.

- باشم وأنا نايمة،

- تقولي له يا مجيدة؟

- كلام وحش زّي بنوع الشوارع.

- زّي إيه يا مجيدة؟

- زّي يابن ال...

ينقطع صوتها قبل أن تكمل الكلمة، تفتح عيناها الملهورتان، تتفاديان النظر ناحية الطبيب.

- إنكلمي يا مجيدة ما تحافيش.

- خيفة يحرقني في البار يا دكتور.

- بار إيه يا مجيدة؟

- نار جهنم.

رمقها الطبيب بإشفاق، بدت طعنة في التسعة عشرة من عمرها، جسمها القصير السمين معدود فوق الأريكة، شررتها بعناء ناعمة، أصابعها بقف رقيقة

لعتت يده وأمسك يدها، التفت أصابعها الخمس حول يده، كالطفل المولود تلتفت أصابعه حول إصبع الأم أمسكت إصبعه في يدها، قبضت أصابعها الخمس على إصبعه مثل الكفاشة.

- إسمعي يا مجيدة ما فيش حاجة اسمها نار جهنم.

- اتسعت عيناها على آخرهما، انحسرت الجمود عن مقننين صغيرتين سوداوين، تشديديان في مساحة كبيرة من البياض، تنحنيان في ما تحت الجمود، يصبح البياض أكثر سداً كاد، كتلة من البياض ليس فيها إلا البياض.

يعرف الطبيب هذه الحركة، حين يهرب المؤرق تحت الجمن، حين يبلغ الخوف مداه، يصبح الإنسان مثل الفأر.

- ما تحافيش يا مجيدة، أنا جنبك

يداه الصغيرتان مثلاًجتان، يداكهما بيديه الكبيرتين اللدائتين، يهمس في أذنها بصوت حنون.

- أنا معاكم ما تحافيش

يخاطبها كالأم تحاطب طمعتها، تضع رأسها فوق صدره، تظنه صدر أمها، تحوطه بذراعيها وهي نصف عارية:

- أنا بحبك يا دكتور، خدني في حضنك يا دكتور.

تفتح مجيدة جفونها، تصحو من النوم، لا تكاد تعرف الحلم من الحقيقة، بالأس كانت تمشي في حجرة أبيها، في الصباح رائته جالساً إلى مائدة المظور يشرب أنفه باللس، أمها جالسة أمامه

تشرب الشاي، كلّ منهما يدمر وجهه في الجريدة، لا يتبادلان الكلام، الصمت يجثم على البيت قبلاً كالصوت.

- صباح الخير يا ماما.

- صباح الخير يا مجيدة.

- صباح الخير يا بابا.

- صباح الخير يا مجيدة.

لم يعود الصمت كما كان، أثقل ممّا كان، ترنّدي مجيدة ملابس الخروج، تفتح الباب ثم تعنقه من خلفها في صمّة قوية حاذة

فوق الأريكة تخلق ملابسها أمام الطبيب النفسي، تتمدّد عارية فوق الأريكة، تمدّ له ذراعها، ترصد أن تموت بين ذراعيه، تريد أن تعرف قسمة الذئبة قبل الموت.

يحوطها الطبيب النفسي، يربّت شعرها وكتفها الناعمين، تهبط يده إلى النهدي العاري، ينفض تحت يده، يقول لنفسه:

- ليس من مبادئ الطبّ النفسي ممارسة الجنس مع المريضات، لكن هذه الممارسة قد تكون وسيلة للعلاج، وهي أيضاً ثروة، هذا الجسد الأنثوي المتعرج بالرغبة، كالأرض الطمأى تعمي قطره ماء، ليس مثل جسد زوجته، كتلة باردة صماء، لا يحركها شيء، وإن محسها بالإمرة، أو عزز في بطنها قضيباً حديدياً محمّياً في السر.

بعد أن تخرج مجيدة يصحو صبحه، يؤثنه على ما فعل، يرى نفسه داخل النار، في أعماقه مد الطمولة يؤمن بإله مستقيم جتار، لن يغفر الله ذنوبه الكثيرة، أكبر ذنب أنه يشكّ في وجود الله، يمتزق بين الشكّ واليقين.

مزيد من الناس يعودون إلى الإيمان، تصاعدت السيارات الدينية في كلّ مكان، في الشرق وبعرب، مسلمين ومسيحيين ويهوداً وبوذيين وهندوكيين وكلّ الأديان، كلّ دين أكثر عبثاً من الآخر، حروب طائفية تحت اسم إله، كلّ إله أكثر دموية من الآخر، حاول النحّاص من إيمانه دون جدوى، في عيد الأضحى الماضي سافر إلى قريته، دعاه أبوه وأمه للاحتفال بالعيد، ركب سيارته المرسيدس السماوية، وهو يفودها على الطريق الزراعي خطر له أن الله سوف يعاقبه على شكوكه فيه، أن الله سوف يجمع السيارة اللوري القادمة تصطدم بسيارته ويموت، أفلح من الموت أن يشوه جسده، أن يفقد ذراعاً أو ساقاً أو عيناً من عينيه.

كان يقوم بدراسة عن علاقة الأديان بالأمراض النفسية كلّما تمتّ في الدراسة أدرك خطورة الإيمان، تلازمه فكرة انتقام الله منه، ليس هناك من هو أكثر انتقاماً من الربّ، إن ظهرت دراسته في كتاب فسوف يدخل اسمه قائمة الموت، تصدّره مجموعة الأمير، ومجموعة أخرى مجهولة، تعمل تحت الأرض، كانت القرية هادئة فيها جامع واحد، صوب المؤذن كان جميلاً وناعماً، يدغدغ الأذن، أصبحت القرية ملأى بالحوامع، في كلّ حارة، في كلّ ناحية، في كلّ رفاق وراوب، هو كل مسرة ميكروهم

صبحهم، ينطلق الأذان خمس مرات في اليوم، أصوات تشبه الرعد، امتلاب الحواري بشباب تعطي اللحى السوداء العريضة وجوههم، تدلّى فوق صدورهم، النساء والفتيات والأطعمان آلات رؤوسهن ملعوفة بالحجاب، الحشيش ينقون رؤوسهم بالعمائم، الأولاد الصبيان يرتدون العدة ذات المحرمات، تراوده فكرة أن الله ربما لا يهتم بهذه الأزياء، أو لا يراها، وإن رآها فما هي المشكله؟ لماذا تزيّفه أزياء الناس؟ لماذا لا يكفّ عن مراقبة أجساد النساء؟

أوقف السيارة أمام بيت الخرتيني، الذي تحيطه العزرة الكبيرة، كان زكريّا الخرتيني زميلاً له في المدرسة، في الميدان الصغير من بالمدرسة التي كان فيها وهو طفل، رأى ملصقاً فوق الجدار عليه صورة زكريّا الخرتيني، الصورة ذاتها التي تشر على رأس حمودة في الجريدة كل صباح، إعلان عن محاكمة له بمناسبة العيد، هوانها: العلم والإيمان.

سارت به السيارة إلى بيت جدّه القديم في شارع المحطة، رأى إلى جوار البيت جامعاً جديداً له منارة وميكروفون، في نهاية الشارع كانت الخمارة، ودار الغازية خذوجة، كان يلعب إليها مع زكريّا. وكان زملاؤه المراهقون، يهرعون خذو الشيطان في جسده السمين، ينتظر كل منهم دوره جالساً في الصالة، يقرأ القرآن، أو يحسب في مجلة فوق خلافها امرأة عارية، كان هناك أيضاً الحشيش والأفيون، وحقن الماكس، وكل ما يذهب بالعقل ويوقف الشهوة، ومطعم الكشري والكمشة والكوارع، وكل ما تشتهي لأعس.

ثم ذهب إلى الحمام ليصلي صلاة العبد، ركع وسجد مع

الراكعين والساحدين، لامت جهة الحصىرة، دخل التراب أنه مع البراعيث، طرد الشيطان الواقف على يساره، كان يشك أن الله لا يستدع بصلاته، أنه عاقبه على شكوكه فيه بأن هزم نادي الرمالك في المباراة الأخيرة، كان الشيطان يعرف أنه زمكوي، طرده بيده كأنما يهش دماغه.

- إغرس يا إبليس، لا يمكن أن يكون الربّ قائماً إلى هذه الحدّة، فيعاقب النادي كنه بسبب فرد واحد يشكّ فيه؟

في طريق العودة من القرية أدرك الطبيب النفسي أنه مريض، يحتاج إلى طبيب يعالجه، الانفصام بين عقله ووجدانه، عقله غير مؤس، لكن وجدانه مؤمن، لا أمل له في السماء، محكوم عليه بالازدواجية منذ الطفولة

تسلّلت بدور في ظلمة الليل، زوجها رافد إلى جوارها، يشخر، فمه مفتوح معوج ناحية اليسار، شاحص إلى السقف، جفونه نصف مغلقة، نصف مفتوحة، تطلّ منها نظرة أو نصف نظرة، متلصصة متجسّسة، يخشس النظر إليها وهي تتسلّل من الفراش، تمشي على أطراف أصابعها، قدماء صغيرتان سميتان، بعطشة الحركة مثل البطّة، تتأرجع من قدم إلى قدم، تتردد بين الإقدام والإحجام، في حياتها ثلاثة رجال على الأقل، محمود النقي بحمودة ابومي تقول عنه ممتاز، أحسن من حمودة، حمودة يقرأه كل الناس، بمن هم الرئيس، الرجل الثاني هو الطيب النفسي، زميله في المدرسة، كان يبدأ يرمس في اختبار الدكاء، يجري وراء الست، الرجل الثالث هو السر في حياتها، لا نوح به

لأحد حتى لنفسه، أو رتب صديقتها صافي أو دادا وديت، هاتان المرأتان لا تجتمعان إلا والشيطان ثالثهما.

ينقلب زكريا الخرتيتي وهو نائم من جنب إلى جنب، يشعر موقعه من فوق الظهر إلى فوق البطن، يدير وجهه في الوسادة، يتحول الشخير إلى نسيج مكتوم، يسري في أذنيه صوت أبيه وهو طفل، المرأة حليلة الشيطان، النظافة من الإيمان والوسادة من النسوان، يقتبس أبوه كلمات ابن المقفع: واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك لئلاهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب، فإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل.

لكن كيف يا زكريا يا ابن الخرتيتي أن تسمع زوجتك من أن تعرف عبرك؟ إنها تخرج كل يوم إلى الجامعة، أسادة كبيرة تدرس الطلاب المذكور، يرمقها ملائها الأساتذة يعيون الأبالسة، مهم محمود العقبي، صاحب العمود، وأستاذ الطلعت النفسي، ترفع أمامه فوق الأريكة، يستخدم الأريكة لعلاج نفسه من الحرمان الحسي، ينكح من النساء ما يشاء، أحل الله به النكاح بعد حصوله على درجة الدكتوراه في الطب النفسي، يتصور نفسه نبياً، يبعث الله لشغاه المعذبات على الأرض، يحبس زوجته في البيت، إن خرجت ترتدي الحجاب، يغار عليها من هيون الرجال، أقسمت أمامه على كتاب الله ألا تعرف رجلاً غيره في الحياة وفي السمات، ألا تنكح من بعده رجلاً أبداً، كأنما هو النبي المرسل من عند الله، يحميه الله من الأذى، أنزل عليه آية في سورة الأحزاب رقم ٥٣: وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً.

ينقلب زكريا الخرتيتي في الفراش، ينقلب من فوق ظهره ليعود واقفاً فوق ظهره، شاخصاً بنصف عين إلى السقف، يرى عين الله «ساهرة لا تنام، ترمقه بنظرة غاضبة من الثقب، عين حمراء مشتعلة بنار جهنم، صوته كالرعد يرخ جسدك:

يا ابن الخرتيتي، كان جذك الأكبر صبيّاً ميكانيكياً، بضربه صاحب ورشة الحدادة في بطنه بكعب حدائه، إن أخطأ في إصلاح صامولة من الحديد، أعطيتك وأعطيت أباك كثيراً من نومي، أصلحت صامولة في لحم مثلك الهش، أصبحت كاتباً كبيراً تملك عموداً يومياً في جريدة أبو الهول الكبرى، ألا تكف عن شكوكت في وجودي أيها الأحق، قتل الإنسان ما أكرهه!

كانت زوجته تدور حاليه وراء مكسها في عرفنها، أمامها الأوراق، في يدها القلم، لمة كهربائية تكشف عن وجهها المستدير السمين، جفونها نصف مغلقة، شاردة أو نائمة تعطف في النوم، تتراءى لها شخصيات الرواية، ضلالاً تمشي فوق الجدار، أشكالا تتجسد تطل من المرح في السحب السوداء، شق صغير من الضوء في الظلمة الحالكة، تشتغل فرج الله، أن يهبط عليها الرحي، أن يجري قلمها فوق الورق كما كان يجري، لكن القلم ثابت في يدها لا يتحرك، لا شيء يمشي في خلايا عقلها، منذ تزوجت زكريا الخرتيتي كف رأسها عن العمل، أصاب الصدا صوميل المنع، ترمقها عين زوجها في الليل وسهارة لا يغمض له جفن وإن نام، يتجسس على أحلامها، يفتش في الأوراق داحس أدراسها، يحبس ما يشاء من فصول الرواية، الأجزاء السرية حيث

تسهك المحرمات، يجمعها داخل درج سري في مكتبه، داخل
دوسيه علاف أسود، مكتوب عليه وما حمي كان أعظم

تمام بدور وهي جالسة وراء مكتبها، نصحو فجأة حين تسمع
صوت قدم، تعرف خطوته حين يمشي من غرفة النوم إلى الحمام،
محجورة في حلايا الصح السرة وراء الستة، عشرين سنة، ثلاثين،
ثم تعد تعرف عدد المسين صد شاركها في الفراش، تعرف صوت
الباب حين يفتح صوت الهواء، حين يخرج إلى الشرفة يشمط،
صوت الماء حين يدخل إلى الحمام، يسم هو تحت دفاذ الماء
الداهن تحسن البرودة تمشي في عروقها، من قنة رأسها إلى بطن
القدمين، تنبيه إلى الضربات المتصاعدة تحت ضلوعها، تيار الدم
المتصاعد إلى رأسها، برودة الثلج في أصابع يديها وقدميها، أدنها
مرهفة إلى صوت الدش في الحمام، أزيز الصامولة في الصنبور
حين يخلقه، ثم الصمت، يذبح الصمت وهو يحفف جسده
بالشكير الأبيض الكبير، نشم رائحة الشامبو حين يفتح الباب، مع
رائحة معجون الحلاقة، ماء الكولونيا المستورد من باريس،
أوسوفاج، تعرف أنه على موعد مع فتاة جديدة، الصحفية
المتدربة في الجريدة، أو الكاتبة الناشئة التي تهوى الأضواء، تنتقل
من كاتب كبير إلى كاتب أكبر، إلى أن تمتلئ لنفسها عموداً، فوق
رأسه تظهر صورتها داخل الروار، شعرها الطويل المسدل فوق
كتفيها، شعاع المنرجات عن أسنان مدببة دققة، جعوبها مسنة
في نظرة ناعمة، منسمة بالأبوثة وإغراء

في لشمسة من عمرها كاتب يرى أمها تسكي في صمت،
يحتفي في عرفها، يدعى وجهها في الوساده، تمسح دموعها في

طرف الملاة الصماء، كفت أمها عن الكلام مع أبيها، ترمقه بنظرة
ساحرة وهو راكع بين يدي الله، ينسم بايات العران، أدنه مرهفة
لصوت إيديس أنواقف عن يساره، عيه رائحة تنلخص على سيقان
البسات، عقله مشغول سائح لانتخابات، يسقط دائماً في الكشوف
الهائية، يعدي الإحباط بين المرجار، يعالجه بعرواات ناجحه بين
النساء.

كانت في الثامنة من عمرها، تلميذة بالمدرسة، إجازتها يوم
الجمعة، يخرج أبوها إلى الجامع، يخرج أمها لزيارة أمها في مصر
الجديدة، تبقى هي في غرفها تراجع دروسها، أو تطل من النافذة
على الأطفال في الشارع يلعبون، يتجمعون حول الرجل صاحب
القرد يفتح في المزمار، نغدها يستفخب بالهواء، حينها تضحكوان،
يرقص القرد على إيقاع الدحر، مؤثرته الحمراء تسمع تحت
الشمس، تتصاعد ضحكات الأطفال، البنات والأولاد، يرقصون
مع القرد ويصفقون.

كان أبوها يمنحها من الروول إلى الشارع، يقول لها إن أولاد
الشوارع هم أولاد الزنى، أولاد الأبالسة، خاصة ذلك الولد
الأصفر، يشبه القرد، صباه ضيفشان غائرثان تحت عظم رأسه
المحروطي الصعير، وجهه طويل نحيل، بشرته سمراء شاحبة،
تصنرف بقع بيضاء، نقص الصداه والأنيميا أو فقر الدم، أدناه
صعرتان وحمران، في شمعة كل أدن ثعب، يتدلى منه حلق من
الصفيح عسى شكل السجعة، يرقص الظمن، لأعرج مع القرد،
ويصعد وسط، لأطعم، ترون ضحكته في انجوى، يتسرب شيء من

الصوت إلى عينه الصقيع، ندمان ما تشابهه شبه الدفعة النحسة
كأن انطلق في مثل عمرها، تعذب عليه أمها، تدوله فرشاً،
نصف رعيص داحبه قطعة جس، كعكة من كعك العيد، سرراً
قديماً من سراويل زوجها

ذلك اليوم، الجمعة، بعد أن انتهت من مراجعة دروسها، كان
أذان الظهر يدوي من الجامع المجاور، وكانت الشمس مشرقة في
بداية الربيع، زالت برودة الشتاء وانقشعت السحب، أرادت أن
تشمس خارج البيت تشم الهواء، أن تزور صديقتها في المنزل
المجاور قبل أن يعود أبوها من الجامع، كان يمنعها من زيارة
صديقتها، لا تخرج من البيت إلا إلى المدرسة، في خط واحد
مستقيم، في الذهاب والإياب، لا تلتفت إلى هنا أو إلى هناك،
تسمع أبها يقول

شرف أبنت زني عود الكبريت يشعل مرّة واحدة فقط، مرّة
واحدة فقط مرّة واحدة فاهمسي؟

قبل أن تخرج من باب البيت أرادت أن تشمس قليلاً في
الفناء، كانت حديقة تحوط البيت فيها زهور ذابلة، حوش كبير من
الأرض الترابية في العناء الخلفي كانت غرفة صغيرة تضع فيها
أمها ما يفيض من الحماجة، تسحبها هولة التكرار، أو مخزن
العفش، تجري فيها السعدالي والحساس، تسكن فيها الأرواح
الشريفة، منها ينس كذا تقول أمها، يسخنها أبوها أوضة الميراث،
يهددها بالنحس في أوضة نيران عبد النعسان

كأن لمعرفة ناسه حشني قديم نصف محنق، نسما هي تمشي

في السماء الحدمي رأت أنياب موارث عن شق صغير، دفعها
الاستطلاع إلى أن تقترب من الباب بحدري، حشية أن يقهر في
وحشها فأر أو سحلية أو روح شريفة، سم تكن تؤمن مثل أمها
بوجود الأرواح أو العنبريت والجن، قالت لها مدرسة العنوم أن
تفكر بعقلها، لا شيء اسمه أرواح أو عنبريت أو جن، تردد
للمدرسة ما سمعته من أبيها

- لكن ربنا يا أبله قال في القرآن أن فيه جن وعنبريت

- مين قالك الكلام ده؟

- بابا يا أبله

- باباكي مش فاهم كلام ربنا، لازم تفهمي كلام ربنا بعقلك

إنني مش بعقل بابا ولا ماما

تشجعت بدور ونظرت من شق الباب الموارب، كان يمكن
الآ ترى شبكاً، فالعرة مظنة تماماً، ليس لها نافذة، كان يمكن أن
نمضي في طريقها، لكننا سمعت صوتاً غريباً، يشبه صوت طفل
يلهي، تجللت هيأها فوق الشق في الباب، رأت النصف الأسفل
من جسد أبيها عارياً، جذابه الأبيض مرموع فوق كتفيه، قضيبه
منتصب بحجم ضخم، لم تشهد في حياتها قضيباً بهذا الحجم،
كانت تلمح أحياناً قصصان الأطفال في الشوارع، حين يسيرون
بأردافهم العرية وأقدامهم الخافية، لكنهم مصدا صغرة الحجم
مرنحة مثل قطعة لحم طرية صلبة تتدلى بين العندين، كانت أمها
تسمها العصفورة، وقصيب آخر أكبر كدنت تراه يتدلى في الجسم
من وراء صحفة من الدحرج، يشبه إصبع الشيطان، يرحف من

حجمه الهند الدقيقة إلى العنق الملساء بعير شعر، ثم يهبط إلى ثانيا
النجم حتى يورده الألم والندة في الأحشاء الدقية

كانت في الثامنة من عمرها، خبرتها قليلة، بدا لها قصب
أبيها كبراً، أكبر من ذلك المتدلي من السماء، مستحاً ممدوداً إلى
أسفل حتى جسد الصبي الطفل، يشبه الفرد، مؤخرته هاربة حمراء
كالقرد، اكتشفت وجود الطفل الصبي بعد أن رأت قصب أبيها،
كأنما جسد الطفل كان امتداداً للقصب، أو أن القصب كان امتداداً
لمؤخرة الصبي، كان الولد الصغير راقداً فوق بطنه على الأرض،
وجهه مرفوع قليلاً نحو شق الباب، حينئذ مرفوعتان نحو الحط
الرفيع من الضوء، سافه العرجاء العارية ممدودة كالعاجز تمصل
بينه وبين أبيها، يده مدفونة تحت دقته، أصابعه متقلصة قبضة على
شيء أسفل بطنه مختبئ في العمق، أدناه الصغيرتان حمراوان، هي
كل شحمة خلق من الصفيح.

تصورت لأول نظرة أنهما جسد واحد، ثم انتهت إلى أنهما
جسدان، جسد أبيها وجسد الطفل الولد الأعرج من أولاد
الشوارع، حمراء ثمانية أعوام مثل عمرها، جسدان ذائبان في كتلة
واحدة، تشبه حيوان الكانغورو، حامل ابنه فوق ظهره، أو تحت
بطنه.

نشأ يدور جفونها وتصحور من النوم، تعبد نفسها جالسة وراء
المكتب في يدها القلم، الصفحة أمامها بيضاء، عقلها أسن مثل
الورق، ثابت لا يتحرك مثل القمم في يدها، مثل ثروحت وهي
عاجزه من الكتابة، أو رمز كشت روايه سرقها منها روحها، كان

يعتش أذراجها وهي غائبة في النوم، يسرق منها المفكرة السرية،
وحطامات البحث القديمة، سرق منها العصل الذي كسبه عن ذلك
المشهد، لا تستطيع أن تكتبه مرة أخرى، مررت السون وصاع
مها، تسرب من ذاكرتها، نسيت وجه الطفل الصبي في تلك
الحظة، نسيت اللحظة ذاتها، تصورت أنها سم تحدث أحداث
كثيرة تصورت أنها من خيالاتها، دحان بلون السحابة السوداء تطعو
فوق عينيها، كانت أصبح إبيس تنحفي وراء السحابة، وجه الله
أيضاً كان يتخفي وراء عمود من الدخان، لكنها رأت من الشق من
الباب الحشبي الموارب، أبوها ذاته بلحمه وشحمه، راكم على
ركبته كأنما يسجد بين يدي الله، يحيل بظهره إلى الوراء، كفه
اليمنى تشبه خفّ الجمل يدوس به الأرض، يده اليسرى متقلصة
متجمدة فوق حق الصبي، يتكاثف الدخان فوق ذاكرة يدور وهي
منمضة الجفون، خيالها يبدو كالحقيقة، والحقيقة تبدو خيالاً، لا
تقبض أصابعها الممسكة بالقلم على الحقيقة، تسرب من بين
أصابعها البضة مثل قبض الريح، تجاهد كل الجهد لتستعيد
المشهد، يزوع منها كالزئبق، ربما لأن الماضي يموت ويذهب إلى
العدم، أو بسبب الألم الموجه الذي يفوق احتمالها

فركت يدور هيئتها تتصحور، تذكّرت أن أباه كان جالساً
نصف جلسة، أو راكم نصف ركعة، يدرس لحته الطويلة في
صدره، وجهه المرنع متمد بالدم، مرفوع إلى السقف متقلص
العصلات في ألم ولده ورحة، كأنما أخرج انطسب من كتبه
حصاة، أو خلج بالكفاشة صرماً مسوساً في عظمة العنق، أو
امتأصل بالمشروط عدة أو ورماً حيثاً في المحصة، أو البروسانة،

كسمة البروسناتة سمعها من قبل وهي طعنة، البروسناتة عصو مؤث حلقه الله في جسد الذكر، الذي سافر ليستأصلها الطيب بالمشروط بدت الشوة هي عيني أبيها، شوة اللثة التي لم تعرفها في حياتها، شوة اللحم المحترق بالحرمان من اللثة، الأرض البور المحروقة بالشمس لتعطش للماء، تدوب اللثة في الأكم، في الثعب، في الراحة، في الحزن والفرح، ثم ذلك الاسترخاء، شبه الانتهاء، الموت، الانتهاء من عبادة إله متفهم يحرق في النار، واله آخر رحيم يحمر الدنوب جميعاً إلا أن يشرك به، كلاهما جبار واحد أحد

انهمرت الدموع من عينيها، ثم نعت فادرة على الرؤية، تلاشى وجه أبيها محب سحابة الدموع، وعادية دكاء تقرب من السواد، جسدها يستعص مع «دكري، انتعاسة أبيها وهو يختصب اللثة، يرفض اللثة ويطلبها في وقت واحد، مثل زوجها زكريا الخرتيني، يحبها ويكرهها في آن واحد، هي أيضاً تعاني الأزواجية، تريده ولا تريده، تحبه وتكرهه، مثل المكتابة تحبها وتكرهها، تقدم عليها بشوة كبيرة، لكن ما إن تلامس من القلم الصعقة الضياء حتى يحدث لإجهاض، أو الإحباط، تموت الكلمات تحت سن القلم، تموت البطلة في الرواية ويموت البطل، كأنما حلم أو خيال

يقول طبيبها النفسي، الأزواجية سمة الحياة، لا حياة بغير موت، قانون لطبيعة مردوج، قانون السماء مردوج، وإذا كان الله مردوج الشخصية لا بدور فهو يمكن الإنسان أن يعلو على الله؟ أنا لا أحب إلا امرأة، التي تسمى، التي تهجرني، أحبها بعد أن

أفقدتها، لهذا تنتصر السماء المومسات أو الحائلات عليها نحن للرجال، وتعتذ في حنا العاصلات والزوجات المحلصات.

حاولت بدور دون جدوى أن تنسى وجه الصبي الأهرج. وجه شاحب أسمر بلا قطرة دم، عينا مفتوحتان حتى آخرهما، رموشه مبللة بدموع متجمدة، بياض العين جاحظ كثيراً، تطل من تحت الغشاوة نظرة رعب متجمدة كالدموع.

قبل أن تخيق بدور من النوم، قبل أن تدرك ما تراه، كان عقلها الطمولي قد أدرك السر المكتوم في صدر أمها وأبيها، وعصها وجنحها وخالتها وحالتها، وعمتها، والجيران، وكل الكار في عائلة أمها وأبيها وفي المدوسة، السر الذي عرفته بعد أن كبرت، الكامن بين المعندين، الذي يتصب ويصمو ويتحد ويصبح في حجم نظيره لدى الحمام.

أحسّت بدور بالماء الصاقم يسقط فوق رأسها، كأنما السماء تمطر، عرق غزير يفرق جسدها وهي واقفة تطل من شق الباب المولود، ريح باردة تضربها من الخلف، تجمع عنها ثوبها، تحلج عنها جسدها، ترتعش، يستعص جسدها وهي ترى الدموع المتجمدة في عيني الطفل الأهرج، أو ربما كان ظملاً يشبهها وهي طفلة، ربما كانت هي نفسها هذا الطفل الرائد فوق بطنه تحت القضيبي الضخم، تحت جسد الكانفور المتعصب، أو ربما كانت هي أمها، حين كانت أمها تدخل غرفة النوم مع أبيها، يسري إلى أدبها من خلال الجدار صوت يشبه الأنين، صوت طفلة تفر من الأكم، ورائحة متفردة، لم يكن يفصل أسانه بالمصجون والفرشاة كل صباح، لا يستحم بعد أن يمارس الجنس، ينتقل من أمها إلى

النساء الأحرىات دون حمل، يتحد من السبي مثلاً أعلى في هذا الأمر فقط أصبحت الرائحة العطرة والعمرة في أنفها شيئاً واحداً، الخير والشر، الله والشيطان، الحب والكراهة، اللذة والألم، الحياة والموت، كلها شيء واحد.

ترفق بدور ابتها مجيدة، الطفلة في الثامنة من عمرها، تطرد المشهد من ذاكرتها، تتذكر أنها كانت في مثل عمرها، لا تنوح لابتها بالسر، بض السر مكتوماً في أحضانها، فقص حديدي مثلي يحب الصنوع، لا تملك الشجاعة أو الحركة لتعتنه دون أن تشق فيها نصيب، أو كدها بترعه بالسكين من صدرها

أقامت مجيدة الحزنتي حلاً كبيراً في عيد ميلادها، بلغت الرابعة والعشرين من عمرها، جاءت إلى الحفل رينة بنت رباب، صمم المدعو، تكبرها بعام واحد، نبدو أكبر منها بمائة عام، طويلة انصاف مرفوعة الرأس، أصابعها النخيلة الطويلة تحري فوق البيانو بسرعة الضوء، ترفقها العيون بإعجاب وحسد، رجالاً ونساء وأطفالاً، أصبحت رينة بنت زينات نجمة في سماء الفن والثناء، أصبح بها عرفة كاملة من الأطفال والبنات والأولاد، من الأروقة والحواري، أصبحهم السمراء المشقة تدق أوتار العود، والطبول والرق، محدودهم الشاحبة تنفخ بهراء المرامير، أصواتهم نغمي أشددة الوتر، أهية العطن والقمح.

- الفصح الليلة له عيده، يا رمت تارك بيلوك وترينه..

- نورت يا قطن الليل، يا حلاوة عيك يا جميل..
- بلادي بلادي لك حبي وموادي.

هيونهم يكسوها البرق، تنفث السحابة السوداء، ندوب طبقة الدموع المتجمدة، تطل المقلتان السودوان تلمعان مثل النجمة في السماء، تدب الأقدام فوق الأرض يابقع اللبن، يرقصون ويثلون ويمزفون الأغاني، أقدام وسبقان أطفال كبروا، استطالت عظامهم وطالت، أولاد وبنات، الثأمت جروحهم والكدمات، والكساح والعرح، أحران القلب والوجع، تقودهم رينة بنت زينات على اللياقو، مد طمولتها تحفظ اللبن عن ظهر قلب، تحلم به في الليل، نسري إليها كلمات الأصبه وهي نائمة، يشتغل عقلها في اليفظة والحلم، ترى البرق في عيني أمها رينات، وأنة مريم، ورميلاتها في المدرسة، ترفقها صديقتها مجيدة الحزنتي بمسح ضيقتين، يملأهما الحسد والإعجاب، عطرة واحدة مردوجة، نجتها وتكرهها، تدافع عنها أمام الناس، تكتب اسمها رينة بنت ربي في المرحاض في صمودها في مجلة النهضة نقلد أباها ركزت الحزنتي، تمسك العصا من المنتصف، تزدد هيأته، حير الأمور الوسط، في منتصف الليل المشدود نفث، بين اليسار واليمين، بين الحكومة والمعارضة، بين العلم والإيمان، بين المدح والقدح، تحت اسم النقد الأدبي، الانزاع والموضوعية، الحباد والترفع هي الأحزاب، ترفع شعار الاستقلال والحرية.

جاء إلى الحمل أحمد الداهيري، ابن عم أمها بدور، أصبح يحمل لقب فصيلة الشيخ، يرفع شعار الإسلام هو الحل، أهوانه هي المجموعة تحت الأرض، ينادونه الأمير، يرفع صوته في

الإداعات تحت الأصوات، يخصص صوته في الاجتماعات القرية، رأسه مرتفع الشكل صغير الحجم، ذقه مرتفع ككاف خفيفاً، ثم نبت له لحية سوداء كثيفة، جبهته كانت ملساء ماعمة، ثم نمت فوقها زبيبة سوداء، أصابعه البضة القصيرة اللامعة تشب أصابع أبيه وعمه وجدّه، يمسك بها السبعة في النهار، وكأس العمر أول الليل، يذهب بها أجساد الباهيات قبل الفجر، يحاف المماريت في الظلمة، والصراخير والخنافس والفئران، تعود الشجاعة إليه مع قدوم النهار، يرتدي العمامة حول رأسه أو الطقبة المخزومة، الجنباب الأبيض الواسع الطويل، أو البدلة من الصوف الإنجليري في الاجتماعات الرسمية، مع الزرراء أو الشفراء، مع الرؤساء أو رعماء الأحراب، لا تفارق أصابعه السبعة الصفراء، تحرك حثاتها الساعمة، مع تمتمات صوته الحفافة، يتلو الآيات المقدسات، أحاديث الرسول والمرسلين، أموال الأولياء، الأسلاف الصالحين، يسمل ويحوقل ويمسح جبهه بكفه الصغيرة السنية.

سقطت مياه عليها وهي ترقص وتغني، جسمها معشوق طويل كالمرال الشارد، ساقاها وشبكتان مسحوتان إلى فخذي مشدودتي العضلات، مثل عذبي التمر، ذكورة جامحة تذوب في أبوة ناعمة، يدها فوق صدرها بهتران مع اللحن والإيقاع، كرتان صغيرتان من المطاط الصلب، تحت الثوب الأبيض من الفطس، لكل كرة منها بور مذبذب يشبه الإبرة، تخرق الإبرة عيه، تحرم الحديقة بروحية الذكور في العدة، كالجود المتمرّد الجامع، ليس لها صاحب، لا يملكها أحد، تحرك ذراعيها وساقها في الهواء، تعفر في الغصاء، تنشي مثل عصر ناعم، حديث الولادة، صوتها

ينطلق دون حواجر، دون قيود الأرض أو السماء، مفلساه الكبيرتان الررقاوان تشقان وهجاء، شمة سوداء ررفاء لا تحاف من جهنم الحمراء.

في المقعد إلى جولره كانت تجلس صفاء الظبي، صديقة ابنة عمه بدور، نرمقه بعينها، يكاد يشبه زوجها الإسلامي السابق، تكاد تقرأ أفكاره، تلتقط المرشحة في أصابعه الممسكة بالسبعة، تعذ حينها إلى أحشائه، نظرتها حادة كشجرة المومس، تحلق شعر لحية وشاربه، تجتر شعر العانة الأسود لشرى ما تعته، غيرتها بالرجال كبيرة، يحشظمون في الآراء والأفكار، يتمددون في المفاصل والأحزاب، يستدقون شعيرات اليحيى أو اليسار أو الوسط، يتبارزون كالذيوك في الإداعات وهوق الششت، يدهون إلى الجامع دون وصوء، يقعون وراء الرئيس أو الوزير، في الصف الثاني أو الثالث أو الرابع أو ربما الأول، يسمعون عظم الركبتين تطلق عند الركوع أو السجود، أو صوت الأمعاء المتصحمة بالحد والإعجاب، تتقلص مع الحركة وصعط الدم، يعلب الهواء المضغوط في الأحشاء الددنة، يخرج من بين الإليتين بصوت حافت ناعم، يشبه المنخير المكتوم في النوم، أو حميف قدم حافية تعشي على أطراف أصابعها في الليل.

يسبح خيال صفاء الظبي في الزمن، يعود بها إلى زوجها السابق، قبل الزواج قال لها: أنا معجب بكتاباتك يا صافي، يدلها باسم صافي مثل صديقتها بدور، كانت مثل رميلاتها الأسناذات المثقعات أو الكاتبات السافدات، ترهر بعقلها، إن تعزل رجل يشغتها أو نهديها نرمقه بنظرة حادة

- أنا لست جسداً يا أستاذ، أنا عقل يعتمر، أنا كاتبة مرموقة، هل قرأت كتابي في النقد الأدبي؟ ألا تقرأ مقالاتي في المصحف؟
تصحك صانعي ضحكك المجلجلة، يرتجج جسدها السمين القصير، أصبحت تلف رأسها بالطرحة البيضاء، تصد عن معانها عيون الرجال، صاعدت روجها على الإخلاص، أقسم لها على المصحف أنه لن يلمس امرأة غيرها.

كانت صفاء الطيبي تتأقّب لتأليف كتاب في النقد المسرحي أو السينمائي، قال لها زوجها:

- أكتسي عن حقوق المرأة في الإسلام، نقد مسرحي إيه؟ ده كلام فارغ يا صافي، مايش في بلدنا مسرح ولا مسرح ولا أدب ولا ثقافة، كله كلام فارغ منقول من الكتب في الغرب، الحق عندما خلعه ومحوه، أكتسي هي للإسلام يا صافي، الإسلام هو الحق نكر مشاكس.

تأقبت صافي لتأليف الكتاب، جمعت المراجع والدوايات السابقة، وضعت المهرس وصاوين المصنوع، أصبح عنوان الكتاب: المرأة في الإسلام، كتبه بالخط النسخي العريض فوق الدوسيه الأخضر، تنكفى فوق الأوراق تكتب، تسهر الليل في مكتبها داخل غرفتها، حتى يغلبها النوم. تعلق الدوسيه، تنطوي قليلاً ثم تسير إلى غرفة النوم، حيث لتسري العريص، يشاركها فيه روجها قبل أن يهضمها الفراش تدخل الحمام، تمسك الترف والتمتع.

كانت الشقة في الدور التاسع في شارع المعجورة، تنقطع المياه في الصائير جزءاً من النهار والليل، تستولي الأدوار السفلى على الماء، الماكينة تعمل بالكهرباء، تدفع المياه إلى الدور التاسع، ينقطع التيار الكهربائي جزءاً من الليل، كان الهواء مشبعاً بالثراب والدخان، سحابة سوداء تغطي السماء، صفائح النمامة أمام أبواب الشقق دون غطاء، تغليها الفطط، تتقافر من حولها الصراخ، ماسورة المياه انفجرت مع ماسورة المجاري، عجالات السيارات تفرق في الشارع وتوقف حركة المرور

فوق باب العمارة الخارجي لوحة كبيرة مكتوب عليها بالحط السخري: عمارة الفؤى والإيمان، حتى العمارات أصبحت تعود إلى الإيمان، صاحب العمارة يملك شركة لتوظيف الأموال، ويسكن من بنوك الإسلام، تظهر صورته في الصحف بالسحبة والشارس والسحبة، والريية فوق الجبين، يصافح الورياء والسمره، وكبر الكتاب من أصحاب الأعمدة في المصحف الحكومية، وأسائدة الجامعات، مهم صفاء الطيبي وروحها السابق، لا يملك كل مهم شيئاً إلا راتبه الشهري، ومكافآت بطر المحاضرات في بلاد النفط، وأرباح كتب ومقالات من الإسلام، ومدكرات يوزعها على الطلاب والطالبات، ودروس خصوصية في الدين والفقه والشريعة، تجتمع لديهما في البنك الإسلامي رصيد يبلغ الآلاف، أو ربما كانت شركة من شركات توظيف الأموال المؤقتة، حتى الأموال حادت إلى الإيمان، ترفض ما يستقى الربا، تحصل على فوائد أكبر من الربا تحت اسم توظيف المال.

من تاملت غرفتها العائلية في الدور التاسع نطّل صفاء الطيبي

عنى السماء، تصاعد إليها رائحة المجري من الشارع، مع الأصوات الرائقة في الميكروفونات، تعدد رجاء النافذة المزدوج حول النهار، معاً من دخول الذهب، ورعيق المؤذنين من فوق السماعات. في الليل تغلقه أيضاً منعاً لدخول الناموس، أو البعوض، وحشرات أخرى صغيرة تسمى الهاموش، قد تفتح النافذة أحياناً طلباً للهواء، لكن الهواء معدوم، ورائحة المجري لا تطاق، مع رائحة القمامة المتراكمة عند الأبواب، تتغطى بالملاءة من قمة الرأس حتى يظن القدمين، مع ذلك يدخل إليها الناموس والهاموش، وصرصر أسود يجري تحت رأسها، تهت من السرير واقفة على قدميه، تمشك فردة الشيش لتصرف الصرصور، لكنه أسرع منها في الحركة، ينصر عبيد في المعركة، يحتفي في شق تحت الحذاء، يتركها تلهث، تنصت عرفاً، يلعب النيس والذب، تتمدد فوق السرير إلى جوار روجه، ترمقه بحسد وإعجاب، ينام بعمق لا يزعجه شيء، وإن قام الحرب أو هزت العمارة في الزلزال.

من بعيد يسري إليها الصوت، يشبه الهتاف في المظاهرات، أصبح الناس يهرجون إلى الشوارع يتظاهرون، همال أصبحوا بلا هم، شباب يحملون الشهادات العليا عاطفون، نساء بالجلاليب السوداء والشبشب، أطفال الشوارع والشحاذون والشحاذات، وأصحاب العاهات، ومشوهو الحرب والسلام والمشوهات

من بعيد تسمع الهدير خافتاً، يعلو بالتدريج مع طلوع الفجر، تبدو المدينة مثل حيوان أسود ضخم يصحو كسولاً، بطيئاً، تغل عينه الذاهلتان من ليلتين في السحابة السوداء، يشبه امرأة سؤمة

مرتدي النقاب، نأني الحاديه تكس البيت، تنشر الملابس على الحبل، تنفض السجادة السحله الباهتة فوق مبور اللكونة، يتساقط التراب فوق الأدوار السفلى، يبدأ الشارع يصحو، محلات البقالة، الكوافير، الصيدلي، السمكري، الكازينوهات، والمطاعم على شاطئ النيل، وتحت الكباري، مكاتب ابوليس، والخقارات، والمحاكم، والمدارس، والمصاهد، والجوامع تضع صفاء الطبي لإسرق الشاي على النار، زوجها نائم يتشم في الحلم، لم يمد يتشم في وجهها، يعطيه ظهره ويغط في النوم، جسمه قصير مرتفع، وهي تمش القوم العلويين المحشوق، وجهه عريض سمين وهي تحبب الوحوه المحببة الرشيقه، صوته خشن فيه ذكورة زئمة عن الحد، فب لها قن الروح

كتابك تعجبي يا أستاذة

طرف لسانه حرج وهو يطق حرف الدال في كلمة أستاذة، كان يرى كل ما فيها جميلاً حتى أنهم المكور، قال لها إن أمها فريد من نوعه، يتميز أمها من سائر النساء، يجعلها محبلة من الأخريات، جميع عيوبها كانت تتحول في نظره إلى مميزات، اختلافها معه في الرأي أمر طبيعي، صحتي يمشي مع المنطق، مع ديموقراطية الإسلام.

- أنا أؤمن بالتعددية يا صافي، الاختلاف يثري الحياة، لو أراد الله لخلفكم أمة واحدة، لكنه جعلكم فرقاً وشعوباً متفرقة، الإسلام مبني على العقل يا صافي.

يعرض عليها مفاداً كتبه للجريدة الإسلامية، في بداية المقال يقول بسم الله الرحمن الرحيم، يتميز الإسلام عن سائر الأديان بوعمال العقل والاجتهاد، صحيح أن الحجاب واجب على المرأة المسلمة فرداً فلسفة والمعاصي، لكنّ حيض المرأة ليس نجاسة ولا أدى، يمكنها أن تمسك بيدها القرآن وتقرأه، لكن لا يمكنها الصلاة أو الصيام في أيام الحيض، أما الزواج من الإخوة في الرضاة فليس من المحرمات في الإسلام، لأنه يتألف مع العقل، إن وضع طفل من ثدي امرأة فكيف يمكن أن نمنعه من الزواج من طفلة رضعت من الثدي ذاته، أهني كيف لا يتزوجان إن جمعهما الحب بعد أن يصبحا في عمر الشباب؟

بغلبها النعاس وهو يقرأ، هفلة فارغ ليس فيه إلا الحيض والنفاس والرضاع، يغضب حين يراها تنام وهو يقرأ - طبعاً مثل حاجباكي كتاباتي، كتاباتي دي اللي كانت حاجباكي قبل الجوار.

- ومعني كتاباتي بتعجبك؟ كتاباتي اللي كانت بتعجبك قبل الجوار، وكنت تقول: كتاباتك تعجبني يا أستاذة، ولسانك يخرج وانت تقول أستاذة، وانت بتنطق حرف الذال.

- لسانني يخرج يعني يه؟ يه قلّه الأدب دي؟

- إنت اللي قبل الأدب

انعلبت انتديا بعد أن نشر روجها المقال، صاح أحمد الدامهيري

- هذا كمرأ هذا سرجل بعارض كلام الله في القرآن، لا اجتهد مع النص، هناك نص يقول إن الحيض أدى، ولا تعربو النساء حتى يطهرن من الأدى.

لا يحفظ أحمد الدامهيري الآية في القرآن المختصة بالحيض، لكنه يذكر عن يمين أن كلمة الأدى وردت في كتاب الله في هذه الآية من الحيض، وهناك حديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحرم الزواج بين الإخوة في الرضاة لا يذكره بالحرف، لكنّ المعنى واضح

إلى جوارها في المقعد كان يجلس أحمد الدامهيري، حينه كتابان حركة زينة بنت زينات:

- هذه الفتاة كانت طفلة بالأمس، أصبحت امرأة، أصبحت أنثى شهية، تكبر البنات بسرعة الضوء، تبرز نهودهن بين يوم وليلة.

يخلق جمونه، يتغزلها بين ذراعيه، يراها تحت في الفراش، سينالها من يمينه لا يشتهي امرأة بلأ ويسالها، أحلّ الله للرجال الإمه والجموازي وما منكك اليمين، فما باله وهو الأمير؟

كان للأمير قوة عامصة، يقول عنها قوة الله، كان يجمع بالسلطات في الحفاء، يحارصها في الصحف، يظهره هذه بالعداء، يأبى سلاح كثير وأموال من المخرج، يتأجر انمقاتلين في مسل الله في كن مكان، له أصوات في الدولة، في المدارس، في الجامعات، في النقابات، في المحاكم، في الوزارات، في جميع

المؤثبات، حتى التوبس والمباحث، ودور اللهو والبعاء.

أقدم أحد رجاله دعوى في المحكمة ضد صامي وروحها، أدلت صامي بتصريح في الصحف تؤيد فيه زوجها، قالت إن الحيف ليس أذى، إن جوهر الإسلام يحترم امرأة، إن دم الحيف مثل دم أي إنسان، دم مقدس، لولا المرأة لما استمرت البشرية، جاءت التهمة الموجهة إليهما كالآتي:

- إرداء كلمة الله

- الخروج من دائرة الإسلام

- إنكار المعلوم من الدين.

- المساس بالمعقدسات.

انقسم المثقفون والمثقفات إلى قسمين، أحدهما يؤيد الاتهام، يفرد أحمد الدمهري، القسم الثاني يعارض، تقوده بدور وانتهى مجيدة الحرثيني، انتهى الأمر بحفظ القضية، مما يمي البراءة والبراءة، تظل القضية معلقة في أحد الأذراع، تسحبها الحكومة ويخرجها إلى النور عند اللزوم

كانت العائلة الواحدة تضم السيارات المتصارعة، يخرج من ضلع الأب المؤمن ابن ملحد، ومن رحم الأم المسلمة ابنة ماركسية، ينضم الزوج إلى حزب اليمين، تدخل زوجته حزب اليسار، يصبح الأخ مع الحكومة، وأخته في المعارضة، لكن صلات الرحم وعلاقات الدم تغطي في النهاية، تتجمع العائلة في المائت والأفراح، يتبادلون العناق والقبلات، ثم يخرجون إلى ساحة الصراع، يوجهون بعضهم إلى بعض الضربات، من تحت الحزام أو من فوقه.

كان طبعاً أن يحضر أحمد الدمهري حفل عيد الميلاد، مجيدة وكبريتا الحرثيني ابنة بدور الدمهري، ابنة عمه، كانت صورتها تراوده في الجسم أيام المراهقة، يسها مجيدة الحرثيني كاتبة صاعدة، لها عمود دائم في مجلة النهضة، يريد أن يهديها إلى طريق الإسلام، أبوها له عمود دائم في جريدة أبو الهول الكبرى، يتأرجع أبوها بين العلم والإيمان، يتمنى أحمد الدمهري أن يكسبه الإسلام، يحتاج الدين إلى قوة في الدين لتحميه، قوة الإعلام والسلاح والمال

درس أحمد الدمهري علم الاجتماع السياسي في الجامعة الأمريكية، يتحدث اللغة الإنكليزية والفرنسية، يسافر إلى باريس وواشنطن ولندن، يحضر مؤتمرات الأديان، يسبح كالسمكة في البحر والمحيطات، أصبحت له شركة لطباعة الكتب الدينية، وإنتاج المبحر والمسابع والأحجية، وتوريد السلاح وأجهزة البث والاستفسار السمعي والبصري، وتصدير المسبح والسردس والمجلات، وترجمة القرآن إلى لغات العالم

- أهلاً يا أحمد نورت الحفنة.

- بوجدك يا بدور يا بنت عتي.

- أهلاً يا أونكل أحمد.

- كل سنة وانت طيبة يا مجيدة عقبال ميت سنة

- شكراً يا أونكل

- أنا أبيع كتاباتك، يرافر يا مجيدة، بيق نفسي كده تكتبي

أكثر في الإسلام وأمور الدين، لأخرة أمي من الدنيا يا مجيدة

عباد تسابيح حركه زينة يست رينات، كانت تعرف على
البيان، ظهرها مشدود فوق مقعد بدون ظهر، يرى وجهها من
الجانب، شعرها الغزير مرفوع فوق رأسها كالنخاع، بشرتها سمراء
ملوثة بالشمس، أنفها مستقيم مرفوع في شموح، تهز كتفها على
المحن، أصابعها الطويلة الرشيقة تجري على البيان كأصابع من
النوء، العيون في الصلابة الواسعة ترمقها، تظفي الموسيقى على
الحوار الدائر:

- زينة كنت صاحبتك من زمان يا مجيدة؟

- من أنام المدرسة يا أوككل.

- حاولي تصحيح يا مجدة عشان تعرف رتب

- صاحتي ربه أحلافها كويسة أوي يا أوككل، ما فيش في

حياتها غير العن والموسقى والعنا

- الحاجات دي كلها حرام يا مجدة

- حرام ليه يا أوككل؟

ثلثت إليهما صفاء الظبي، تندخل في الحوار، صوتها يهمس

في غضب:

- حرام ليه يا أستاذ أحمد؟ الفرّ الجميل نعمة من عند ربك،

ربنا جميل يحبّ الجمال، مش كده واللا ليه يا أستاذ؟

- أرجوكم بلاش كلام هاويزن نسمع زينة.

إنه صوت مدور، جالسة في المقعد تلعب صديقتها صافي،

سحشي أن يسلم المرح إسي حرد، لا تريد لابس عمتها أحمد
اندامهيري أن يمسك الحوز، تعرفه عند انطمولة، لا يهدأ حتى يلبس
الأنظار إليه، كان يتوقع أن تقدمه بدور للصيف، أن ترفقه عيونهم
برهة، أن يحسوا وجوده، لكنه يجلس في الصف مثل الآخرين
من المدعوين، كأنما هو نكرة، وهو الأمير، نجم مرموق في كل
مكان، إله أو نصف إله في نظر الأتباع ولأعداء

تجلس في مقعده متردداً بين البقاء ومغادرة المكاب، لولا أن
رنة بنت رينات بدأت تغني، صوتها يسري في جسده محدثاً كهرة
غير معروفة المصدر، ترتج أصفاقه ارتعاجة تنفسي عنه حرد
السين، عباد المظلمات يظفوا عليهم الرين، ربه رنقة أمام البيان
نوجه الجمهور في الضالة النواصع، جالس صموف عيونهم
شاحصة إليها، يرى وجه أمها رينات في الصف الأخير، جالسة
وسط الحدم والطاحين، عيناها من تحت الدموع تكسوهما لمة،
ترك ربه مكانها فوق حش المرح وتذهب إليها، تمر بين
انصموف شامخة الرأس طويده القوام، كم كانت تسحي بين
صموف البنات في المدرسة، منذ عشرين سنة أو ثلاثين أو مائة،
يبدو الماضي بعيداً قريباً كأنه الأمس، تحوط أمها بذراعيها، تسير
بها بين الصموف، تصعد بها السلالم القليلة إلى المصنعة، تسحي
للجمهور بكبرياء طيبة ونقول:

- هذه الأضية الجديدة أهديها لأمي رينات، أُمي العالية،

أعلى عدي من الدنيا والأخرة.

تطرق سور الحرشي برأسها تلح دموعها في صم، يتحمل
أحمد الذامهيري في مقعده

- هذه الساء عاجرة، يعني إيه أعلى عن الدنيا والآخرة؟ ما
فيش حاجه أعلى من الآخرة يا كافرة؟

تدور الكلمات في رأسه دون أن ينتظر، يفت الصمت في
القاعة، تبدأ الفرقة بالعرف، أطفال أصبحوا شباباً وشابات، صعدوا
مع زينة بنت ربات إلى عالم الموسيقى والفن، ذوبتهم أبلة مريم،
 يوماً بعد اليوم، الشهر بعد الشهر، السنة بعد السنة، اطلقوا اسمها
على الفرقة، اشتهرت فرقة مريم مع مرور الأيام في كل أنحاء
البلد. كانت أبلة مريم جالسة إلى جوار مجيدة الخرنيتي، أشرف
وجهاً حين أشارت إليها زينة بنت زينات، صعدت معها إلى
المنصة، قدمتها زينة إلى الجمهور وهي واقفة بينها وبين أنها
زينات.

- أبلة مريم هي أمي الثانية، هي التي جعلتني أحت
الموسيقى والغناء، هي التي درّبتنا واحتضنتنا من الشارع إلى عالم
الفن، أطلقنا على فرقنا اسم فرقة مريم، ليس لنا مقر إلا الشارع،
بشرايه ومسائه ورجائه وأطماله، بمظاهراته وهناعاته، يسقط الظلم
نحيب الحزينة، الشارع يوحى إليها الألحان والكلمات والإيقاع،
سمعت أن موسيقى من الشارع، من الترحيف والتراب، من أنفاس
الناس الدافئة فوق الأرض، ليس من برودة السماء

صوتها وهي تتكلم يشبه العاء، المقلتان الكبيرتان في عبيها

الواسعتين يكوهما ضوء يشبه الشمس، صوتها يسري دفت إلى
قلوبهم بحرارة الدم، يتفد إلى أعماقهم مشحوباً بالحزن وفرحة
الأطفال، كلمات بسيطة تخرج من صدرها مع أنفاسها، طبيعت
سهلة بسيطة، كل شيء حولها يبدو طبعياً وإن كان غير مألوف
يتفص أحمد الذامهيري في مقعده.

- هذه المرأة حطيرة ليست بسيطة، تتلاعب بالكلمات، يعني
إيه برودة السماء؟ ده كلام كمر.
كان يكلم نفسه بلا صوت.

الأيادي في الصلاة ارتفعت بالتصفيق، طغى صوت التصفيق
على الأصوات الأخرى، كان بعض أهوان أحمد الذامهيري
جالس في الصفوف الخلفية، أو واقفين في الممرات، لا يخرج
الأمير دون حراس مسلحين، يرتدون ملابس مدنية هادئة، جلابيب
بيضاء، أو بدلات صفراء من القماش الكاكي أو الجبردين، داخل
جيب كل منهم مسكن مكتوم الصوت، رؤوسهم تستعرك هنا
وهنا، لكن عيونهم ثابتة شاحصة نحو الأمير، لا يرون غيره وإن
امتلات القاعة، لا يسمعون إلا صوت وإن ارتفعت الأصوات، أو
حرمت الموسيقى وتعاود العناء، رأوه يتنفس في مقعده، يرمجر
بصوت خافت، ربما لم يكن للترجمة صوت مسموع وسط
التصفيق، لكن آذانهم المشرقة نحو حركة شفتيه التقطت الصوت،
ربما لم تكن إلا انقباضة عضلات الفم حين مط شفتيه المرموشين،
بحرکت عضلاتهم مع حركته، حوحت من بعض الشعاع ومجرات،
ابتلعها صوت التصفيق المتواصل، ثم دت الصمت، وعاد ربه
ست زينات إلى العرف والعناء

هناك شيء في الموسيقى يسحر القلب الإنسان والحيوان،
ومناثر الكائنات الحية، يرقص الحصاد والحصار على الإيقاع،
تفرد الطيور في الصباح، تصغر الصراخ في الليل مع نقيق
الضفادع، يسترخي جسد الثعبان ويكف عن اللدغ حين يسمع
المزممار، يستخدم الطيب النفسي الموسيقى لعلاج المجانين،
تروّج الموسيقى النور والضياء في العايات

ليس كل الموسيقى، وليس كل الغناء، وليس كل إيقاع
الرقص، كانت رينة بنت ربات تعيش الموسيقى، تسمع للحلح في
السم، تدونه حين تشرق الشمس، تُعنيه مع الليل والكروان،
ترقص على إيقاعه وهي تحري نحو أنهار زينات، لم تكن زينة تغل
من الكتب أو تقلد الشعراء أو الشاعرات، تكتب كلماتها من وحي
تجاربها في الحياة، عرفت في طفولتها ما لا يعرفه الكبار، هتكت
السّر المحمي عن عيون البسات، رأت غري للرجال وهي طفلة،
تجاوزت الألم والاعتصاب، لم يدمرها رجل، ولا أب ولا أخ
كبير، ولا هم ولا جد، ولا حبيب ولا زوج، كانت الموسيقى
حبها، من يحب الموسيقى تحبه، ومن يكره الموسيقى تكرهه،
وإن كان الملك أو الأمير.

واقفة شامخة فوق خشبة المسرح تحت الأضواء، تشبه الإلهة
فينوس أو إيزيس أو نفرتيتي أو مريم العذراء أم الإله، أو لا تشبه
أية واحدة فيهن، زينة هي نسج وحدها، لا أحد يشبهها، جلبابها
الممرق البالي، لرأسها هذه الشمعة، هذه الحطوة الثابتة فوق
الأرض، هاتان المقدتان انمشتان، هذا الإشعاع البارد، يجذب
إليها العيون، يجعل القلوب تحمق، والعقول تتسائل من تكون؟

من خلقها بهاتين العينين المرقوعتين؟ أم الإله ذاته الذي خلق
عيون النساء المنكسرات؟

كان سحرها يكمن في هاتين المقلبتين، الجسورتين
المفتحنتين للحجب، في هذه النظرة الثاقبة، هذه الحملقة الواسعة
الناثة لا تطرف لها جفن، هذا البريق المدهش لطفلة تغلبها
الدهشة الدائمة ولا يدهشها شيء، تخرجت من مدرسة الشرع،
عرفت قاع الحزن وقمة المرح، لم تعد تخاف القاع ولا القمة، لم
يملكها رجل، ولا يمكن أن تكون مسلوكة لأحد، حتى الموسيقى
لم تملكها، هي التي ملكت الموسيقى وتحررت بها من العقر
والخوف والعبودية

أصبحت زينة بنت زينات ظاهرة في مجال الموسيقى و شعر
والغناء، حين يألها الصحفيون في نهاية نحص، ما حتم حياتك؟
بشرق وجهها كالأطفال، تضحك وتملا صدرها بالهواء، تشد
بصوت كالغناء أول قصيدة كتبتها في طفولتها.

- حلم حياتي أن أربي لأمي بيتاً

من الطوب الأحمر

ليس من طين معجون،

هي تملكه

لا يطردها منه مخلوق

له سقف يحميها لهيب الحر

ويرد الشتاء

حنان فيه ماء
ولمبه كهرباء

في الليل وهو نائم يراه أحمد الدامهيري، في النهار وهو
يحشي يلمسها من بعيد، ليست هي بالذات، بل علة أخرى
شبهها، طويلة مشوقة القوم، رأسها شمع مرفوع، يريد أن
يمسك رأسها بين يديه ويكسره، يكسر هاتين اللبتين الوفتين، أن
يرقش هذه النمرة في فراشه، أن ترقد تحته، يحترقها بعموده
الحديدي، يحرق عينها بإصبعه، يجعلها ثلث من تحتها أنبأ
متواصلاً، تطلب منه الرحمة، كما يطلب العبد للرحمة من الرب.

مند طفولته كان يحلم أحمد الدامهيري بهذه الأسطورة، تغلبه
أمة مثل الولادة بالنبوة:

- يا ابني، ريتا زارني في المنام، قالني في بطنك ولد،
مكتوب له يكون ملك أو أمير، يركب حصان أبيض ويطير.

يطير... يطير...

يخلق بعينه في السماء شايخ صوت أنه وهي تقول يطير.
يطير... ينمو له في الحلم جناحان، يطير بهما فوق البيوت
والبحار، يطير بهما فوق رؤوس الرجال، لا يمكن لرأس واحد
منهم أن يعدو فوق رأسه

أبوه يأخذه معه إلى الجامع، يركع مثل أبيه ويسجد، يحمد

الله لأنه حقه ولد، وبس بش، إن مدعه دبور أو نحلة يكي،
يهزه أبوه

- إس رجل إزي تعيط ربي السوان؟

يحشي في غرفته يكي إن صريه التلاميذ في المدرسة، يتفحص
خوفاً من الصرصر والجردان والسحالي، يمشي بين أرجال قصير
القامة صليل الجسم، يشعر بالنقص بين المذكور، يحتلج بين الإناث
بالمرور، يحشي فوق الأرض بخطوة الرعاة، يرى نفسه محمولاً
فوق الأعناق.

أخذه التلاميذ يوماً إلى المرحاض، خلعوا عنه البنطلون
والسروال، وبالمسطرة فاسوا قضيه بالمليختر، ضربوه على قفاه،
صاحوا صاخرين:

- ده زقارة!

على حائط المرحاض كتبوا اسمه بالطباشير:

- أحمد الدامهيري أبو زقارة!

تمددت صفاء الظبي فوق الأريكة، عيناه مقلوبتان تحت
الجمون، شفتاه ترتعشان، عضلات وجهه متقنصة، كأنما تم
تسليط تيار كهربائي فوق رأسه.

الطبيب النفسي جالس إلى جوارها، يحقن في الوريد سائلاً
مهدئاً، يربك كتفها بيده الحادة الدعة، يهمس في أذنها بصوت
الأم

الأزمة خلاص راحت يا صافي، إنهيار عصبي حفيف،
معيشي وتاحدي غير.

يصحك الضب النسي بصوب الأطباء، يرن صدى الضحكة
المعدي في انفراد المعلقة نصف المظلمة، متأثر حريرية فوق
السابعة، ثقافة رفقة، تكسب المكاب صوةً خالماً، يتأرجح بين
النيل والنهار، بين اليقظة والحلم، بين الرعي والآوي.

تفتح صفاء الطغي عبيها على صدى ضحكة، معدنية جافة
خالية من المشاعر، كالألة الحاسبة، آلة معدنية تدق فوق لوح من
الحشب أو السحار، تظللها ضحكة روجها الماركسي أو
الإسلامي، تخلط صفاء دائماً بين الراجين ورجال آخرين مزو،
بحياتها، كانت لهم هذه الضحكة، انفرجت شفتاها عن صوت
متحشرج فاصب:

- يتضحك على إيه يا راجين؟

- فرحان إنك مرتيني بالأزمة والحمد لله.

- أزمة إيه؟

تشسع حينها المندحشان حين ترى الطبيب داخل معطفه
الأبيض، وهي ممدودة فوق الأريكة، مبللة بالعرق، إلى جوارها
فوق الأرض جردل كبير تفوح منه رائحة فيء، رأسها ثقيل، لسبها
أنقل من رأسها أطرافها كأنما مملوءة بأكيس من الرمل، تحركها
بصعوبة

- هو حصل به يا دكتور؟

- إنهيار عصبي حفيف، إنهيار، والحمد لله

- أرجوك يا دكتور بلاش الجمعة دي

- جملة إيه؟

- الحمد لله

- يا خير؟ مش عاوده تجمدي ربنا؟

- أحمدده على إيه يا دكتور؟

- إنه أنك من الموت.

- إنت يا دكتور اللي أنقادتني، مش هو،

- خلاص نسيتي ربنا يا صافي؟ من نص ساعة إنتي ما نطقت

كلمة واحدة إلا يا رب يا رب!

- أيوه من نص ساعة، لكن دلوقتي الساعة كام؟

- الساعة ستة ونص

- الصبح أو بالليل؟

أهلق جفونها وراحت في الغيبوبة، قلب العصب بآطراف

أنامله جفنها، جس نبضها، مسح جبهتها بقطعة من الشاش الأبيض

مبللة بالكحول اللقي.

- الساعة ستة ونص بالليل يا صفاء

انفتحت جفونها كاشعة من مقلتين مدهورتين، لونهما أسود

أدكي، بياض العين كبير جاحظ تشويه سحرة باهتة صفراء، ارتفع

بصفها الأعلى نهيم بالهولوس.

يا خير يا دكتور كان عهدي معاد مهم الساعة خمسة.

- أهم حاجة دوسعي هسكتك، ما عيشي حاجة أهم من

الصحة

- العلوس أهم من الصحة يا دكتور، والفلوس راحت خلاص

- الصحة تجيب الفلوس يا صافي

- والعلوس تجيب الصحة، فلوسي راحت يا دكتور، أدفع لك ميس يا دكتور؟ وإيجار الشقة؟ والأكل والتاكيات والسجائر؟

- انتي استاده في الجامعة وماهيتك كبيرة.

- كان زمان يا دكتور قبل الوقت الافتتاح والديمقراطية..

- انتي مع العلاقات يا صافي وللكاتوريه؟

- يا دكتور فلوسي راحت كلها في الزمت البسك الإسلامي، كلهم حرامية يا دكتور كلهم بتوع الإسلام، وبتوع الانفتاح، رأي اللي قبهم بتوع الاشتراكية

- استاذة مثقفة زيك يا دكتور صفاء، إزاي تعطي فلوسك في شركة من بتوع توظيف الأموال دول؟

- فالولي الربا حرام، لكن أرباح توظيف الأموال حلال، وصحيح يا دكتور بركة ربنا حلت في العلوس، كنت بافيس عشرين في المئة لو ايد، لكن كله راح، العلوس بالموايد، وكل حاجة.

فلعلم صعاء الطيبي خذها وتولولك مثل النسوة وراء بعض الميت، تكلي بغير دموع شبحاً حرقاً مشروحاً معرقاً مضطعاً، تعلق حصونها وفتحها، تام وتصحو، ثم تنام، ثم تصحو، تواصل حديثها المتقطع المحرق المبعثر في الماضي والحاضر، المتأرجح منس الوعي والآوعي.

- أكبر كارثة يا دكتور ضياع الفلوس، شفا عمري كله يصعب كله في غمضة عين؟ عمري ما جالي انهيار عصبي أبداً أبداً ياما شفت كولوث في هيشني المهشه، ولا يمكن عرفت حاجه اسمها انهيار عصبي، لما اكتشفت إن حوري يحوي قلت له روح في سني داهية، وكسرت وراء قلة فديمة.

- جوزك إتهو يا صافي، الماركسي أو الإسلامي؟

- مش فاكدة يا دكتور ميس قبهم، كانوا شبه بعض لي كن حاجة، في الشغل السري، تحت الأرض، في النشاط السياسي، وفي النشاط الجنسي، شبه بعض في كل حاجة حتى الحياة والكذب والمراوغة، وحش السرية والتحفي، وإخفاء الفساد بالنشوق بكلمات كبيرة أوي، تحت اسم ربنا الله، أو ربنا كارل ماركس، لكن الراجل الماركسي كان حرم أكثر من الثاني الإسلامي، بتوع الماركسيه واهين مدربين ع السرية واللوع، لكن بتوع الإسلام أغنيا ومكشولين، الراجل الثاني الماركسي كان واهي زي الحصوة، عاش معاها تسع سنين يخوني كل ليلة مع واحدة ثانيه وأنا مش ظريانه، لغاية ما واحدة صاحبتني غريشلي تدفون، قالتلي جوزك يا صافي عبده شق في شارع رمسيس، كنتلي العموان على ورقة جورنال، وأحدث تاكسي، طبعث الدور الثالث من غير أسانسير، وقعت أنهج فصاد ابيات، دقيت الجرس ون رن رن، إفتح يا سمسم، انفتح الباب، بقيته قصادي، هو جوزي الماركسي بلحمه وشحمه، أصره من ملبون راحل، عشت معاه في سرير واحد تسع سنين، كان لاسي بيجاما جديدة ملونة من الحرير، لونه أصبح أصفر رني اللعونه، وقعت وراء طعن عمره

ثلاثة أو أربعة سمين مش عارفة يمكن خمسة، الولد منك بيد أبوه
وقاله - يا يا باب ميب الست دي؟

واحدة عيري يا دكتور كان ممكن يجيلها انهيار عصبي، لكن
أبدأ، رفعت عيني في عينية وقلت له -

- إراني نعمل كده وإنت راجل بتاع مبادئ، تعرف قال إيه يا
دكتور؟

- قال لك إيه يا صافي؟

- قال لي إزاي نتجنسي علي؟ مش عيب عليك وقتي
أستاذة جامعة محترمة؟ بصور الرقاقة والجاجة يا دكتور؟ طبعاً
خلعته من حياتي ري ما باجمع الجرمه يا دكتور، لا انهيار عصبي
ولا يحمرون، لكن طبعاً تسع سنين مش حاجة هتبه يا دكتور،
أحببت كنت أصحى في قصر الليل من عز النوم، أمد إيدي على
السرير العريض، أفتح جفوني، ألقى السرير قاضي، جاني لرق
سمين، لا يمكن كنت أنام إلا بالحبوب الحنونة، وإن نمت أحلم
أحلام مرعبة يا دكتور.

- أحلام مرعبة زي إيه؟

- كنت أسك السكينة وأخرج في الشارع، أمشي في الليل
وأن ديمه، أدور على ناكسي ما لفيتش، أمشي وأمشي على رجلي
لغاية شارع رمسيس، أطلع الدور الثالث من غير أساسير، أدق
المجرس، يفتح لي الباب لابس البيجاما الملونة الحريري، زواير
البنطلون مفتوحه، زواير الكسوت مفتوحه، أهرز السكينة في بطني،
في الباع ساعه ألتي حاتي بيه، أقفله بالسكينة، ألقه في ورقة

جورنال، ولوميه في القيل، وارجع البيت ماشية أنسم هوا الليل
الليل.

تعلق صعاء الطيب جفونها، بيدو هديها الإرهاق الشديد،
يمسك الطيب النفسي يدها في يده، يقول بصوت حنون في
أذنها:

- إنتي يا صافي إنسانة عظيمة، أستاذة عندها عقل، أي امرأة
عندها عقل لا يمكن تجد الرجل اللي يستحقها، كل الرجالة
ورق، كلهم مرصى، كذابين مسافقين مردوجين، وأنا واحد منهم،
إني أستاذة كبيرة لكني أسك ومؤلمة ومصبية في الجامعة،
للعلموس تروح ونيجي، الراحل يروح ونيجي، كل شيء يروح
ونيجي إلا عملك وشغلك وكتابك وصحك

- لكن العلموس يا دكتور؟ شفا العمر كده؟ علي موحوع على
العلموس، جسمي موحوع، أرجوك يا دكتور إمست إيدي، عاوزه
أقوم ألق على رجلي.

صاعدها الطيب النفسي على السهوه، صارت خطوة أو
خطوتين متأرجحة، كادت تسقط لولا أن الطيب حوّلها بذراعيه،
وجدت نفسها في حضنه، تدفن وجهها في صدره وتبكي، تتشجج
باليكاء وهي تحوطه بذراعيها، تغلحبت ساقها، سقطت فوق
الأريكة وهو معها، جسدها نصف الواعي ينتعش، شيء في
أحشائها يرتعش، رغبة قديمة دفينه منذ الطفولة، لذة عارمة
نجاتها لم تعرفها، تريد أن تعرفها، تستبد به الرهبة في المعرفة،
ثم يسحبها رجل واحد المعرفة، استبدت بها الرعدة وعقدت نصف
عائبة، زحفت شعها بالمحموم مال فوق صدره وصفه وشعبه،

أمكنهم بشعتهما الساحنين شعنه باردتان محايدتان، لا تسري
فيهما الحرارة، لا يصدحا ولا يشجعا، يترك معه بين دراعيهما،
يترك جسده تحت جسدها، يتركها تعلق أوراره، يستسلم لها وهي
تأخذه كما يأخذ رجل امرأة

قبل أن تخرج من عيادته أمسك يدها في يده، طبع فوق
خدها قبلة امتنان.

- أشكرك يا صافي.

- على إيه يا دكتور؟

- مش عارف.

- بالعكس، أنا اللي أشكرك يا دكتور.

- على إيه يا صافي؟

- أول مرة في حياتي أشعر بالراحة، كائني.....

كائني كنت... كنت شايه جبل، مش عارفه إيه هو، جبل ثقيل
مش عارفه ليه، لكن خلاص الشغل راح، حاشه يا دكتور إن
جسمي أصبح خفيف زي الريشة وعندي قوة أهذ جبل

تبحث بدور الذمهوري عن روايتها في كل أدراجها، الرواية
ضاعت منها دون أن تكتمل، تبخرت في الهواء كأن لم تكن، لم
يعرف طريق «رواية أحد» إلا روحها، ركبة الحرنيتي، يرمعها حين
مكتوب بحسده، يعار من عقلها وعروها على الورق، لم تكن تقرأ
عليه ما تكسه، لا تسأله رأي في كتاباتها، كانت واثقة بنفسها إلى

حد العرور، وكان يريد أن يحطم هذا العرور، يطمش شعنتيه حين
يقرأ مقالها المشور في المحلة، ينطرح بإنداء الرأي دون أن تطلب
منه

- مقدك كس ممكن يكون أحسن يا بدور.

- لا ترفع عينيه عن أوراقها، لا تنسبه إلى ما يقرب.

- مش سامعاني يا بدور؟

- سامعك يا زكريا.

- مش عاوزه تسمي رأيي في مقالك؟

- آه عارفه رأيك يا زكريا

- يعني إيه عارفه رأيي؟

- يعني عارفه أفكارك كلها يا زكريا، من مية سنة عارفه

أفكارك، من يوم ما تجوزنا وأن باسمع آراءك، كل يوم باسمعها،
التكرار يعلم الحذر، وأنا مش حمارة.

كان يقرأ لها عموده اليومي أكثر من مرة، يسألها رأيها المرة
بعد المرة، يصيبها الحساس حين يقرأ، قرأته من قبل أكثر من مرة،
يصيبها الحساس رغم إرادتها، يصيبها التكرار بالمدل، يؤكد التكرار
فلاس العقل وإن جاء في كتاب من كتب الله، هذه العبرة لأخيرة
ليست من عندها، إنها عبارة بدئية، بطله الرواية المسروقة، لم
يسرقها أحد إلا زوجها، كان يقول عن بدئية امرأة مافضة هقلاً
ودياً، تصق عبارات خارجة عن دائرة الإيمان، لإعجاز في كتب
«له الثلاثة يتحدور عقلها المعص.

يقبض حررثيل الموت على رئيس التحرير لجلس في مقعده

كان ركرتها الحرثيتي يتألف ذلك اليوم لكتابة هموده عن يوم العيد، جلس طويلاً ممسكاً بالقلم بين أصابعه، يفتش في رأسه عن فكرة، يتصفح الجرائد أمامه، يبحث عن عبارة أو فكرة وردت في عمود آخر يمكنه سرقتها، بعد تحويرها وتلويحها، لإبعادها عما يمكن من الأصل.

ماذا يكتب ركرتها الحرثيتي عن عيد لأصغر المبدل؟

كان العيد في طفولته يوماً سعيداً، يفرح بضحك الحروف مثل كل الأطفال، يصحو في الفجر على الصوت ينادي، جرّار، جرّار

يجري يفتح له الباب، يمست الجرّار في يده سكباً كبيراً، جلبابه الأبيض الطويل مبقع بالدم، بشمر كعب، ينطق السمسم والشهادة والكثير فوق عنق الحروف، بسم الله الرحمن الرحيم، أشهد أن لا إله إلا الله، ثم يضرب العنق بالسكين، تجمد حيا الحروف المسكين، يرى في عيبيه الذعر، والحر، دموع متجمدة تكسو عيبيه، يرفس قليلاً والسماء الغزيرة تدفع من عنقه المقطوع، رأسه يتفص بعداً عن جسده، كأنه يرقص، يهتل الأطفال فرحاً بالعيد، يرتدون الملابس والأحذية الجديدة، يأكلون كبة الخروف المشوية، يذهبون إلى المراجيح، يصطادون العصافير بالنبلة، يسيرون وراء الطفل الأهرج اليتيم يهتلون

- المييط أمه المييط أمه -

بدرته شحمية حباله في رواية يا زكريّا، أنت تتعامل مع
كما لو كانت امرأة حافية

يمطأ شحميه إلى الأمام بهتراً بينهما السيجار الهافاني الكبير يضعه بين شحميه دون أن يشمعه، كما يفعل رئيس التحرير ومحمود الفقي، وأصحاب الأعمدة الأخرى، ما إن يملك الواحد منهم عموداً يومياً حتى يظهر السيجار بين شحميه، يمسكهما إلى الأمام حين لا يحجبه عمود، لم يكن يحجبه من الأعمدة إلا هموده، ولا صورة على رأس أي عمود إلا صورته، يتأملها طويلاً وهو يلعب بإصبعه في أذنه أو أنفه، أو يهرش الشعر فوق صدره، أو أسفل بطنه، أو تحت إبطه

بمشي ركرتها الحرثيتي بحركة تشبه حركة الكتاب الكبار، يشكى عن قدمه اليسرى أكثر من اليمى، كأنما يعاني عرجة حميدة، نسم عن الدمع التذلل المتحتر في المشية، ترتفع كتفه اليمى قليلاً عن الكتف اليسرى، تنحفض الآية اليسرى عن الآية اليمى قليلاً، يمشي والسيجار في محم مطلقاً أو مشتمل قليلاً، يطرق قلباً كأنما في تكبير عميق، ثم ترتفع عيابه نحو السقف كأنهم في شروود طويل مثل الغارقيس في الصكر العميق، إلا أنه سرعان ما يعتدل في مشيته أمام الرئيس أو الوزير، ويحلق السيجار عن شحميه، وتتلأش التكشيرة العميقة والنظرة الشاردة، يصبح مستقيم الساقين والأليتين، منبه الحواس الخمس، البصر والسمع والشم واللمس والتذوق، الحاسة السادسة ألبها تشته، والحاسة السابعة، وهي حاسة لا يملكها إلا من اقترن من أصحاب السلطة والمال والسلاح، مشقة من حاسة الشم، يشم الكاتب الكبير متى

يسخر الطفل الأعرح وهو يجري هارباً، يسقط على الأرض،
يصيحون عليه ويصرخون من الفرح.

- العجل وقع هاتو السكين.

بنكمين زكريا المخرتيني يكتب:

- يا سلام يا قرآني الأعزاء على أيام زمان، كان العيد على
أنما عيد بصحيح، كن الحير كثيراً، وكان الأطفال يفرحون بالسيد
مرحاً حقيقياً يقرأ عموده لزوجته بدور وهي غارقة في الرواية،
تمط شفتيها بامتعاض، تقول لنفسها،

لا يكتب هذا الكلام العازع إلا ملحد استائي، تلعب بليد
مسلد انفسه، ليس عنده رقة ولا إحلس.

منه حموسه تكره ملور الأعاد، حاضة عيد الأصحي، تظلل
عيها الحروف المدسوح في عيها وهي مائة، تطاردها المقلان
الحمرين، برهما داخل المرأة في الصباح، قبل أن تذهب إلى
المدرسة، وفي الليل قبل أن تنام، قراهما في عيني ربة بنت
ربيات، حين يقوى الناس رتبا بسد رمي، حين يتلو الشبح في
الإداعة بعض الآيات من الإنجيل والقرآن والتوراة، يقول إن الله
أنزل هذه الكتب الثلاثة هدى للعالمين، إنها كتب مزلت من السماء
إلى المسلمين والمسيحيين واليهود، أنهم جميعاً من أهل الكتاب،
سوف يذهبون إلى الجنة بعد الموت إن آمنوا بالنبي محمد
والقرآن، وأن سيدها عيسى المسيح ابن مريم، لم يصلب ولم
يقتله البشر، بل صعدت روحه إلى السماء بأمر الله.

تسرب إليها الشك العميق عند الطفولة، مع الإيمان العميق
المحموف بالخوف، في المراجعة بدأت تقرأ، كان نسيم يسألها
هل قرأت القرآن والتوراة والإنجيل؟ كيف تؤمنين بكتب لم
تقريها؟ هل قرأت كارل ماركس وفريدريك إنجلز؟ هل قرأت أبا فز
الحماري والغزالي وابن سينا وابن رشد؟ هل قرأت رابعة العدوية
وابن خلدون والرومي ورباعيات عمر الخيام؟
يضحك نسيم ويقول لها.

- رباعيات الخيام الذ من نيت هم الخيام الأحمر،
أول مرة تعرف بدور طعم السيد الأحمر، كانت في السنة
عشرة من عمرها، أول مرة تقرأ رباعيات عمر الخيام، كثرها منذ
ألف عام،

توقفت عند آيات قليلة من الشعر، أربعة أسات فقط أصادت
ركتاً مظلماً من عطلها:

- أخبرني يا رب، من ذا الذي لم يخالف قانونك؟ أخبرني يا
رب، ماذا يكون هدف الحياة دون إثم؟ وإذا أتت يا رب تعاقبي
بالشر على ما أنا فعلت من شر، فما الفرق يا رب بينك وبين
«عمر الخيام»

احتقرت هذه الآيات الأربعة رأسها، بدأت توجه الأسئلة إلى
الرب، لماذا يا رب خلقتني أنثى، في جسدها غشاء بكارة ورحم
يحمل فترة الإثم وجعلت جسد الذكر حراً؟

حين قرأت بدور المصفحات الأولى من كتاب التوراة تعجبت
أ تكون هذه هي كلمات الله؟ كلمات لا يمكن أن تدخل العقل؟

فتحت التوراة وقرأت

فأوقع الرب، إله سائناً على آدم فسد، فأخذ واحداً من أصلاعه وملاً مكانها لحماً، وصنع الرب الإله من الصنع التي أحدها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم، هذه الآن عظم من عظمي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنني من امرئ أخذت

وكانت الحية أحياناً جميع حيوانات البرية التي جعلها الرب الإله، فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكل من كل ثمرة الجنة لا تأكل من ولا تمسه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة لن تموت، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتتح أعينكم وتكونان كاله عارفين الخير والشر

وقال الرب لأدم هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها، فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت، فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت، فقالت المرأة الحية أهرتني، فقال الرب الإله للحية لأنت فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وترباً تأكلين كل حباتك، وأصعب عداوة بينك وبين المرأة وبين سبيلك وفلسها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة تكثيراً أكثر أعذاب جعلت، وبالوحي تدبير أولاد، ولأن رجس يكون أشبهت وهو يسود عبث.

وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد من عبادي

الخير والشر، والآن نعلنه يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرج الرب الإله من جنة عدن وحدث لهما ابتداء الناس يكثرون على الأرض وولد لهم أولاد وبنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حساسات فاتحدوا لأنفسهم ساة من كل ما اختاروا.

كان في الأرض طاعة في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولد لهم أولاداً.

وقال الرب بل يكون اسمك إبراهيم، لأنني اجعلت أبا لجمهور من الأمم، وأثرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربيك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم. وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ولنسلك من بعدك، يحتن منكم كل ذكر، فتختشون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم، ابن ثمانية يحتن منكم كل ذكر من أجيالكم ولید البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك، يحتن تحتاً ولید بينك والمبتاع بفضة، فيكون عهد في لحمكم أبدياً، وأما الذكر الأعلم الذي لا يحتن من لحم غرلته فتقطع ثلث النفس من شعبه، إنه قد نكث عهدي.

كانت تدور تقرأ كلام الله في كتاب التوراة، تقول لنفسها ما هذا الكلام؟ كيف يكون عهد الله في اللحم؟ يقطع حرم من

الجسد؟ كيف يمح الله أرض كنعان أو فلسطين لجيش من الغزاة
الذين مغاس العهد في لحمهم؟^{١٤} كتب بأمر المرأة بأن تشتاق
لزوجها وهو يسود عليها، وبالوحي تلد أولادها، وكيف تزوج أبناء
الله من سائر الناس؟ لماذا يكون كل نسل الله من الأولاد الذكور؟
كيف يلد الله في كتابه الأول السورة ثم لا يلد ولا يولد في كتابه
الثالث القرآن؟

تفتح بدور كتاب الله الثاني الإنجيل، وتقرأ فيه كلاماً يشبه
كلامه في كتابه الأول مع اختلافات قليلة، الله هو الله الذي
يفضل الذكور على الإناث، مريم العذراء ولدت المسيح من روح
الله ذكراً وليس أنثى، هو المسيح ابن الله، يحذر الله في الإنجيل
من المرأة الزانية.

هذا يقول ابن الله الذي له حينان كلهيبي بار ورجلاه مثل
التمحاس النقي، أنا عارف أعمالك ومحبتك وخدمتك وإيمانك
وعصرك وأن أعمالك الأخيرة أكثر من الأولى، لكن أنك تسبب
المرأة إيزابيل التي تقول إنها بيعة حتى تعلم وتقوي عيدي أن يرموا
ويأكلوا ما ذبح للأوثان، وأعطيتها زماناً لكي تتوب عن ربها ولم
تتوب، ها أنا أنفها والذين يرمون معها في ضيقة عظيمة إن كانوا لا
يتوبون عن أعمالهم، وأولادها أنفهم بالموت، فستعرف الكنائس
أنني أنا هو العاصي نكلي والقدوس، ومن يغلب ويحفظ أعماله
إلى النهاية سأعطيه ملهناً على الأمم فيعصمهم بقضبي من حديد
كما تكسر آية من حروف

ثم جاء واحد من الملائكة للبيعة للذين معهم الجملات السبع

وتكلم معي قائلاً لي هل لم فأريك دسونة لرمية العظيمة الحاسنة
على الحياة الكثيرة التي ربي معها ملوك الأرض وسكر سكان
الأرض من خمر وناها، فمضى بي إلى بركة هرايب امرأة جانية
على وحش قرمري معلو أسماء تجديف له سبعة رؤوس وعشرة
هروء، والمرء كانت منسربة بأرجون وقرمر ومتحنيه بذهب
وحجارة كريمة ولؤلؤ ومعها كأس من ذهب في يدها مملوءة
رجاسات ونجاسات رباها وعسى جبهتها اسم مكتوب، يابل
العظيمة أم الروائي ورجاسات الأرض، ورأيت المرأة سكرى من
دم القديسين ومن دم شهداء يسوع.

الرؤوس السبعة هي سبعة جبال عليها المرأة جاسنة، وسبعة
ملوك سقطوا وواحد موجود والآحر لم يأت بعد.

ثم قال لي المياء التي رأيت حيث الزانية جالسة هي شعوب
وجموع وألسنة وألسنة، وأما العشرة قرون التي رأيت على الوجه
فهؤلاء سيمضون الرائية وسيجمعونها خربة وهريانة ويأكلون لحمهم
ويحرقونها بالنار، وصرخ بشقة بصوت عظيم قائلاً سقطت سقطت
يابل المظيمة وصارت مسكياً لشیاطين ومعرساً لكن روح نجس
ومعرساً لكل طائر نجس وممقوت، لأنه من حمر غضب رباها قد
شرب جميع الأمم وملوك الأرض رسوا معها، بقدر ما وجدت
نفسها وتنعمت بقدر ذلك أعطوها عذاباً وحرناً، لأنها تقون في
قلبها أنا جالسة ملكة والسب لرملة ولن أرى حرماً، من أجل ذلك
في يوم واحد سنأتي ضربانها موتاً وحرناً وجوعاً وبحرق يدسار،
لأنه الرب الإله الذي يديها قوى، وسيبكي ويسوح عساها ملوك
الأرض الذين زنوا وتنعموا معها.

والقدرة لموت إنها لأن أحكامه حق وعادلة، إذ قد دان الرابية
العظيمة التي أفسدت الأرض برناها

ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه
يدعى أمياً ومصدقاً وباعدل يحكم ويحارب، وعينه كلاليب نار
وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو،
وهو متسربل بثوب مغموس بدم، ويدعي اسمه كلمة الله،
والأحياء الذين في السماء كانوا يتعبدونه على حبل يقص لاسين برآ
أبيض ونقيّاً، ومن فمه يخرج سيف ماص لكي يصرّب به الأمم
وهو سيرعاهم بعضاً من حديد وهو يدوس معصرة خمر يسحق
وغضب الله القادر على كلّ شيء، وله على ثوبه وعلى صدره اسم
مكتوب ملك الملوك وربّ الأرباب

تلهث بدور وهي تقرأ الآيات في كتاب الله الإنجيل، لا
تعرف ما كلّ هذا العناء للمرأة الزانية التي شرب من خمر زناها
ملوك الأرض والحرب الممونة الطاحنة في السماء والأرض بين
هؤلاء الملوك والمرأة الرابية العظيمة عند الملك الجديد، ملك
الملوك، ورت الأرباب، الذي على صدره وثوبه مكتوب اسمه.

ثم رُفِعَ بدور ضد آية من الإنجيل تحكي عن ياجوج
وماجوج،

ثم مني محلّ لألف سنة يعمل الشيطان من سجنه ويخرج
سببّل الأمم الذين في أربع روابيا الأرض ياجوج وماجوج
ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحرة فصعدوا على

عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر العقليين والمدينة المحسوبة
فترلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم، وإليس الذي كان
يصلّهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والسبي
الكذاب سيحذون نهاراً وليلاً إلى أبد الأبد

ترتجف بدور من هول الحرب والنار وصعد الدماء في كتب
الله الثلاثة، الكتاب الثالث القرآن ترد فيه الأسماء ذاتها ياجوج
وماجوج وإليس والنار الحارقة لمن لا يعبدون الله، يخاطب الله
الذكور الرجال في القرآن، لا يخاطب الله النساء، يخاطب الله
أسماء النساء في القرآن، لا يذكر اسم حواء، ويقول عنها زوجة
آدم، وامرأة العزيز التي أخوت سيّدنا يوسف لا يذكر اسمها، ولا
السيدة خديجة زوجة النبي محمّد، لا يرد اسمها في القرآن على
الإطلاق، فقط مريم العذراء أم سيّدنا عيسى المسيح، ذكر الله
اسمها وخصّص لها سورة كاملة باسمها هي سورة مريم

يحرّضها نسيم على التمرد ضدّ الله، يقول لها كيف تؤمنين
بإله لا يخاطبك ولا يذكر اسمك، ويجعلك تابعة لزوجك، وفي
كتبه الثلاثة لا تحظى النساء بما يحظى به الرجال المذكور؟

كانت بدور في الثالثة عشرة من عمرها، تتمرّق بين حبّها
لنسيم وإيمانها بالله والقرآن والإنجيل والتوراة، قبل أن تسم تمنح
القرآن وتقرأ:

ويألفونك عن المحييين قل هو أذى ما عرلوا النساء في
المحييين ولا تقربوهنّ حتّى يظهروا،

سأزكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم، والمطلقات
يرتضن بأنفسهن ثلاثه فروع ولا يحل لهن أن يكس ما خلق الله
لهن أرجامهن ويصرفنهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا
إصلاحاً، ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن
درجة، فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره.

توقفنا بدور عدد هذه الآية، كانت حالتها قد طُفقت من
زوجها ثلاث مرات، ثم أراد زوجها أن يردّها إليه، فقال له
المأدون، لا تحلّ لك رجعت السافرة أو طُفقت حتى تنزوّج
رجلاً آخر، يستوفيه المحلل، ثم بعد ذلك يمكنك أن تزوّجها بعد
أن يطلقها هذا الروح الموقّت المحلل.

كان عمره عشر سنوات حين رأت حالتها تبكي طوال الليل،
تسمعها تحاطب الربّ يا ربّ فين العدل؟ ليه البهيلة دي يا ربّ؟
جوزي يطلّقني على كعبه ثلاث مرات، في كلّ مرة يردّني، بعدين
يطلّقني، بعد السرة الثالثة هناك يردّني لازم أقام مع راجل
عريب، يوم أو يومين أو بض ساعة، بعدين يطلّقني هناك جوزي
يردّني له؟ أنا يه يا ربّ؟ مسحة يدوس عليها الرجل؟ المفروض
تعاقب جوزي اللي يطلّقني على كعبه ثلاث مرات مش تعاقبي أنا
وتفرّض عليّ إني أدم في فراش راجل عريب، اسمه المحلل، فين
العدل يا ربّ؟

قرأت بدور أيضاً في القرآن:

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم
استوى على العرش.

هذه العبارة ألا نشه ما جاء في كتابه التوراة؟ ولماذا ستة أيام؟
ويحاطب الله رسوله في القرآن قائلاً:

يا أيها النبي إنا أحللقنا لك أرواحك اللاتي أتيت أجورهن وما
ملكك بميلك ممّا آفاه الله عليك وبنات هنك وبنات عمتك
وبنات خالك وبنات أخلاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن
وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون
المؤمنين.

تقول بدور لنفسها

- لماذا كل هؤلاء النساء للنبي رسول الله؟ المفترض أن
يكون النبي أكثر حقّة من الرجال الآخرين؟ المفترض أن يكون
النبي مثلاً أعلى للرجال في الإخلاص لرفعه حياته، وقد أحصى
النبي محمّد لزوجته الأولى خديجة عشرين عاماً، ثم يعاشر امرأه
أخرى حتّى ماتت، فلمّا بدأ يتغيّر موقفه من الإخلاص الروحي بعد
وفاة السيدة خديجة؟

بعد أن كبرت بدور وتزوّجت ركبتي الخريبتني، أدركت لماذا
يقترن زوجها بخاناته الجنسية، كيف يتسلّل من فراشها إلى نساء
أخريات، فإن ضبطته يشرح في وجهها بيده قائلاً:

- ده حقّي ربنا إذا هو لي ويحيي جوزك حيكون أحسن من
النبي؟

معد اكتشمت حانته الأولى لم تعد بدور تطيق أن يلامسها

زوجها منه، فقال نال أن ترقد تحته ليدخلها؟ كان مظهر جسده العاري يبعث فيها شعوراً بالغثيب، تركه غارياً في السرير لندخل إلى الحمام، نقيّاً بصوت مكوم، نحس أن يسمعها، في أحماقها خوف دفين منذ الطفولة لا تعرف مصدره، في أحماقها مرور من زوجها وشكّ فيه، ومن كل ما يقوله لها، إن قال لها إنه خارج لحضور اجتماع أو مؤتمر، تدرك أنه ذاهب إلى ليلة حمراء مع إحدى النساء أو البنات، منذ ولدت تسمع النساء من حولها يرقدن:

- يا مأمنة للرجال يا مأمنة للنميمة في الخورمال.

تقلب بدور في السرير مؤرقة.

كيف تستمر في الحياة مع روح خائى؟

- كيف ترقد إلى جواره في سرير واحد؟

هي كذبت عليه مرة واحدة، هو يكذب عليها كل يوم على مدى عشرين عاماً، ثلاثين عاماً، مائة عام.

هل عرف أنها كذبت عليه؟ أنها أحببت سيم وهي في التاسعة عشرة من عمرها، سارت إلى جوارده في المظاهرة الكبيرة، فتح عينيها على الظلم فوق الأرض وفي السماء، أزعج الغشاوة عن عقلها، مسح جسدها اللذة المحرمة، قطعت معه الثمرة من فوق الشجرتين الأثنتين، شجرة المعرفة وشجرة الحياة، أصبحت مثل الله هادئة الحبر والشر، الخير هو العدل والحرية كما قال لها سيم، والشر هو الظلم والقيود.

لم تكسر بدور قيوده، تقلب في فراشها مؤرقة، الممفلتان في

وجه المولودة كالقدي في عينيها، منذ أن انصهت الجمود المعنقة، منذ أن أطلقت عنها في تلك اللحظة الساقطة من الرحم، البخارفة لقانون الطبيعة، حصلت فيها المفلتان بهذا الضوء الكاشف، رأت بدور نفسها الجبانة، قلبها النازف فوق الرصيف، كبدا المتزوج من صدرها المشقوق بالسكين.

لو لم تمنح جفونها تلك اللحظة لربما نسيها، لربما أصبحت تنام كما ينام البشر، لربما واصلت حياتها ونجاحها في مهنة النقد الأدبي، لربما لم تطاردها بذرة بطله الرواية وصديقها نعيم، هذان الشمنان الجائمان فوق رأس السرير، تراهما بلعجهما ودهما إلى جوارده في الفراش، إن عذراء الفراش تراهما فوق الحذر حياءً يمشي، يروح ويحي، من أول الجدار حتى آخره، ثم يعود إلى أول الجدار، ويمضي إلى آخره، لا يعادر عرفة اليوم إن ماتت، لا يعادر عرفة مكبها إن جلست أمامها الأوراق تكتب، تلوح آيات عمر الحيم أمام عينيها، ما الفرق بين الله والإنسان إذا كان الله يعامل الشر بالشر، بل بشر أقطع وأكثر قسوة، يحرقها في النار إلى أبد الأبدين بمجرد لحظة واحدة عرفت فيها اللذة أو السعادة؟ يحرمها الله من طفلتها إلى أبد الأبدين لمجرد أن رجال البوليس قتلوا أباه قبل أن يوقع عقد الزواج؟ يوزغها الشك في عدالة الله، وبالتالي في وجوده، تفقد الإيمان في النوم، يرهقها الأرق والحزن الدفين المكتوم في أحشائها، تطرد الشك، تعود إلى الإيمان حين تصحو، تدرك أن الإيمان يجلب السعادة مثل الخمر، مثل نبيذ عمر النعيم الأحمر.

في الدرج الأسفل لمكسها كانت نحفي الرجاجة مع دوسه
الرونة، تشرب ثاباً بطرد لحرر، معد الكائن الثالثه يصح عفلها
مفتوحاً على الأذن، نسمع أصوات الآلهة والنياطيس يتجادلون،
يكسر جسدها الفبود، يخلق مع عفلها وروحها في الفضاء الواسع،
تصيح طويلة القائمة رشيقة الحركة مثل بدرة، تكتسب الشجاعة،
تمسك القلم وتكتب فصلاً جديداً في الرواية، حتى نسمع وقع
القدمين فوق الصالة أو صوت المفتاح بدور في الباب، أو نرى
خيل روجها يمشي فوق الجدار، يكاد يشبه خيال الله حين كانت
نراه في طفولتها، يمشي في السماء وراء السحابة، أو خيال إبليس
الشيطان يتحرك فوق رأسه في السرير، مكاد يصعده الصلبة
كالمسمار تحرق بصر قدمها اليسرى، من ماحة اليمن كانت إصبع
الله يحرق بصر قدمه اليمنى، مثل قهيب من الحديد.

حين يسمع منها الطبيب النفسي هذه الذكريات عن طفولتها
يقول لها

- أنت يا بدور تعرضت للاغتصاب حين كنت طفلة، لكذلك
سكربت ذلك شعوراً من الله

- لا لا يا دكتور، لا يمكن أبداً، لم يحدث أن لمسني رجل
في الواقع والحقيقة، إنها أحلامي الأثمة يا دكتور، أبوء، أعترف
أنني اقترعت كثيراً من الأثمة، وأن غارقة في النوم يا دكتور

صوت الطبيب النفسي يسري في أذنها وهي تنقلب في
الفراش، تمد يدها لتضبط على مفنح النور، يتمضج جسدها حين
ترى السرير العريض خالياً من حسد روجها، الساعة الثالثة صباحاً،
تخرج في الثامنة مساءً إلى اجتماع مجلس التحرير في الجزيرة

- أيستمر الاجتماع سبع ساعات؟

فوق الكومبيوتر إلى جوار السرير رأت رجاجة دكته اللون
مكتوباً عليها بالحروف اللاتينية، فاجرا VIAGRA، سي أن
يخبثها في الدرج الأسفل لمكسها، أصبح يسي أشياء كثيرة،
تضعف ذاكرته مع التقدم في العمر، يكبرها بعدة أعوام، يسي هذه
الحقيقة أيضاً، يتصور أنها من عمره أو أكبر منه سناً.

في المرأة رأت بدور الشمرات البيض في رأسها، تتعاهد
حديقة حول العينين، حول الفم، فوق العنق والعضن، تغيرت
عضلاتها، تهذلت، أصبحت أكثر رخاوة كم أصبح عمرها؟

يحجز عقلها عن إدراك مرور الزمن، مدس مدمها في
الباتوفلي الناعم، من أجل نعومة الحياة نحلّت بدور عن حياتها،
عن أظلى ما في حياتها، خرجت بدور من غرفة النوم المعتمة،
الراكدة الهواء، أنفاس زوجها ترقد في الأركان مع رائحة معجون
الحلاقة والكلونيا الشمية ذات الرائحة النفاذة، تبعث الرائحة في
نفسها العتيان وتصوره عارياً بين ذراعي فتاة تصعره بحمسين عاماً،
أو مائة عام، لا يستصعب فقسيبه إلا مع البنات الفشحات، أو
مومسات يتصنعن الغشم

تمشي بدور في النوم كما تمشي في اليقظة، تخرج من الغرفة
المعتمة إلى الهواء والشمس، تمشي نحو زينة بست زينات، نحو
الحديقة، ليس نحو حلم أو خيال، أو أسطورة، ترى نفسها تمشي
نحوها، تبتار الممر الطويل بين مقعد و خشبة المسرح، تمر

طويل يبدو لامهائياً، يصبره الهول البارد من كل جانب، ووهور
دبلت في الأحواض على الحديس، وأشجار ماتت واقعة، أصبحت
نحسرتها أقل خضراً تشوب الصفرة.

تتوقف بدور فجأة عن السير، تنظر خلفها، ترى الحواء
والظلمة وراء ظهرها، وبرودة الهواء والخوف، تستدير تنظر
أمامها، حيث الأضواء، وزينة بنت زينات تعزف وتغني، وترقص
على الإيقاع، ثم تلاشت لأضواء فجأة، تسمع الأصوات تدوي
مثل الاتعجرات أو طعنت الرصاص. نظلم الدنيا، نفسي وتظلم،
تقطع الكهرباء وهي لم بعد هناك، تبحث عنها في النوم وفي
البقعة، في الأرقعة، فوق أرضعة الشوارع، تسمع الرصيف من
الرلد والظروب، تفرش تحبها العطاء، تلفها بالبطانية الصوف
الرفاء، تعطّيه، تحمّوها من برد الشتاء، تتركها لتمضي في
الظلمة، تسحب إصبعها المبه من بين أصابعها الصغيرة،
أصابعها الدفينة الحمس قائمة على إصبعها الكبيرة لا تريد أن
تترك هذه الإصبع وإن عانت في النوم، لا تريد أن تفتح جفونها
لتراها وهي تبعد وتبتعد وتبتعد حتى تصبح نجمة في السماء
البعيدة.

كيف انفصل جسدها عن الرصيف؟

كيف أصبح لها قدمان تسيران وتسيران بعيداً عنها في الليل
مثل الخيال؟

تكمي بدور فوق الأوراق تكتب، تهمس بدوية في أذنها-

- أنت جبانة لا علاج لك من الحزن إلا الكتابة، لا علاج
لك من الألم والحرن إلا الحروف على الورق، بالحبر الأسود أو
الأزرق أو الأحمر، أرفي دمك فوق الورق يا بدور، شقي صدرك
بالسكر وافتحي قلبك، لن يسهبك إلا السكين يشق صدرك، لا
تحبسي الدموع في بطنك، أطلقها إلى الخارج كما تطفير صوتك
وأنت تصرخين، أطلقني صرختك في وجه الله والشيطان، لا
تحبني الموت ولا ملو جهنم، تكلمك الجحيم فوق الأرض.

تترنح بدور وهي غارقة في النوم، ينقطع صوت بدوية، هل
أد يختفي، تدوب بدوية في الليل كأنما لم تكن، يدوب معها
الحبر فوق الأوراق، تتلاشى الحروف، فصيح الصفحات بيضاء
بيضاء، يلتصق البياض بعينها فلا ترى إلا السوداء، بحر باتي
والاكتئاب، تكلم بدور بصوت حل في النوم، لأن لا أحد هناك،
ولا هي نفسها هناك.

- أنا غير موجودة مثل الله

تكلم بدور نفسها، تقول لنفسها-

- أنا ماقلة أدبية، لست روائية، أنا لا أجد إلا مسع أحذية
الآخرين، مهنة النقد الأدبي مثل تلميع الأحذية، اعتزلت في لقاء
صحمي أنني أشعر بالفخر حين أسمع حذاء زوجي، وكسبت
الأصوات في انتحابات الجامعة، وخسرت صوت نفسي، فقلت
قلوني على الكتابة، وانكسر قلبي مع انكسار قلبي.

لم تكن بدور تكلم نفسها، كانت تكلم طيبها النفسي، نحلط

بين نفسها وبين طسها النفسي، تستغل من سرورها إلى الأريكة في العيادة بمحضوات بطبشة حذرة. كما تمشي في النوم، تخشى السقوط فجأة إن أدركها الوعي، لا يتمير جسدها ما لو هناك، جسدها المربع القصير السمين، تحلله عنها في الكتابة، لتأخذ جسده بدريته الطويل الرشيق، بشرتها بتغير لونها حسب قوة الكهرباء، تسأله دون رحمة صبوريتها في المرأة، تلخص دليل إبعادها، تتجسد معها أمام عيها، لن يغلها من نفسها إلا مزيد من السقوط في هوة الكتابة.

لكن الحبر لونه أبيض، لا تظهر الحروف فوق الصفحة البيضاء، يلتصق البياض بعينها المفتوحتين حتى آخرهما، أصبحت بدور ثنام بعينين مفتوحتين، مثل حيوان ليس له جفون.

- يا دكتور هذا المرض المزمن هو حياتي، لن يشهني إلا الموت أو الكتابة.

- اكتب يا بدور، ما يمنعك من الكتابة؟

- لم يخلقني الله لأكتب يا دكتور.

- أعودين إلى الإيمان بالله يا بدور؟

- الإيمان يحميني من الكتابة يا دكتور، لأن الله خلقي لأرقد تحت روعي وأمسح حذاءه، لأدلك قدميه بالماء الدافئ، وأغسل جوربه النتر بالصابون المعطر، وأترك له جسدي يصب فيه ماء العطن و

- أنت تقوين هذا الكلام منذ تزوجت يا بدور، كم سنة

الآن؟

من عارفة يا دكتور يمكن ميت سنة

عشرين سنة؟

- أكثر يا دكتور، وكل يوم أقول نفسي ليه أنا عابشة معه؟

من قلادة أخذ قرار حاسم يا دكتور، صافي صديقي أشجع مني، تحلصت من كل لزوجها وعابشة حرة، وبكرة أشجع مني

- بدرة؟

- كانت معانا في المدرسة الابتدائية، كنت نقول عنها ست

رتة، ونكتب اسمها بالطباشير في المراهض

وتشد بدور جفونها وتصحو، تحتفظ الصور والأسماء في

خيالها، لا تعرف الحقيقة من الخيال، جسده ممدود فوق

الأريكة، يتأمله الطبيب النفسي بإشفاق فوق الأريكة ذاتها كان

زوجها ركبنا الحرتيني ممدوداً، يشكو للطبيب ألامه وأحارانه،

ولتهما مجدة تنذرت أيضاً فوق هذه الأريكة، تمنع قلبها للطبيب

النفسي، تتحفف من وطأ الإثم، وصافي صديقة بدور، والأمير

ذاته، أحمد الذامهيري، الذي تمذد فوق الأريكة، حكى للطبيب

لوعة الحث من طرف واحد، جحيم الرعدة في الانتقام، ثم يذكر

له اسمها رينة ست رسات، خشي أن يسبح الطبيب لأمر إني

الوليس

كلهم جاؤوا وتمذدوا فوق الأريكة في عيادة الطبيب النفسي،

أرادوا التحفف من الأسرار اللعنة الجائمة فوق قلوبهم، فعبه

كالبجبال، يفضونها عن صدورهم في أدل الطبيب النفسي، أنه

كبيره مشرفت من وراء الدخان، تشبه أدن الله في صفاته العليا، أو أدن القسيس المحطنة من وراء الستار، تتلقى الاعترافات بالآثام من المؤمنين المدبسين المعذبين، والمؤمنات القمذيات المعذبات.

- يا دكتور، إبت عندك كل أسرار البلد، من القمّة للعاعدة، كل الناس من أكبرهم لأصغرهم، كل الأسرار عندك، كل القصص والروايات المعجبة فوق الأريكة.

- ده عوان جميل لرواية جديدة يا بدور.

- أبوه، أبوه يا دكتور، لازم نكتب رواية بعنوان: فوق الأريكة.

- أن مجرد طبيب نفسي، أنا مش روائي، أنا أسمع كوتس، لكن ما اهرش أكتب جواب من صفحة واحدة أو صفحتين، الكتابة موهبة من عند الله، الكتابة نعمة من نعم الله يمنحها لمن يشاء من عباده.

- الكتابة نعمة مش نعمة يا دكتور، الكتابة عذاب وألم ودموع ودم الكتابة صبر طويل وشغل ليل نهار ومهار وليل، الكتابة مرض مرمس يا دكتور، مائوش علاج غير الكتابة، قصدي الكتابة الحقيقية، كتبة الرواية، مش الكتابة في السعد الأدبي يا دكتور، النقد الأدبي ده مهنة طعيليه، ري الديدان الشريطية، تعيش على دم غيرها، على دم الرواية

- إني يا بدور أكبر أستاذة نقد أدبي في البلد.

- كان لازم أقدّم استقالتني من الجامعة، كل يوم أقول لازم

أخذ قرار بالاستقالة من شغلي، كل يوم أقول لازم أقدّم قرار تقصالي عن روجي، كل يوم أصحى من النوم وأقول لمسي، خلاص يا بدور كفاية، كفاية، لازم ناخدي قرار بالطلاق من الزوج ومن النقد الأدبي، لازم نحزري نفسك من الإنيس دول، لآلي كاتمين على نفسك، الإنيس دول يا دكتور سب فشلي في حياتي.

- إني يا بدور أنجح امرأة في البلد، سمعت در على علم.

- أنا فاشلة يا دكتور، أن فشلت في أهم شيء في حياتي.

- وإيه أهم شيء في حياتك يا بدور؟

- مش عارفة، عندي إحساس إني ضيّعت بأمر شيء بحياتي من أجل أشياء نافهة.

- نافهة زي إيه مثلاً؟

- زي مثلاً الكرسي في الجامعة، الاسم بالبنت العريضة في الجريدة، الصورة داخل البروار، شرف العيلة الكريمة، الزوج المحترم العظيم، الميلاً الكبيرة في جاردن سيتي، الأبهة والكلام الفارغ ده.

- وأمر شيء في حياتك إيه؟

- بيتي يا دكتور.

- بيتك مجيدة ما شاء الله كتاباتها في مجلة النهضة شيء

جميل، شيء عظيم.

أطهرت بدور في صحبة طويل، مترددة، حائرة، هل تحكي له سر حياتها الكبير؟ حكّت له كل شيء إلا هذا السرّ الدفين، هل

يحفظ «سر»؟ هن تمتك شجاعة اسرح؟ تريد أن تمصص عن نفسها هذا الحب الثقيل، أن تشفي نفسها من المرح من المرح من العويل، أن تمشي إلى زينة بنت زينات، تحوطها بذراعيها، تأخذ في حضنها، تعترف لها أنها أمها، تطلب منها الصبح والعفران، تقول لها اهفري لأمتك المعذبة، المحنطة بالخوف من الله والسنة الناس، والسنة الذهب في مار الجحيم، في الدنيا وبعد الموت، سامحي أمتك التي تركت فوق الرصيف، فوق عرائش من التراب، ظهرك مُسد إلى الجدار، إلى «سور المظلل على النيل، لفكك بعطاء من الصوف، وغطاء أكبر من ظلام الليل، وقطرات البدى وصيق لصمدع، أضفت عليك اسم ربة، ربة الدنيا وراحت، راحت في ظلام النيل قبل طموع «محر

تصحو بدور من الموم، تحد معها جالسة وراء مكتبها، أمامها «دوسيه الأصغر، مكتوب عنه «الرواية المسروقة».

كم مرة سرفت بها هذه الروبة؟

كم مرة استعادتني وكتبتها ثم سرحت منها؟

ربما هو زوجها ركريت الخرنيتي، لا يرى للمروجة مكاناً إلا تحت زوجها في الفراش، وإن ارتفع قلبها واشتهر اسمها، إن حملت لقب أستاذة، أو دكتورة أو وزيرة أو رئيسة وزراء أو رئيسة دولة، فإن مكانها الطبيعي الصحيح هو فلك المكان في السرير أسفل زوجها، وليس فوقه بحال من الأحوال، إن صعدت لحظة فوقه فلا بد من إعادتها إلى مكانها

يكتب ركريت الخرنيتي في عموده بالجريدة عن تحرير المرأة،

حصل على الحائزة الأولى في عهد المرأة العالمي، كزمه الناس في مصر، أصبح يحمل لقب رائد تحرير المرأة المصرية، التفت حوله الصحفيون يسألون:

«وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة، فمن هي المرأة التي ورائك يا أستاذ خرنيتي؟

«أخي، إنها أختي التي شجعتني على قول الصدق واحترام المرأة

يتصور حول زوجته، الأستاذة بدور يسألونها:

«وراء كل امرأة عظيمة رجل فمن الرجل الذي ورائك يا أستاذة بدور؟

روحي هو الرجل الذي شجعتني على الكس، لولا روحي ما كتبت شيئاً

ثم تسري بدور في ركبتها السعيد المظلم، تكمش داخل حسده القصير المرتفع، يضع نفسها على صمعات، نوحه يصيح العلوم والتويرنج والسياب

«يا كذابة يا جبانة، يا منافقة، هذا الكذب وهذا الجبن وهذا النفاق عناصر ثلاثة هي أصل الداء، هي سبب الاكتئاب، هي مصدر الحزن والعقم، هي سبب عجزك عن الكتابة، عجزك عن مواجهة الحقيقة، هذا العجز، هذا العقم، لا شفاء لك منه، لا علاج له إلا الموت.

تصحو بدور حين تنام بدور، ترأها متكورة فوق السرير إلى جوار زوجها، مكمنة داخل جسدها مثل القنصل، تراودها أسلام

المراقة وهي شمسي هي المظاهرات تهمة، يسمط الظلم بحب الحرية، يحيا الحق، تسلم للحق والحرية، تراودها فكرة الرواية، تحس بها في الليل مثل الحبيب، تلقي بها فوق الرصيف وتجري هاربة، تطاردها الأشباح والخيالات، إصبع إيسر الصلب مثل قصب من الحديد، عين الله المصوغة في السماء الساهرة لا تدم، عين زوجها مصف المعترحة، نصف المعلقة الجفون، يتظاهر بالنوم وهو صاح، أو يتظاهر باليقظة وهو يغط بالنوم.

تهمس بدرجة في أذنها.

يا بدور نحن الحرية هبل، الكتابة لا تأتي من دون الحرية، اكسري قيودك يا بدور، اخرجي من سجنك، هذي يدك تأكلني من الشجرة المحرمة، إن أكلت منها هتن نموني، المعرفة تُحيي ولا تُميت، ستعيشين إلى الأبد.

صوت بدرجة يشبه صوت الحية التي أغوت حواء، كلمة حواء تسمى الحياة الحية، صوت الحياة الحية الذي أصبح يشبه صوت الموت القاتل، ترتعش بدور داخل الغيبوبة، تنفجر شعنها المزمومتان عن هواء مسخن يشبه موجات غوة متقطعة، حروفاً مبتورة بالخوف:

لكن الله يا بدرجة قال لي إن أكلت من هذه الشجرة نموني

هذا هو صوت الشيطان يا بدور ليس صوت الله، وإن كان هو صوت الله فما الفرق بينه وبين صوت إبليس، أنا أكلت من الشجرة يا بدور وأكل معي كل المبدعين والمبدعات في كل

محالات المعرفة، من الفلسفة إلى الأدب والعن والعلم، فامت على أمكارهم كل ما يعيشه من تقدم، لم تأكل في حياتنا ألد من هذه الشجرة، إنها لئله المعرفة، بده الحنة، إنها الحياة الحقيقية الحية، ليس حياتك الرائعة المصية، إن صبعك الله من لدة الحياة الحية فهو ليس الله، إنه إبليس يا بدور، إصبع إبليس المدمر، سلبك حياتك، سرق منك الرواية يا بدور

ترتعث بدور وهي نائمة، تحاول أن تحرك شفيتها وتقول شيئاً. شفاتها ثقيلتان، مصوغتان من الحجر، جسدها قطعة من الصخر ملتصق بالأرض، متكونة حول نفسها كالفنمذ، كالكرة من الرصاص تتدحرج من فوق السرير، تسقط فوق لأرض بصوت يشبه الانعجار أو طلقة رصاص

يصحو زوجها من النوم على لصوت، تنحسر جفونه عن عينين جاحظتين مملوءتين بالدمع، زوجته بدور لم تعد هي زوجته بدور، جسدها الذي كان يجمعهما أصبح يفرقهما، كتاباتها التي كانت تجمعهما أصبحت تفرقهما، وهذه المرأة التي أصبحت تحل جسدها، بدرجة، هذه المرأة الشيطانية التي تلطمها بحر الريبة، وابنتها التي حبلت بها داخل الإثم، بثة الزنى، ربة بيت زينات، ليس ربي واحداً بل عدد لا يحصى من الزنات، وهذه الرواية التي تكتبها هي السوم، صلاي بالأشباح، خيالات تشاءى لها فوق الجدار، ونبت الإصبع نبي تدعج بظفر قدمها اليسرى، إصبع إبليس، وإصبع الله أيضاً، ذلك المصيب الحسبي الذي يدعج بظفر قدمها بسمي، وأن زوجها المؤمن بالله، زوجها بصل الذي أخلص لها ولم يعرف امرأة غيرها، أب ركريا الحرتيني، الحاصل

على حائرة العلم والإيمان، وشهادة حسن السير والسلوك في المدرسة الابتدائية والثوية والجامعة والأكاديمية العليا والمحفل الأعلى للأدب والثقافة، أن ركزنا الحربتي، صاحب العمود اليومي المقروء من ملايير النساء والرجال والشباب، صاحب الكأس الذهبية في عيد امرأة العالم، أن مكسب عتي هذا الهراء؟ تصح لي صورة مرتقة مفرقة، صورة رجل على شكل فصيل حديدي يدخل في أي ثقب، في أي جدار، في أي جسد، امرأة أو رجل أو طفل؟ حتى الطفل الأعرج ابن الشوارع ابن الرنى، لم يسلم من قلمها الجارح الجامع؟

كان ركزنا الحربتي بقرا رويتها وهي نائمة، وأنه بدرة وهو يتسلل في الليل، يسد زوجته غارقة في النوم، يسرق المفتاح من تحت وسادتها، يحشي على أطراف أصابعه إلى غرفة مكتبها، يفتح الدرج الأسفل، يبلذ الدوسيه الأصفر، يمد يده إلى لمبة السور، يقرأ الصفحات البيضاء الملتصخة بحبر أسود، وأوراق وأحمر، وقطرات دم زرقاء وسوداء، وأنهر من الدموع الصفراء تجري بين السطور، وتحت السطور، تخفية غير المقروءة، أو غير المكتوبة بعد، وأنهر من العرق المسائل فوق الحروف، عرق حقيقي له رائحة العرق، يعرف رائحة عرق زوجته، رائحة مميزة، تميزها عن سائر النساء والرجال، رائحة خالية من العطر، أو الكولونيا، رائحة جسد مسبك بالنعيم، مرهق بالآثام والدنس والعجبة، مضرد بالحروف والعصبيحة، جسد قصير مرتع مصدوء بانسجيم حر من العظم

تهدس بدرة في أدمه وهو بقرا

ولعلنا تنعطر روحك لك وأنت تحويها كل ليلة؟ بعدا تنعطر لك وأنت تكرر رائحة العطر؟ لا نجسك إلا رائحة الجسد العطر، الجسد الذي لا يعرف الماء والصابون، الجسد الذي يتر بالعرق والتعب، ولأسي والمحرن، جسد الحاديات المقهورات أو الجوارى والسكرتيرات، بعمص عيونهن وهن تحتك في العرش، لا تقوى الواحدة مهن على أن تصح عبيها أو تثبتهما لحظة واحدة في عبيك، أو تتألف من قبلائك أو كلمائك البديشة، أنت لا تشتهي إلا الكلمات البديشة، تعودت أديك منذ المدرسة الابتدائية البذاءة والاعتصاب

يشوح ذكرنا الحربتي بيده في وجه بدرة، يطردها بعيداً عنه كما يطرد شيخ إبليس.

- أغري من وجهي أيتها الحية الرقطاء، التي أخرجت آدم من الجنة.

لكن بدرة ليست زوجته بدور، ليس لها جسد بدور، لترقد تحت، يخضعها في السرير حين يعجز عن إخضاعها في الرواية، نعضع بدرة حقيقته المخفية في أحشائه، لا تعرف زوجته بدور حقيقته، لا يرح لها بأسراره، لا يروح لأحد بأسراره حتى لنفسه، حتى الطبيب النفسي، لم يعرف أسرارها، كان يؤلف لنفسه أسراراً بريئة، أسراراً مضطعة، وذكريات طفولة لم تحدث إلا في عباله، يكنسها في عموده السومي تحت اسم، النعم والإيمان، وأمانة الكلمة، والصدق، والبوعاء بالعهد، والإحلاص له والوطن والرئيس

يمسح ركبتي الحرتيني دموعه مكفه، يتصبب العرق عرباً فوق
أوراق الرواية، مع دموعه، يحتلظ عرف فوق أوراق الرواية مع
قطرات دموعه، يحتلظ عرفه فوق الورق مع عرق زوجته، كما كان
يحتلظ فوق السرير في لحظات اللذة المستورة الموقفة، والألم غير
المبتور، يهمس في أذن بدرية كأنها هي عيشه الساذجة العريضة،
سكرتيرة المكتب وخادمة السرير.

- زوجني يا حبيبتي لم تمنحني إلا العاسة، أنا زوج نعبس،
لم يبق طعم اللذة في سرير الزوجية، زوجتي باردة يا حبيتي، لا
تهتز فيها شعرة.

يهمس في أذن الخادمة السكرتيرة بكلمات يذينة.

- يا بنت الزنى يا بنت القحبة، أنت أجمل بنات الدنيا
والآخرة، أنت حورية الجنة، أنت العذراء البتول لا تفقد عذريتها
الأبدية، وإن تمرق هشاشها آلاف المرات، وإن اشتعل هود كبريتها
ملايين المرات، أنت ملاذي وغلاصي من المحرم الدفين، أنت
سعادتي وجنتي، خلدي بين فرائيك، بين ساقيك، أذيني العسل
في حُشيتك، ارفعيني إلى سماء الحب والإيمان، واهبطي بي إلى
أرض الجسد المدنس، ضبي لي أذني كدمات الله والشيطان،
تكلمي يا بنت الزنى، يا بنت الزانية، وامشي أذني بالبذاءة لأصل
إلى قنة اللذة.

كان لبدرية أذن مرهنة، أذن معنوجة لا تسام تشبه حسن الله
الساهرة ليل نهار، تلتقط الكلمات قبل أن تنطق بها لأفواه، رتب
لأن مدونة لم يكن لها جسد، كانت روحاً محلقة في الحيال، مثل

روح الله وروح الشيطان، وسائر الأرواح الحفية، كانت مدريته
محزونة فكرة في رأس يدور الناعمة، تراهي ليدور هي يوم، تتلاشى
حين تطوى بجمه انبورا، تسد الرواية تحت موجات الضوء الساطع،
تتلاشى انشغالات جميعاً، إلا ربه ست ربات، كانت الوحيدة
التي تتألق تحت الأصواء، ربما لأنها الوحيدة التي تمسك الحسد
وأني جسد؟ جسدها كان يضم أرواح الآلهة والشياطين معاً، تكاد
تشبه الإلهة القديمة الكبرى، ربة الحبة والموت، ربة المسق
والعضيلة، العاهرة القديسة العذراء، تصاعدت فوق فوانين الأرض
والسماء، ولم يعد لها إله إلا نفسها.

فوق خشبة المسرح كانت تقف بقامتها الطويلة الممشوقة،
زينة بنت زينات، مقلتها الكيثران متوقفتان، مملوءتان بالضوء،
ترتفعان فوق الرؤوس. القاعة مكثقة بالرجال والنساء والشباب
والأطفال، أولاد وبنات العائلات، وأولاد وبنات الشوارع، تدور
عينها على الوجوه، تفقش عن وجه أمها زينات، تراها جالسة في
الصفوف الخلفية مع الخادومات والأطفال اللقطة، تهبط من فوق
المضفة وتسير نحو أمها، تمسك يدها، وتسير بها إلى الصف
الأمامي، تجلسها بسجور الورداء والرؤساء، بجوار الأدباء
والأديبات، والمحاضرين والمحاضرات على جوائز الأدب والعلم
والإيمان، تجلس أمها زينات في الصف الأول، يرتفع رأس أمها
فوق الرؤوس، من حولها فرقة مريم من أطفال الشوارع، الستات
والأولاد، تفردهم أبنة مريم إلى خشبة المسرح، يقفون حول زينة
ست زينات، ترقص وتغني أعينها الحديدة، كثبت أبيتها في العسل
قبل أن يطلع المسجر.

مد طفولتها في الشارع كانت للموسيقى تسري في جسدها مع
أبيات الشعر. هي الهواء المطلق تحت أشعة الشمس كانت تغني
وترقص على الإيقاع، يرقص معها الأطفال البنات والأولاد،
يولدون على الرصيف تحت قطرات الندى، تجففهم أشعة الشمس
والهواء المطلق، لم يعرفوا الإحساس ورواء الجدران الأربعة، تحت
سطة الأب والأم، لم يعرفوا نار الآخرة ولا جنة عدن، يتنوع
بأقدامهم الصغيرة الحافية وهي تعرف اللحم، فعني لهم في الليل
حتى يعلمهم النوم، ينادونها ماما زينة بنت زينات. تسري كلمة ماما
في أذنيها كالموسيقى، تنادي أمها ماما زينات، تأخذها أمها في
حضنها طوال الليل، في الصباح تسير إلى المدرسة مع البنات،
يكسبن اسمها فوق المراحض، زينة بنت زينة، ترفع أبلة مريم
أصابعها الطويلة الرشيقة لتراها كل البنات، تقول بصوتها العالي
الذي يرد في الكون:

“ أصابعها خلقت للموسيقى، زينة بنت زينات موهوبة، ليس
لها مثل بين البنات والأولاد.

تنويع المفلتان الكبيرتان بالبريق، يخرجهما الضوء بسرعة
الذهب، ترمقهما عيون البنات بإعجاب وحسد، خاضة مجيدة
الخرثيثي، صديقتها الوحيدة بين التلميذات، تجذب معروها بقوة
الإعجاب والحسد، وقوة أخرى مجهولة تكاد تشبه قوة قدم،
ملاصحتها تشبهها في المرأة، وملامح أمها بدور الداميري، مع
الاختلاف.

ورثت مجيدة من أمها قصير القامة المرتفعة، والأصابع البضة
العصية الطرية، تنموي فوق اليانو كأنها من العجين، كأنها أصابع

من اللحم دون عظام، ورثت مجيدة عن أبيها ركوب الحرسي
الرغبة في المجد عن طريق الكتبة، دون رغبة في الكتبة

العائلتان الكريمتان الحرسي والداميري لا يتحفظان عن
مشاهدة الفتاة زينة بنت زينات، أصبحت رنة ست زينات فتاة
الجمالير الموهورة في القاهرة، المدينة الكبيرة بمعدودة بين صفتي
الليل من قصصراء الشرفية إلى «مصحراء العربيه» من الذلب
الخضراء إلى الصحاري الصغراء، ترحف الرمل إلى الحضرة
لتأكلها، ترتفع الجدران من الطوب والإسمنت فوق لمرايح
والعيطان، تكتسح الشوارع الأسفلت «محضرة وسابل القمح،
تدوس حوافر البوليس والمجالات يكاوتش نوارث «نقص البيضاء،
يكف الأولاد والبنات عن اللعب بوزت يا قصير السيل، بإحلاوة
حليك يا جميل، تحولت شجيرات القطر إلى أحواد البرسيم تأكله
البهايم، تمت المماوات بالحديد السنجع على صفتي السيل، أصبح
النهر كالتمساح الهريل المريض، حبيساً بين الجدران والأعمدة
والفصيان الحديد، بيوت وشقق مثل علب الصفيح في العمارات
الحديثة، وكائنات وجوامع تشكائر مشد تشكائر الأرناب، وأقواس
النصر مكتوب عليها اسم الله وللمسيح والرسول محمد، والسيد
الرئيس، وخوار وأزقة مسدودة تصماتح القصامة، ومياه اسجاري
تجري كالأنهر بعد أن حقت مياه النهر، وبرر كلاب وعطش شاردة
في الشوارع، وثلاثة ملايين طفل وطعمة يعيشون فوق الأرض دون
أب.

تدب زينة بنت زينات يعلمها فوق حشيش المسرح، ترقص
وتغني وتنشد الشعر، تشق الكون بعامتها الطويلة الصلبة، تمشي

فوق الحطّ العاقل بين السماء والأرض، تمشي عليه قدميه لتكسر محدود، تمنح لنفسها طريقاً لم يمش فيه أحد من قبل، الباعثان إلى روحها، تمنحهما وتعلمهما بإرادتها، إرادة صلبة مثل قاتمها الصلبة، عصمت الطوب والرط، أصبحت أشد صلابة من الرط

المتوقفتان المتوقفتان في عينيها ليس لهما عمر، تبدو انثة تحت العشرين عاماً، أو امرأة فوق المائة عام، بريتهما ساحر خلّاب للعيون، خادع بصير والسمع واللمس، والحواس الأخرى، يظنه الرجال ذمّة للحب، وهو ليس إلا ضوء الشمس المنعكس في عينيها، يصعبها أصحاب الأحسن بأنها امرأة منتبهة، نقاد الفن والأدب يقولون إنها من ذوات الدم الساخن الفاتر، ترد عليهم بأغنية من أغنيها الساخرة، تقول إنهم من ذوي الدم البارد، الراكد في عروقهم المتجمدة، قال عنها رئيس النقد الأدبي، إنها أسوأ شيء في البلاد، استخدم كلمة شيء في وصفها وكلمة أسوأ، أراد بذلك أن يخرجها من جس النساء وجنس الأدب معاً.

في حضورها فوق خشبة المسرح يسي الناس ما يكنه النقد عنها، يطمح حضورها على الكتب والمقالات والدراسات النقدية، يصبح لجمالها فضيلته المعاصرة بها، تتحرك عيون الناس إليها بعير إرادتهم، أو بإرادتهم الحقة المكبوتة في الأحشاء، تتحرك عيونهم نحوها أو نحو المقتنين، العيس، الباعثين المفتوحين إلى السماء وقاع البحر، لا ينظر نعيون إليهم بحسب، بل تدخل في أحضانهم، مكتشفهما، تمنع فيهم، لا تعادهم وب انطباع الأنوار وعادروا المسرح

كتب مدونة في رسالة سرّيه إلى مدور أتمها

- هل أنت التي ولدت هذا الجمال يا مدور؟ كيف تلدن هذا الجمال وتعجزين عني وصفه في رويتك؟ أيكوب رحمت أكثر بداعاً من قلمك؟ هذا الجمال لا يحقنا بالذمة بحسب، هذا الجمال يمتلئ بالألم والحيرة والاستسلام لذلك الضوء المتوقف في العيس، نشعر بالإحباط والضعف أمام قوة هذا الجمال، أو السحر، لا نفوق على التخلي عنه، يشدّ بقوة المعرفة إلى ما لا نعرف، يبحث فينا المجهول بالقلق والتهديد إلى حد الرغبة في المقاومة والانتقام، ذلك الجمال المنسّق في ما يشبه العظمة، إلى حد أن نفقد توازننا، أن نفقد عظمت الموهومة، ونسى من نكون، نحن آلهة الأدب والعز والثقافة، نفشل لغت الفاصرة المورثة عن تعريف هذا الجمال، مثل الحب، مثل الحياة، مثل الله، مثل الشيطان، وكلّ المجهولات في اللغة والحروف.

لم تكن زينة بنت زينات تأبه لهذه الكلمات المنقفة، لم تحصل زينة بنت زينات على شهادة عالية، لا تثقل حذاء له كعب عال، لا ترتدي فوق وجهها حجاب العفة، ولا مساحيق التبرج والحلاعة، ولا أساور في يديها أو خلائل في قدميها، ولا تدهن شعبيها وجفونتها بالأحمر أو الأخضر أو الأزرق.

لم تكن زينة بنت زينات تشعر بحماليها، لا تشعر بعصمتها أو موهبتها، كان كلّ هذا شيئاً طبيعياً لديها، لا يستدعي الإحساس به، لا يستدعي الشفق به، مثل الحرية لا يتحدث عنها، لا من يعقدها، مثل الصحة، تاح على رؤوس الأصحاء لا يره إلا

المرضى، مثل الحياة ناج على رؤوس الأحياء لا يراه إلا الموتى
في المدرسة كانت زينة بنت زينات ترتدي مريضة من الدمور
الحسن الرخيص، النكولة معوجة، المحرام غير مربوط، شعرها
منكوش، رباط حذاتها مفكوك.

لم تكن زينة بنت زينات تنظر في المرأة، لم يكن في بيتها
مرأة، لم يكن لها بيت، تخرجها النظرة من الطيور، تسمعها على
أصابعها بالمسطرة، تعاقبها بالوقوف ساعة أو ساعتين وجهها
لمحائط وبها مرفوعشان. لم تكن زينة بنت زينات فعنت شيئاً،
سوى أنها سقت السات في الحري في حفصة الألعاب الرياضية،
كانت سيدها السات قصيرة سمينة مدكوك بالمحم، عذرات عن
الحري، أو أنها حصفت على أعلى اندراجات في حفصة الموسى،
أو في فراءة الشعر.

كانت أصابع السات قصيرة بضعة طرقة، تتفوى فوق أصابع
الياسر أصابع بنات العائلات لم يكن لها عظم، تلبوي السنهن
حين يصفى شعر بالدم العربية، لم تكن اللغة العربية محترمة في
بيوت العائلات الكريمة، لا يتكلم اللغة العربية في هذه البيوت
الراقية إلا الحاديات والشوفير والطباخ والجنائني والبلانة وفارة
الفنجان، والعشيقات الشغالات من الطبقات الدنيا أو المومسات،
لزوم اللذة السرية للذكور من العائلات الكريمة، ذات الأصل
العريق.

معبدة الخرنيتي ثيكبي في الليل تسأل الرب، لماذا خلعتني

بهذه الأصابع القصيرة؟ بهائين أمقليس الصعيريين الحاليين من
الريز؟ لماذا أعطيت المومبة ليست الرى؟ هل تفضل يا رب بنات
الزنى على بنات العائلات الكريمة؟

في حفصة الموسيقى تقول أهلة منهم.

- المومبة وحدها لا تكفي، الأصابع وحدها لا تكفي لإتقان
الحرف، أنت يا مجيدة كسولة، تريدن كل شيء بسهولة، عندك
كل شيء من نعم الله، ليس عندك دافع للإبداع، ليس عندك
صموح، زينة بنت زينات تنام وتعلم بالموسيقى، لا تكف هن
الحرف والمساء، تنذرت ثلاث ساعات في اليوم، في المدرسة أو
في بيتي، فنحنت لها بيتي لأنها تحب الموسيقى والمساء، هذا
الحب هو سرها وداعها في الحياة، الحب الذي خربت به في
انديا وجدته في الموسيقى، الموسيقى مثل الكتابة مثل أي فن
آخر، لا تحب إلا من يحنها، ولا تحبص إلا لمن يحلفص لها،
زينة بنت زينات ليس في حياتها إلا هذا الحب، وأنت يا مجيدة ما
حبت حياتك؟ ما حلم طفولتك؟ ماذا تريدن أن تكوني؟

تفكر مجيدة الخرنيتي في السؤال، براودها في الليل وهي
بائعة:

- ماذا أريد أن أكون؟ ماذا أريد أن أكون؟

لا تعرف الجواب، كل ما تعرف أنها لا تحب اللغة ولا
الحروف، تفضل الأرقام على الحروف.

- واحد زائد واحد يساوي اثنين، اثنين بالخط، لا ثلاثة،
هذا شيء واضح بسيط، لكن اللغة معقدة، الكلمة الواحدة

بها أكثر من معنى، يقلت المعنى من الفيض إلى النقيض بجرّة
 هم أو يقلت فوق الحرف، أو شرطة أو شدة أو همزة أو لمزة، قد
 يصبح الشيء وبقيته شيئاً واحداً، قد تساوي اللحظة الواحدة
 آلاف اللحظات أو العمر كله.

لا تحبّ مجيدة هذا العموس، هي تحبّ الأرقام المحددة
 الواضحة غير العراوغة غير المتبسة، لكن أكثر ما تحبّ مجيدة هو
 النوم، أن تعيب في النوم من الواقع والحقيقة، عن صوت أبيها
 وأُمّها يشاجران، عن صوت الله يهدها بالحرق في نار جهنم،
 عن صوت إبليس يعويها بلأثم، قبل أن تلغ العاشرة من عمرها
 افترقت مجيدة كثيراً من الآثام، أحدها أنها كانت تكره أباهما وأُمّها
 والمفترض أن يحتم، وهي أيضاً تبتلع قطرات ماء في شهر
 رمضان قبل مدفع الإفطار، لا تتوضأ أحياناً قبل الصلاة، أو تعلق
 من أمعائها ربح وهي تصلي فلا تقطع الصلاة لتوضأ من جديد،
 وهي لا تعطي شعرها وهي تعف بين يدي الله، وتبول في فراشها
 أحياناً خوفاً من السقوط من فوق الصراط المستقيم بعد أن تموت،
 ترى نفسها في الحلم تمشي فوق هذا الخيل الرقيق المحدود بين
 الجنة والنار، تتأرجح فوق جسمها العفير السمير، لم تلتذّب في
 حياتها على السير فوق الحبال الرفيعة الممدودة في الهواء، قدماها
 الصغيرتان الناهتان بدميهما العبل المشدود، مثل شجرة السكي،
 تمشي فوق الشفرة تترنح حتى تسقط في النار، ثم تصحو مبللة
 بالعرق والحري.

أكثر إثم في حياتها ما بعد العاشرة من عمرها أنها أطاعت
 أباهم وكرهت الحرتين، ودخلت هم الصحافة، كان أبوها منذ

طقولته يتطلع نحو أصحاب الأعمدة في جريدة أبو الهول الكري،
 يرى صورته داخل البروار على رأس عموده الطويل الرفيع في
 الصفحة الأولى ناحية اليسار. كان يميل ناحية اليسار مثل إبليس،
 ثم تحوّل إلى اليمين بعد أن امتلكت عموداً من العلم والإيمان بالله،
 رأسه في الصورة مثلث الشكل مدبب القمة يشبه هرم خوفو، عيناه
 تطلّان من داخل البروز شاركتين تحدقان في الأفق البعيد، تشبه
 حيون الممكرين الكبار، أفلاطون وأرسطو ونيوتن وفرويد وماركس
 وأبي سينا وابن رشد، ملامحه رغم التحديق في الأفق البعيد لا
 تشبه ملامح الممكرين، لا تتم عن التفكير بحال من الأحوال، فقط
 انعكس الضوء على الصلعة المسقولة أثناء التقاط الصورة، ظلال
 ودخان السجائر يخفي جزءاً من الملامح ويظهر بعضها، خاصّة
 الأنف، يتغير شكل عظمة الأنف مع تغير الضوء المسلط على
 الوجه، وحركة الأرض حول الشمس

أصبحت مجيدة الحرتين كاتبة مرموقة في مجلة النهضة،
 تحصل على أعلى أجر، يساعد أبوها وأُمّها في الكتابة، حصلت
 على جائزة الأدب في عيد الصحافة عن مقال كتبه بعنوان:
 إنجازات سيّدة مصر الأولى في عهد المرأة.

كان مبنى المجلة يشبه الهرم الأبيض بين المباني المتخلفة
 للسوداء من حوله، والمباني خلفه في الحي الفقير، يستوونه
 عشوائيات المدينة، يعيش فيه المهاجرون الجدد من الريف،
 الباحثون عن الرزق، والمهاجرون القدامى العاطلون عن العمل
 وأصحاب الموائع، والفقراء وبنات الهوى، ويأتمر الصبح

والسرديس واليوسيف المسورد والمسابع والأحجية والباحر
وإسناكية شهر رمضان

كان رئيس التحرير أحد أعوان السيدة الأولى، نشرت صحيفة
من صحف المعارضة حقائقي من احلامه بصحة ملايين من أمور
المحلة، خرج الناس في مظاهرات يطالبون بتقديمه للمحاكمة،
معظمهم من الشباب المحفل والشابات، فرقتهم عربات البوليس
بغرافيم المياه، والذرات المسيلة للدموع، ووضع رصاصات
انطلقت، سالت دماء فوق الرصيف، دابت الدماء في مياه
المجاري بعد انفجار الماسورة عاد الهدوء إلى المدينة بعد
ساعات قليلة، سبي الناس الفضية، وهددت صورة رئيس التحرير
تتألق داخل البروار فوق عموده الأسبوعي أو اليومي، صورة
جديدة يظهر فيها أكثر شباباً، اختفت الصلعة تحت باروكة شعر
أسود مستعار، التجاعيد راحت بعد عملية تجميل جراحية في
نيويورك، عيناه أصبح فيهما نيونوك، يكسرهما برقع متأرجح
بالنشوة، شتاه يتسمان في زهر وانتصار.

مجيدة الحرثيني كان لها مكتب كبير في الدور العلوي بجوار
مكتب رئيس التحرير، فوق بابها نوبة حمراء، لا يدخل إليها أحد
إلا أمر مدير المكتب والسكرتير الخاص، ما إن يسمع أحدهما
صوتاً لشات أو شاته معمورة تطلب مقابله، الأسادة الكسرة حتى
يتم.

- آه، الأستاذة في مؤتمر خارج لقصر مع الهانم، السيدة
الأولى، الأستاذة في اجتماع هام مع السيد الوزير، الأستاذة

مشعونة بكتلة عموده، لا مرة على المكالمات ولا تقاس أحداً،
أي والله، الأستاذة أعلقت على نفسها باب مكتبها بالمصباح لتكتب
مقالها، أي والله العظيم، إنها الآن تكتب ولا يمكن لأحد أن
يقترحم عليها الكتابة، أي والله، فالיום هو الخميس، هذا يوم
معزز عنده، يوم كتابة مقالها، أي والله، المطبعة متوقفة في
انتظار مقال الأستاذة، هل يمكن الاتصال بها الأسبوع القادم؟
أرجو المنددة

لم تكن مجيدة الحرثيني تكتب مقالها يوم الخميس، لا تذهب
إلى مكتبها يوم الخميس، فهو اليوم الذي تذهب فيه إلى النادي
لتلعب الجولف مع أبيها كان ملعب الجولف هو المكان حيث
يلتقي كبار الكتاب من أهل الصحافة والأدب والثقافة، معظمهم
رجال والقليل نساء، كاتبات وناقداً مرموقات، أصبح الجولف
هوايتهم الجديدة، أو الكروكية، تمشي الواحدة أو الواحد منهم
تحت أشعة الشمس في الهواء الطلق، من خلفها أو من خلفه صبي
شاحب الوجه بشرته محروقة بالشمس، مبقعة بدوائر بيضاء، ويمشي
أسود، يشبه ولداً من أولاد الشوارع، يمشي من خلفها أو من خلفه
بحر عربية معتمدة بالمضارب والكرات، تمسك الواحدة منهم
المضرب بأصابع بيضاء سميكة أظفرها طويلة حمراء، أو بنفسجية،
أو برتقالية حسب الموضة في ذلك الوقت، يمشي جسدها المرنع
فوق الكرة، تضربها هربة خفيفة ملبنة بهمان الأنوثة، نظير نكرة
الصعرة مسافة متر أو مترين ثم تسقط فوق الحشيش الأحصر
المحلق بعنايه، الناعم مثل وجه ركبنا الحرثيني بعد الخلاف

كان رئيس التحرير يلعب الجولف حين قال لها:

- اسمعي يا مجيدة، أريد منك مقالاً عن إنجازات السيدة الأولى في عيد المرأة القادم، كانت المجيدة تستعد لعيد خاص بمناسبة عيد المرأة العالمي، أو ربما كان عيد ميلاد الرئيس أو الستة الأولى. يسهر رئيس التحرير هذه المناسبات ليحدد الولاء والطاعة والإخلاص لأصحاب السعة، يتسابق المحررون والمحررات لسبل الجائزة، يخلقون خيالهم لخلق مشروعات لم تحدث، وإنجازات لم تُجر، ينكدسون في صالة التحرير الكبيرة في الدور الأسفل، هددتهم بالمعشرات أو المشات، يتبادلون الجلوس في المكاتب القليلة، تشبه الكراسي الموسيقية، يتنافسون للجلوس عليها، يقولون عنهم صفار المحررين والمحررات، قد يكون بعضهم في مراحل الشيخوخة، أو في منتصف العمر، يظلون تحت كادر العمال بالقطعة، أو تحت اسم التدريب دون مكافأة، ليس لهم وساطة في الجهات العليا ترقيهم من الصفار إلى الكبار، بقرار جمهوري، أو قرار وزاري، مكتوب أو غير مكتوب.

كانت مجيدة الخريجي تستأجر واحداً من هؤلاء المحررين الصفار ليكتب لها المقالة، تدفع له مائة وستين جيباً في الشهر مقابل أربع مقالات، كل مقالة بأربعين جيباً، كانت هي تحصل على راتب شهري قدره ثمانية آلاف جيب، تأخذ على المقالة الواحدة ألفين من الجيبات، كل جيب يطبخ لحاء، بلعة المقرنة العاطلين من أهل الريف.

هوق مكسها كانت لوحة خطوط ملونة، الأحمر خاص برئيس

التحرير، الأخضر خاص بمدير مكتبها، الأبيض خاص بالسكرتير الخاص، الأسود خاص بصالة التحرير السلية.

تمت مجيدة يدعها البقعة السمين إلى التلفون الأسود، تسأل عن محرريها الشاب الفقير كتيب المقالة.
- تعال مكثي حالاً يا محمد.

لا تناديه يا أستاذ محمد كما تنادي المحررين الكبار، لا تسأله إن كان عنده وقت للصعود حالاً إلى مكتبها، تعرف أنه سوف يصعد إليها حالاً إن طلبته. فهو تحت الطلب في أي وقت، مقابل مائة وستين جيباً في الشهر، يطعم بها أطفاله وأمه المريضة، ويشتري لنفسه بعض الكتب أو الروايات الجديدة.

يصعد محمد بقاته النحيلة ووجهه الشاحب الطويل إلى الدور العلوي، يركب المصعد الفاخر الخاص بكبار المحررين وكبيرات المحررات، يزلق المصعد إلى أعلى بصوت ناعم خافت كالنسيم، يجتاز محمد بمحذاته المعطى بالتراب الممرات الطويلة المعروشة بالسجاد العجبي، جدرانها مغطاة برسومات الفنانين، صور الوزراء والملوك والرؤساء، صورة رئيس التحرير تعلق من البرواز الذهبي إلى جوار صورة المفلوطين وطه حسين، وشكيب وبراود شو، يصم رئيس التحرير صورته مع هؤلاء، كأنها يصعب كتاباً عظيماً لمجرد وضع صورته على الحائط مع العظماء.

توقف محمد يلهت أمام الباب، تعلوه رفعة ذهب اللون لامعة محفورة عليها الاسم، مجيدة الخريجي، بحروف تشبه أشعة الشمس، لا تأتي مجيدة إلى مكسها إلا قليلاً، أحياناً مرة واحدة

في الشهر لنقص رأسها، لكنها دائمة الحضور في اجتماعات الرئيس والسيدة الأولى، وحملات الفرقة، ومهرجانات رئيس التحرير في المناسبات الأدبية والفنية والثقافية

قبل أن يدخل إلى مكتبها أوقفه مدير المكتب يسألها عن اسمها، وما فرض المقابلة، قل له إن الأستاذة غير موجودة، في اجتماع هام مع رئيس التحرير.

- الأستاذة طلبتي بالتلفون من دقيقة واحدة يا أستاذ، الأمر مهم ومستعجل خاص بالمقال بندها يا أستاذ.

آه، متأسف، هي شبه راحمة حالاً من الاجتماع، إعتقل يا أستاذ محمد

دخل محمد إلى المكتب المفاجئ، يخوض كعب حذائه المتآكل في السجادة المعجمية السميكة، لها طمس للفحم الطري الناعم، حلف مكبها الصمغ كانت مجيدة الخرتي جالسة بجسمها القصير المرتفع، لا يكاد رأسها يعل من فوق البسورة الكبيرة اللامعة، فوق الحائط من حلقها تطل صورة رئيس الدولة والسيدة الأولى داخل برواز ذهبي كبير، أساد الرئيس نصف مكشوفة في نصف ابتسامة، أو نصف تكشيرة عسكرية نصف حازمة، أسنان السيدة الأولى مكشوفة في ابتسامة أنثوية عريضة، من تحتها صورة الوزير، من تحت صورة رئيس التحرير، يتناقص حجم برواز الصورة بالهبوط من أعلى إلى أسفل، يقل سمك الذهب في البرواز، أو يتحول الذهب إلى معدن آخر يشبه العضة أو النحاس أو الفصدير

لم تطلب له مجيدة الخرتيني فستاناً قهوة، كانت ترشف

قهوتها من فجان حوافه ملهته، إلى جواره كوب ماء كبير مملوء يقطع الثلج، أريد جهاز التكيف ناعم حامت يشبه خصف هواء، بين شعيتها الحمراء والسبعين سيجار أسود اللون فاخر النوع من هافانا، يدخن أبوها ورئيس التحرير، وكبار الأدباء والصحفيين من أصحاب الأعمدة اليومية والمقالات الأسبوعية، ما إن يحصل الواحد منهم على اللقب أو المنصب حتى يظهر السيجار الأسود بين شعتيه، والرمية السوداء فوق جبينه، والسبعة الصفراء بين يديه. وإن كان من المؤمنين بالمسيح والإنجيل تظهر الرابية دون أن يسجد بين يدي الله، والسبعة يحركها بين أصابعه دون أن يستبح محمد الله، أو يحسم آيات من القرآن، يقول إنه فطحي ديه المسيحية لكن ثقافته إسلامية، يذهب إلى الجامع دوم وصوم يوم الجمعة ليصلي وراء الرئيس أو الوزير، يستمل ويحوقل ويقرأ الشهادة والعائنة دون أن يحرك شعبة إلا قليلاً، يسس حقه مع البسطة والشرش والحوقة والتمتعة دون صوت أو محرذ هواء ساحر يخرج من بين شعته المنوزتين.

من وراء مكتبها المحم أطل رأسها الصغير، وجهها عريض مملوء باللحم، منهزل الملامح، بشرها بيضاء ومادية، هذه الياص الشاحب يميز كبار المكاتب من الرجال والنساء، الشباب والمجانر، للون الرمادي للوجه والعينين واليدين، انقسم أيضاً بين أصابعهم لونه رمادي، كلما نهم في الأعمدة والمقالات ومادية اللون، مصنوعة من مسحوق ثوابي، من حروف منسحقة تحت مطرقة حديدية، رقيقة ثقافة يشق من تحتها الورق الأبيض، يكتسبون بالخبر الأصفر، أو الحبر السري غير المرئي، كما يفعل السجاء

داخل الرماح، لا يعرف أحد ماذا يقولون، وهل هم معارضون أم مؤيدون، ينفون كلماتهم مدحاً سيجارهم، مثل الإله يحصون ورثه السحاب.

كادت ترندي تديرأ أخضر من التحرير الطيبي، حول عفتها إيشارب خفيف أحمر شفاف، معقود أسفل دقنها المدتب على شكل وردة، يداها صغيرتان أصابعهما قصيرة بقنة، أصابع طعنة صغيرة لولا النظرة العجور الحزينة في عينيها، بشرة يديها بيضاء تعلوها بقع حمراء، أحضت يديها داخل جيوب التايير حين رآته يحملن فيهما

- عهدي انتهت في الجلد يا محمد، نوع من الحساسية
برائحة ورق مصحف، مرض من أمراض مهة الكتابة، أنت يا
محمد صحفي ممتاز، يمكن قلمك أن يساهم في العدد الحاضر
بإنجازات السبنة الأولى، والسيد الرئيس طبعاً، أنت عارف البلد
كلها لا يمكن نمشي ولا سوجيحات ميادته، أطلب لك فتجان مهوة
يا محمد؟

- لا شكراً يا أستاذة

- أنت واقف ليه؟ أقعد يا محمد.

- شكراً يا أستاذة.

- أطلب لك عصير لمرن مثلج؟

- شكراً يا أستاذة، أن في الحديقة هندي قرحة في المعدة ولا
أشرب أي شيء خارج البيت

- قرحة إيه يا محمد؟ كذا عندما قرح في جميع الأعضاء
وليس في المعدة فقط، هذا جزء من أمراض مهتسا، إحنا
الصحتين والأدباء، والأدبيات..

ضجعت بأستانها على كلمة الأدباء والأدبيات، وكأنما تدخل
نفسها قسراً بهذا الضغط في زمرة الأدباء والأدبيات، كان أبوها
يحلم أن تكون ابنته من ريادة الثانية، نشرت قصة قصيرة في بداية
حياتها، لم يقرأها إلا أبوها وأنها.

دق جرس التلغون الأحمر فشمعت طويلاً بالمكالمات، أطلقت
بين الحين والحين صحكات ناعمة متقطعة، وشهدت، مع الشيب
والزفير، يهتز جسدها من وراء المكب في شوة، وهو واقف
أمامها لم يقعد، لا يريد أن يقعد، يود لو سادس وعادر المكب،
يود لو اعتدل لها عن كتابة مقننها، يود لو يصرب البوردة بقصة يده
فيكرها، في أعماقه عصب مكبوت سد الطعولة، تحول إلى
قرحة في المعدة

انتهت المكالمات والتفت إليه، كأنما تكتشف وجوده.

قال لها بصوت خافت،

- أستاذ يا أستاذة، عهدي موعده مع الدكتور لإجراء أشعة
على المعدة.

- أقعد يا محمد، أنا هاورة المقال بسرعة، هشان ينزل في
عددا الحاضر عن الإنجازات، طبعاً أنت عارف إن الإنجازات
كثيرة في كل مجال، عليك انك تحتر منها ما تشاء، بمطلق
الحزبه، عليك إنك تسلمي المقام قبل مهمة الأسوع، ياللا شذ

جيتك واكتب حاجة حلوة ري عرايدك، قرحة بالمعدة إيه يا محمد
ده مرض نفسي ناتج عن قرحة بالمعدة

ضحكت مجيدة بصوت عال حاد يشبه صوت أبيها، حرّكت
رأسها إلى الوراء وهي تقهقه كما يفعل أبوها مع صغار المحرّرين
- ذي مجرّد دعابة يا محمد، أنا يا ضحك معاك، أنا عارو أن
عقلك يوزن بلد.

بعد أن خرج محمد أطبقت الأستاذة مجيدة شفيتها في صمت
طويل، سمعت صوتاً في أعناقها يهمس:

القرحة في عقلك أنت يا مجيدة وعقل أبوكي ورئيس
التحرير والوزير ورئيس اللجنة الأولى.
نظرت إلى ساعتها وانتهت واقفة:

- يا خبير؟ كنت حاسي ميعاد للدكتور؟

بعد دقائق قليلة كانت الأستاذة مجيدة المخترعيني تقود سيارتها
المرسيدس البيضاء، في طريقها إلى الطبيب النفسي حيث تستمدّد
فوق الأريكة

فوق حشّة المسرح كان أحمد التامهيري يرمقها وهي تعزف
وتعني وترقص، ربة ست ربات تتألق تحت الأضواء، كان جالساً

في الصنوف الخلفية، يحقن وراء نظارة سوداء، وعمامة بيضاء
كبيره يلفّ بها رأسه، حنة من القسطرة وقطعان له حرم عربي
ذهبي، من حوله حزام مسنّحون متشكرون في ملابس مدنية، في
جيب كل منهم مسدس كانتم للصوت، منذ سمعها لأوّل مرّة سم
بكفّ عن سماعها، يحترق صوتها المسافة بين عقله وقلبه في
لحظة خاطفة، ينمذ من جسده إلى روحه في شظية عين، ثلاثي
المواصل بين جسده وعقله وروحه وجسده، يصبح كبدناً واحداً
جالساً في مقعده، شاخصاً إليها، مبحثاً فيها، يعود طملاً جيتاً في
بطر الأم، يصحو من نوم عميق، يمنع جفونه، الدنيا ليل مظلم،
دقات قلبه تسري في أذنه بصوت منتظم، إيقاع لحس يأتي من
بعيد، من بعيد جتاء، يفرك ماصاعه عليه المثار جحتس بين النوم
واليقظة، لا يستطيع أن يحتد الصوت:

صوت من؟ ومن أين يأتي؟

كم من الزمن يمضي، هي لحظة من الصمت الطويل، أو
دقيقة، أو ساعة، أو سنة، أو العمر كلّ، لا يكاد يعرف، ثم يأتي
للصوت من جديد، صوت مألوف لأدبه، يشبه حركة القلب تحت
الضلوع، دقات بضر فرب، يكاد يحسّه في صدره يذق بالإيقاع
ذاته، من فتنة رأسه حتّى بطن قدميه، يتلاشى الصوت ويأتي، ثم
يخفي، ثم يأتي، يتصاعد الإيقاع ويهبط، ثم يتصاعد دون توقّف،
دون بداية أو نهاية، يدهدغ أذنيه في نعومة صدر أقه، يسري في
كيبانه، كلّما استمع إليه يصبح مألوقاً، سمعه من قبل آلاف
المرّات، ملايين المرّات، منذ كان في الرحم، يعرف النعمة التي
راحت والتي جاءت والتي سألني، وإن كان الصوت حاداً معداً

معبداً، كأنما يأتي من تحت الماء، وهو مذكور حول نفسه تحت
العبء، إنه حين داخل رحم أمه، يحويه الماء الدائم، يسمع
الأصوات تتحرك داخل الماء، دقات قلب أمه قريبة من أذنه
الجينية، يذق قلبها بإيقاع متظم بطيء، أو إيقاع سريع مضطرب،
مهما اضطربت الدقات يظل لها إيقاع الموسيقى، ورائحة شعر
أمه، وصوتها بهمس:

- حبيبي أحمد.

انعاعة الكثيرة مكتنظة بالنفس، رحال ونساء وشباب وأطفال،
إلى حواره أم شابة تحمل في حضنها طفلاً، كفاً الطفل هي اليكاه
حين بدأت ربة تعني، تستر عينا الطفل فوق وجهها، أذنه
مرهفت لصوتها، يتابعها بحسبه وهي تتحرك فوق حشة المسرح،
عيناها لا تمصلاص عنها، أذناه منصفتان بصوتها، يهتز رأسه بالإيقاع
دائه، يسمع جسمه الصغير في حضن أمه كما كان يسمع داخل
رحمها.

ألبيت الطلب أن الجنين في بطن أمه يسمع الأصوات، داخل
الرحم، وفي العالم خارج الرحم. منذ أن يبلغ الجنين مائة وأربعين
يوماً يعرف صوت أمه حين تنفي، وحين تبكي، يسمع دقات قلبها
وأنفاسها ونهيز الدم في عروقها، يسمع الحوار بين أمه وأبيه دون
أن يفهم الكلمات، لكنه يفرق بين صوت الموسيقى والصوت
النشار، تسترّب أذناه على سماع الأنغام، الحاد الحث والسعادة،
أو الصفعات والركلات والنشيج الحزين

لله يعرف أحمد القاهيري ماذا في ربه يجده؟ ماذا في
صوتها يرخ كيانه؟ ماذا في عيناها يشر فيه اندكريات؟ دكريات
قديسة دمية بعيدة، ضاعته، سقطت في العدم. مع الزمن
الماضي، تعود إليه الذكريات من حيث لا يدري، يعود إليه صوت
أمه تعني له قبل أن ينام، ورائحة لبنها تسري في أذنه مع اللحن
والموسيقى، يتستر في مقعده لا يتحرك، يصيح جسده والمقعد
شيئاً واحداً، حين ينتهي العرض وتنطفئ الأنوار، وتخلو القاعة،
يظل أحمد القاهيري جالساً محملاً في الظلمة والفراغ.

أصبحت زينة بنت زينات طبعاً يطارده ليل نهار، صوتها يري
في أذنه وهو دائم يشبه صوت الله، أو صوت الشيطان، أصح
بؤس أن الموسيقى تأتي من عند الشيطان وليس من عند الله
موسيقى صوتها تسليه الأتزان، تسببه الإيمان بالله، تجعله ريشه
في مهت الرياح، يصيح جسده خفيفاً كالريشة، جسمه يعبر لحم
وعظم، جسم مصنوع من الروح، بطيرته في سعادة الأرواح الحرة
الطيفة من أسر الحسد، كأنما يموت وتصعد روحه إلى السماء،
ثم يصحو ويصبح صبي الأحباء، يموت ويصحو، ويموت
ويصحو، دون توقف، دون انقطاع...

أعطتها أبله مريم لقب موتسارت مصر، تقلبها في كل عرض
قائمة:

- هله زينة بنت زينات، هي موتسارت الوطن، لكن
موتسارت عاش في حضن أبيه الموسيقي الكبير، كان يدرسه على

المعرف ثلاث ساعات في اليوم منذ بلغ الثانية من عمره، ما إن بلغ
موتسارت الثامنة من عمره حتى كتب سيمفونيته الأولى، لم تكن
فقط نتيجة الموهبة أو المبررات الموروثة، بل تدريب طويل طويل،
بلغ عشرة آلاف ساعة ما بين الثانية والثامنة من عمره، المبكرة هي
تدريب وعبر طويل، لكنها مع الموهبة الطبيعية تصبح شيئاً خارقاً
لقوانين الطبيعة.

منذ رأتها في المدرسة الابتدائية أبقت أيلة مريم أن هذه
الطفلة موهوبة، كانت زينة تحفظ اللحن من ظهر قلب فور سماعه
لأول مرة، كانت تنو سمها إلى حد العرور، كأنما هي ابنة الإله
في السماء ولست طفلة ولدت على الرصيف فوق تراب الأرض
بمعني زينة بنت رياح قصبتها، تبدأها بهذه الآيات:

أنا جئت من الأرض، وإلى الأرض أعود
أنا لم أهب من العشاء
لست ابنة الآلهة أو الشياطين
أنا زينة وأمي زينات
أمي أعزّ عندي من السماء

تبدو كلماتها بسيطة تلقائية، كالهواء يخرج من الصدر
ويدخل، ليس لها قافية ولا وزن، إلا يرفع صوتها الطبيعي، يرنّ
في القاعة الكبيرة هرباً إلى حدّ اللعنة، مألوفاً إلى حدّ الغرابة،

مثل ضوء الشفق يولد من الطلعة، والشمس تسقط في حوض
الليل.

يصحو أحمد الدامهيري من ضيوبة الشوة، ترتطم كلمة
السماء بأدمه كاللحم الشار، يتبه عقله المغلوب بالسحر.
- لماذا تنحذي هذه المرأة السماء؟ ما معنى أن تكون أنت
الخدمة العفيرة أعزّ عندها من الآلهة؟

إلا أن هذه الصحوه سرعان ما تروح، حين تبدأ زينة بنت
زينات في العزف والتملأ:

أنا لست موتسارت ولا لَمْ كنوم
أنا بنت الأرض والشارع
أنا نت للخطأ والخطيئة
أنا بنت الشرف والفضيلة
تلقيت الضربات منذ الطفولة
عرفت القوط المرة بعد المرة بعد المرة
لكني بعد كلّ مرة
كنت أنهض وأخني من جديد
وأعرف وأعرف وأعرف
أنهض وأرقص وأرقص وأرقص
أسقط وأنهض وأسقط وأنهض وأنهض، وأنهض
ثم أكتب قصيدة حبّ يرفقاع جديد

العيون في القاعة الكبيرة تحملق فيها، الأذان مشدودة إليها، بساطة الكلمات الحالية من الرتبة، بساطة الوجه الحامي من المصاحيق، وجه حاض بها لا يعرف السرلات، لا يشد إعجاب أحد، لا يسعى إلى أن تراه العيون، ومع ذلك يشد العيون إليه بقوة، بجدية حمية، كأنها العيون لا تسعى إلا إلى ما لا تراه، أو إلى ما لا يسعى أن تراه.

المفتتان الكبيرتان هما هذا الوجه الخالي من كل شيء إلا العينان، سوداوان زرقاوان مشتعلتان بالنصوء، متوهجتان مثل قطعة من الشمس، مظهرها خارقة للحجب والأقنعة، نظرة تعري السطح وتنفذ إلى القاع، نظرة تنظر وترى، ترى ما لا تراه العيون.

يتحمل أحمد الذمهوري في مقعده، يتحرك جسده القصير السمين، ينتقل من الألية اليمنى إلى اليسرى، بفرد ساقيه القصيرتين تحت المقعد أمامه، ترتطم قدمه بقدم الرجل الجالس أمامه، يستدير الرجل إليه ويهمس:

- أفندم سعادة الباشا، تحت أمرك.

- لا شيء يا محمود لا ترفع صوتك.

إنه الشوفير، الجالس أمامه، سائق سيارته السوداء الطويلة، ذات الستائر الزرقاء، أو الزجاج الأزرق الفيجيه، يكشف الخارج ولا يكشف الداخل، يرتخي جسم أحمد الذمهوري في الستارة الفاحرة، هو، الأريكة الحديثة الوثيرة، تعوض البهاء المرفهات المعتزلة في المرائش لطري الدسم.

ثم يكن المسرح أحد المسارح الفاحرة البهجة سدونة، ثم يكن هو المسرح الكبير أو الصغير في دار الأوبرا الأبيقه، كان مسرحاً فقيراً في الحي العشوائي القديم، جدرانه خيمة من قماش سميت ورخص يشه الدمور أو الجريد، مقاعده من الخشب أو الجيرران أو الجريد المجدول، مسقيمة الظهر تؤلم الطهور غير المستقيمة، تدمي الطهور المترقبة التي تعودت الجلوس في المقاعد الطرية، يستمر العرض ساعتين أو ثلاثاً أو أكثر، كلما توقفت زينة بنت زينات عن العزف والغناء ارتفع الهاتف في الضالة الواسعة.

- أهدي يا زينة أهدي، أهدي ..

كان الشوفير محمود، السائق الخاص، واحداً من حرس الأمير، يحمل مستمراً مخصصاً من إدارة الأمن، يمشي وراء الأمير إن مشى، يجلس في المقعد أمامه إن جلس في الحفلات العاتقة، من خلف الأمير يجلس الحارس الخاص، أو اليودي جارد، هكذا يتحفظ جسم الأمير من الأمام والخلف، عن يساره الحارس الثالث، عن يمينه الحارس الرابع، أربعة أجساد طويلة عريضة ضخمة تحوط الأمير، بجسده القصير الصغير، كالأعمدة الأربعة، أو جدران أربعة عالية من حول ضريح منحفض لشيخ مات منذ ألف عام، أو قسيس مدفون تحت محراب قديم، يشادونه فضيلة الشيخ، أو سعادة الأمير، أو سعادة الباشا.

كان لقب الباشا قد سقط بسقوط الملك بعد الثورة، لكنه عاد من جديد مع الانتعاش، والشركات الأجنبية، والمعممة والرسمة والسبحه، ومكبرات الصوت فوق الجوامع، وأحراس الكنائس والمدارس، وصغارات البوليس في الشوارع، وحرطيم العمياء

والعارات المسبلة بدموع، وكناثر المواليد المنقطاء فوق الأرضة
وفي العشوائيات، وقوائم الموت وفتاوى المشايخ بتكفير المعكّرين
والمعكّرات، والحرائق في دور النسيم والمسارح والكنايس،
والنسوة وراء المعش في الجسارات يولولن ويلطمعن الحدود،
والفتيات المراهقات بعنق رؤوسهن بالحجاب، ويكشمهن من
بطونهن وأردائهن داخل الجسر الأمريكي الحديث، ومحلات
لهاميرجر والكولا والديسكو، واللبالي الحمراء على شاطئ النيل،
والسحابة السوداء تغطي المدينة في النهار وفي الليل.

يطرب أحمد الدامهيري حين يناديه السائق بلقب سعادة
الباشا، يثغر طفولته حين كان في الثامنة من العمر، أبوه فضيلة
الشيخ الدامهيري، وعنه «موا» الكبير في الجيش، يفخر في
المدرسة بين التلاميذ، يكتب اسمه الثلاثي فوق السبورة بالخطشير
- أحمد محمد الدامهيري.

أبوه وجده وأبو جده، تربوا جميعاً في الأهرام في بيوت الله،
أو داخل مدرسة الجيش واسبوليس، تلمع النجوم الذهبية
والنبيشين، فوق صدورهم وأكتافهم «مريضة المحشوة بالقش» أو
القطن، تلتصق المدمة الكبيرة حول رؤوسهم الصغيرة، والحرام من
المصيبة حول الحجة تحت انمطان، بين أصابعهم يقضون على
حبّات السبعة، أو العص لمن عصاها رأس الثعبان، أو الهراوات
أو البنادق والسمسمات، حسب موقع الواحد منهم في سلم
الوظائف العبد بالدولة والدين.

استدار السائق محمود وأطلق شعنته، يعرف مثل صيره من
الحرس أنّ سعادة الباشا لن يعادر مقعده، قبل أن تسهي رنة بت
ربات من العرف والعاء والرقص.

- أي والله الرقص، أعض العيون إلى الله والرسول، كما
أنتي فضيلة الشيخ رئيس القسم الثقافي في المجموعة، الرقص
يعني تحريك الجسد بما يشير الشهوات، يلي الرقص في النمص
الغناء، لأن صوت المرأة مثل جسدها العاري، يحدى العورات
الواجب إخفاؤها بالحجاب، بالحرب باليد أو باللسان، أو بالقب
وهذا أضعف الإيمان.

يثغر السائق حديثاً نبوتاً يقول:

- من رأى أحدكم مُشكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع
فلسانه، فإن لم يستطع فبقبه وهذا أضعف الإيمان.

- أيمكن أن يكون سعادة الباشا الأمير ضعيف الإيمان؟

يزحف هذا السؤال داخل رأسه الثابت فوق عنقه، لا يملك
الجرأة على تحريك رأسه ناحية اليمين أو اليسار، لأن رأس الأمير
خلفه مباشرة.

يقصّل السائق أن يجلس خلف سيّده وليس أمامه، لكنّ رئيس
الجناح العسكري هو الذي يحدّد أين مجلس كل من الحراس،
أكثرهم حرة كان يجلس في الصفوف الخلفية، خلف الأمير،
لحمية ظهره إن انطلق الرصاص، وكان الرصاص يحدى عاتقاً في
الظهر، نادراً ما كانت تأتي الطلعات من الأمام، وإن أنت من
الأمام فإنّ رأس السائق محمود تصدّها عن رأس الأمير دون شكّ

يطرد السائق السؤال من رأسه، دون أن يحرك رأسه، قد يدرك الأمير ما يدور في عقل السائق الباطل، لأن الأمير على صلة دائمة بالله، والله يعلم ما في العفول وما في الصدور وما في الطون، لكن السؤال يفتح ويسري في عروق السائق مع الدم، من قمة الرأس حتى بطر قدميه، يدرك من يقين أنه سيملك الأمير قد وقع في شرك هذه العانية، هذه الرابية بت الرابية :

« إن كبدن شديداً كما قال الله سبحانه وتعالى عن النسوة، هذه العاهرة لوئت سمعة الأمير الطاهرة، لا يوشخ الرجل الصالح المؤمن إلا المرأة، النضافة من الإيمان والوساخة من السوان، كما سمع من أبيه وجده، لو كان الأمر بيده لأخرج المسنن من جيبه وأطلق عليها الرصاص، لكن الأمر بيد الأمير، والأمير رجل مثلنا نحن الرجال في نهاية الأمر، إن حاج ذكره فقد ثلث عقله.

كان رئيس القسم الثقافي في المجموعة غير راغب من سلوك الأمير، يحذره من حضور الاجتماعات العامة، في مجال السياسة والدين، مما بال حضور الحفلات في المسرح والأوبرا.

لكن الأمير كان في مرتبة أعلى من مسؤول الثقافة، فهو مسؤول الجناح العسكري، تحت سيطرته قوة السلاح والمال، لا يملك مسؤول الثقافة إلا كلمات في الهواء أو فوق الورق، ما هذا كلمة الله، فون الكلمات الأخرى، كانت كلمة الله تتبع الجناح العسكري وليس القسم الثقافي، لأن شعار الجمعية المصحف والسيف، يعلق كل رجل منهم مصحفاً صمغاً من الذهب فوق صدره، وفي جيبه الحتمي فوق الآلية التي مسدس أسود اللون، حل المسنن محل السيف مع تظور السلاح العسكري على يد

الكلمة، في يده اليسرى تتلاعب حبات السحبة الصغراء، فوق جيبه الرابية السوداء، واللحية الكشمة مع الشب العريض الشعر محمي وجهه كالتمتاع، الأسود تطل من انمقلتان الصغيرتان السوداء، تدوران داخل المراع، داخل الثقبين بعير قع

تحول شعار المجموعة من المصحف والسيف إلى شريعة الله والمسنن، يحتاج الدين دائماً إلى قوة عسكرية تحميه، لم يهض في التاريخ دين من الأديان دون القوة الحربية، تحتاج القوة العسكرية دائماً إلى إله أو دين يحميها، يتمشى الأمير بين جنوده متفوشاً كالنمك الرومي، يقول عنهم جند الله، وهو متدوب الله، اختاره الله لهذه المهمة المقدسة، أن يرفع كلمة الله فوق كلمة البشر، أن ينقل أحكام الله وشريعته باللفظ أو بالعنف إن لزم الأمر.

ورث أحمد الدامهيري إيمانه بالله عن أبيه فضيلة الشيخ، وورث عن عمه اللواء العسكري الإيمان بالسلاح والبوليس، وورث عنهما أيضاً القامة الضخمة، والخوف من الفئران والصراخ، والضعف أمام الشهوات والنزوات، والجواري والإماء ومن ملكك الجين.

امتلك الأمير بيمينه ما يشاء من النساء، العفيفات المحصنات والخواني العاهرات، العذراء الكراغرية، والشب فاقدة العنصرية الحيرة بالرجال والأعيب المجس، الأرملة والمطقة يسونه صغرى أو كبرى، انصاحه يصح الثمرة الساقطة من الشجرة، والمراقة والطفلة التي لم تتبع الحبيب، وب أعجيبته امرأة متروجة تحلى

عنها زوجها طواغية توجه الله لهب نصها للأمير، فخاله قد أحلّ
للأمير ما يشتهي من النساء، الأمير يرتفع عن الرجال درجة، كما
يرتفع الرجال عن النساء درجة، خلق الله البشر درجات، أعلاهم
درجة النبي أو الرسول، يليه الأمير، يحق للأمير أن يملك من
النساء ما يشاء.

تهب بدور الدماهيري من يومها مدهووة، ترى ابن عمها
أحمد الدماهيري جالساً في مقعده، مستوراً في المقعد الخشبي،
شاحصاً إلى الأمام، محملاً في دائرة الضوء المتمركزة فوق خشبة
المسرح. تعرفه منذ الطفولة، إن أراد أن يملك دمية من لعبها
يملكها، إن لم يملكها يسرقها، إن لم يسرقها يحطّمها، ذات يوم
أعجبت عروس من هرائسها الصغيرة، حينما كبرت لونها أزرق،
خرزتان زرقاوان لامعتان في وجهها الأبيض المستدير، اشتعلت لها
أنفها ثوباً رقيقاً من الدانتيل، وقمصاً داخلياً من الحرير، وسروالاً
وردياً شفافاً، شقّ بطنها الأبيض الناعم، تسميه أمها الكيلوت،
أدخلت أمها قدمي العروسة الصغيرتين في حذاء من الفطيفة
الخضراء، كانت بدور تحفي عروستها في «دولابها تحت الملابس»،
تحكيها بعيداً عن عيون الأعداء حاضة عيني أحمد الدماهيري، كان
طفلاً مثلها في الثامنة من العمر، يلعب معها تحت السرير لعبة
«عريس والعروسة»، يرفعها حين تحفي عروستها فاحل «الدولاب»،
وحين تخرجها حلسة من تحت الملابس، تغير الرنبرك في جنبها
الأيسر ثلاث دورات، سمعت الموسيقى الرقصه من بطنها، تبدأ
السمية في تحريك ذراعها وساقها على الإيقاع، ترقص وتغني:

- اسحري يا حلوة يا رينة يا عروسة يا راية الرقة -

تبختر العروسة ويهتز جسدنا مع اللحن، تتشعب في
الهواء، تفتح ذراعها وساقها في قمرات متتالية مع ارتعاشة الرنبرك
في جنبها.

في إحدى هذه القمرات وهي هائجة ساقها في الهواء لمح
الطفل أحمد الدماهيري الكيلوت الوردي الشفاف، «خترقت عينه»
القماش الخفيف في استطلاع، لم نصل عيناه إلى شيء إلا بطش
العروسة البيضاء الباعمة، هبطت عيناه إلى العانة الصغيرة لونها
أبيض وردي بلون البيض، ثم هبطت عيناه أسفل العانة، إلى الشق
بين الفمحين، لم يكن هناك شق ولا فتحة ولا أي شيء،
اصطلمت عيناه بجسد العروسة المسدود، ليس فيه الشق الذي يراه
في جسد بدور أو أجساد البنات من هائلة أمه وأبيه.

ما إن خرجت بدور من عرفتتها، حتى انقضّ الطفل أحمد
الدماهيري على عروستها، شدّها بأصابعه الصغيرة البضة التي تشبه
أصابع بدور وسات العائلتين، وأخذها معه تحت السرير، خلع
عنها الثوب الرقيق من الدانتيل، تعرّف الكيلوت الوردي الشفاف
بين يديه وهو يشدّ أسفل ساقها، بحث عيناه وأصابعه عن الشق
بين الفمحين دون جدوى، كانت العروسة مسدودة في وجهه،
مسدودة تماماً لا يستطيع التّعاد إليها، كالطريق المعلق أمامه لا
يقوى على اختراقه.

ملغ به الغضب ملغ، تصوّر أن العروسة تعانده، تحفاه
تخفيها المسدودتين، ألمس بها فوق الأرض من شدة الغضب،

حلج عنها ذراعها وساقها والرُّبْرُك في جنبها، جمع لشللها
داخل ورقة من ورق الجرائد، دسها في حفرة بالحديقة الخلفية
دون أن تراه بدور، أو غيرها من الأحمال البسات أو الأولاد.

في القاعة الكبيرة كانت بدور تجلس في الصفوف الأولى، مع
كبار الأعيان والنقاد، من طبقة المثقفين والمثقفات إلى جوارها
تجلس صانعي صديقة عصرها، ثم مجيدة ابتها وزوجها، وأصحاب
الأعمدة في الجرائد، وأصحاب السفالات في المجلات، وسجوم
الشاشة والإعلام، وقيادات الأحزاب والجمعيات والجمعيات،
كان القانون بعد الهريرة الكبرى والانتاح على أمريكا، قد لباح
تكوين الجماعات الدينية، لهرب أعداء الرأسمالية والسوق الحرة،
مع اسم حرية التجارة وحرية المعيلة والديموقراطية، وانتشرت
المساجد والكنائس لشر كلمة الله في المدن والقرى، في الأرقعة
والحواري، في سمع جبل المقطم حيث المقابر، تحولت المقابر
إلى بيوت الله يسكنها الفقراء المهاجرون من الريف، يتنافس
الأحياء والأموات على المقبرة، يهرم الموتى في المعركة، ليس
للموتى حزب سياسي يدافع عن حقوقهم، ولا جماعة دينية
تتحدث باسمهم، ليس لهم أعضاء في مجلس الشعب أو الشورى.
ينكمش الموتى تحت الأرض خزيًا من ضعفهم، تصعد فوق
أجسادهم جدران من الإسمنت، ومنارات جوامع تثبت فوقها
مكبرات الصوت، الميكروفونات تطلق منها أصوات تشبه
الاصعجرات، فل تروق الشمس، وبعد غروبها، طول النهار
والليل.

- الله أكبر، الله أكبر، الصلاة خير من النوم، حتى على
الفلاح، حتى على الصلاة، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، يا
عباد الله لا تيأسوا من رحمة الله، أصبروا على الشقاء والهمز،
لا تنطلعوا إلى منافع الدنيا والشهوات، الحياة الدنيا زائلة فانية،
الأخرة هي الأبقى، جنة الفردوس تنتظركم، ووجه ربكم الكريم

بعد انتهاء العرض ارتفعت الأيدي بالتصفيق، الصفوف
الأمامية والخلفية، المؤمنون بالله وغير المؤمنين، العاشقون
للموسيقى والشعر والماء والرقص، وغير العاشقين، كاد جمعة
الأمير من هذه القاعة الأخيرة، يرون أن صوت الموسيقى يطرد الله
من قلوب المؤمنين، كانت الفتوى قد أصدرها الأمير بحريم هذه
الفنون الضالة، التي هي من وحي الشيطان، مع ذلك ارتفعت
أيديهم بالتصفيق، كانت عيونهم تلحظ حركة الأمير وهو جالس في
مقعده، إن ارتفعت يده بالتصفيق ارتفعت أيديهم، إن تسمل في
مقعده وانتقل مركز ثقله من ألية إلى ألية فعلوا مثله، إن تهده
بصوت غير مسموع تهدهوا، إن رمجر بصوت خافت زمجروا، إن
امتدت يده نحو المستن في سجيبة امتدت أيادهم إلى جيوبهم،
حتى سائفه محمود للجالس أمامه، كان يلتحظه بجانب عينه
البسرى، أفنه للبسرى مشرقة مرهقة تلتقط أنفاس الأمير، إن
أسرعت أنفاسه وإن أبطأت، مع دقائق قلبه تحت ضلوعه، وحركة
الدم في عروقه من قمة الرأس إلى طلي القدمين

كان السائق الخاص أقرب الأصوات إلى الأمير، وهو أكثرهم
معرفة بأسرار الأمير وحياته الخاصة، فهو الذي يقوده بسيارة إلى

حيث يريد بالنهار أو الليل، بأحده إلى الجامع يوم الجمعة لأداء الصلاة الجماعية، يوم السبت يأحده إلى مقر الجماعة لحضور المجلس الشامي، يوم الأحد يحمله بالسيارة إلى النادي ليلعب الحولف، مع أفراد العائلات الكريمة، أو يرافق أفراد أسرته في رحله إلى الهرم أو العيرون أو شاطئ البحر العبد غرب الإسكندرية، بعيداً عن البحر الملوّث بمجاري المدينة، هناك في القلعة الأنيسة على الساحل الشمالي، ماريات أو ماريات، أو بدو، والهدى والمدينة المنورة، على الطريق الصحراوي ما بين الإسكندرية ومرسى مطروح، كان الأمير يتجرد من ملابسه ليسبح في المياه الزرقاء بلون السماء تحت أشعة الشمس الذهبية. نزع زوجته الجالسة تحت غيمتها السوداء عينيّين سوداوين مملوءتين بالحبس، يفتح زوجها الأمير ذراعيه وساقيه لمياه البحر المنعشة، يلبط ويتمزغ في أشعة الشمس، ويتراقص تحت الماء، وزوجته جالسة في مقعدها يتصيب جسدها عرقاً، يخرج من أنفها ومفها وعيها لعاب أو دخان سائل يشبه الدموع. على مسافة غير بعيدة من وراء السور، على الشاطئ المخصص للخدم والطباخين والسائقين والجارية، ومعسكر الشباب المؤمى الصيبي من الحيام، كان السائق محمود يمشى فوق الرمال، مرتدياً مايوه منعقد الأكوان، أحمر وأحمر وأزرق وأصفر ونفسجية، المايوه الإسلامي الذي لا يكشف عن محدّي الرجل، يهبط المايوه الذكورى ليغطي الركس، لكنّ المصوّر الذكري المجلّ سعادة القضيبي يور متصباً تحت فماش المايوه المنوّز المطاط، لا يعيب الرجل أن يكون له قضيب متمرد لا يعرف التقوى أو حشة الله، لا يعيب الذكور أن

مسيحوا في البحر بالمايوه، أما النساء فإن وجوههن عورة مما بان للعنفين أو السائقين أو حتى الدراعير، أمسى الأمير أن صوت المرأة عورة أما جسدها فكلّ جزء فيه عورة حتى الرأس مركز العقل والتفكير.

كان الشوبير محمود يذللّ شعر صدره الأسود بيديه تحت أشعة الشمس، ثم يلقي بنفسه في مياه البحر، يفتح ذراعيه وساقيه للهواء والماء كما يفعل سيّد الأمير، يلبط ويتمزغ ويتراقص تحت الماء، يحمّد الله لأنه خلقه ذكراً وليس أنثى مثل زوجة الأمير وغيرها من النسوة المنتهيات عرفاً تحت الشمس، خلقه الله سائقاً فقيراً وليس أميراً ثرياً مثل سيّد الأمير، لكنّ الله خلقه ذكراً وليس أنثى والحمد لله، يقول لنفسه أو يخاطب الله وهو يرمق الزوجة الجالسة تحت الخيمة السوداء تحت الدخان من عينيها وأدبها.

- أشكرك يا رب على النعمة، الفقر ليس هيباً يا رب، فأنت صاحب الأوراق، تخلق الغني وتخلق الفقير، تخلق الصالح وتخلق الفاسد، لكنّ النسوة أسوأ السفوفات. النسوة حليقات الشيطان كما سمع من أبيه وجدّه، النظافة من الإيمان والوساخة من النساء. يعرف السائق عن حياء الأمير أكثر مما تعرف زوجته، يضاعف له الأمير المكافأة ليكنتم أسرار، يعرف السائق مساوئ صوت البقاء والغواني، وأين تسكن عشيقات الأمير من الإماء والمجاري، ومن ملكت الحبس، يحفظ مساوئهم وأرقام التلغرافات في نوقة صغيرة، يكتب أسماءهم بخط متعرج يشبه خطوط الأطفال في المدرسة الأولى، لم يدر السائق مدرسة في حياته،

علمه الأمير شيئاً من القراءة والكتابة، دَرَبَهُ على قيادة السيارة، وقراءة أرقام العناد بالحروف الأجنبية، دَرَبَهُ على قراءة القرآن وحمل السلاح، وإصابة الهدف في معسكر التدريب، وتدوين أرقام النسوة في النوبة، وجدول الصرب والطرح والجمع، لعمل حسابات المصاريف والبرين والمكافآت والهدايا السرية. كان السائق محمود أقرب شخص إلى الأمير، أقرب إليه من زوجته، يمكنه الاستغناء عن الروجة، أو استبدالها بزوجة أخرى، لكن السائق لم يكن له بديل، كان كاتم الأسرار، المحارص الخاص للأمير، يلازمه نيل نهار، يكاد يدخل معه إلى المرحاض لولا الحرج، يقف أمام الباب الممنع متصاً متهاً حتى يقضي الأمير حاجته، كان الأمير يقول مثل بقية خلق الله، يسمع الشوفير صوت خرطوم بول الأمير، يضرب سلطانية المرحاض من السيراميك انفساح المستورد من أوروبا، من بلاد الكفرة الأجانب، يطرد اناث محمود هذه الأفكار التي يهمن بها إبليس في أفذه، لكنه يتنهم حين يسمع صوت بول الأمير، يشبه صوت بوله هو السائق الفقير، يتساوى الأمير مع البشر حين يبول، إنه الله لا يفرق بين العبد الفقير والأمير، سبحانه في السماوات العليا، الإله العادل.

بعد انتهاء العرض دس الأمير في يد سائقه ورقة صغيرة مطوية، يحفظ السائق المهمة عن ظهر قلب، يلتقط الإشارة بطرف عين، ينهض من مقعده ويسير نحو خشبة المسرح، يشق طريقه نحو زينة بنت رينات، من حولها يتجمع المعجبون والمعجبات، رجالاً وساء وشباباً، يصاحبه يداً يده، توقع ناسها على ديوان

شعرها الجديد، أو إحدى أعانيه لأحسرة، أو الموسيقى التي تؤلفها للأعاني. يتجمع من حولها أطفال الشوارع أولاداً وساء، تمنحهم فرقة مريم حق الدخول إلى المسرح دون تذاكر، يحمل كل منهم كارنيه صغيراً، يحمل صورته واسمه، ليس في الكارنيه حانة لاسم الأب المجهول، يمكن الطفل أو الطفلة أن تكتب اسم الأم، يحظى اسم الأم بالشرف الكامل في فرقة مريم مثل اسم الأب، ليس في الكارنيه حانة للديانة، لا تفرق فرقة مريم بين دين ودين، كان رجال البوليس يطردون الأطفال في الشوارع، ينزعون منهم الكارنيهات، يلعبون بها في ماء المحاري، يأخذون الأطفال داخل العربات المصقحة إلى البحر أو التخب، تنفون الصرب والصعفات والركلات بكعب الحديد، يملأون أذانهم الصعيرة المرهقة بأشع أنواع الساب، من أول يا أولاد الربى إلى يا أولاد القحبة والشموطه، يرقد الأطفال على الأرض في عرفة واحدة مع كبار القتلة، وتجار المحفترات والفتواديس والحشاشيس، يعتدي الذكور الكبار على الأطفال، يتم الاعتصاب في الليل داخل الصمت، تدوب صرخات الطلعة أو الطفل في الشجر الذكوري العليظ، من الأنوف المسدودة والأفواه المفتوحة، والعيون المغلقة إلا عين الله الساحرة التي لا تنام، مفتوحة كالفسجان، ترى وتشهد ما يحدث للأطفال، دون أن تدخل في ما لا يعنيها، يخرج الأطفال من السجون إلى الشوارع، لا ينظرون إلى مائدة الله في الساء، ينظرون إلى الأرض، ينشون صماتح القمامة مع القلط الشاردة والكلاب، نصمهم زينة بنت رينات إلى حصص، تسجل لسانهم في فرقة مريم، يدس الأطفال بأقدامهم الصعيرة الحامدة

على الإيقاع، نرى الموسيقى في أجسادهم دفقة كالدم في
عروقهم، كالنفس في لذي الألف، نهتز أرواحهم مع أجسادهم
بالنفس، يعثون ويرقصون ويفعلون فرحاً في الهواة، تنطح
رؤوسهم فيه السماء، يهبطون إلى الأرض ثم يحلقون في الفضاء،
يصعدون ويهبطون ويصعدون ويهبطون، يدورون حول زينة بنت
زيات وهي ترقص وتغني، يدورون ويدورون دون توقف، كما
تدور الأرض حول الشمس.

منذ السائق محمود ذراعه الطويلة نحو زينة، كانت الورقة
مطوية في يده، سلم إليها الورقة واحتضت بين الصفوف، وضعت
رئيسة بنت زيات الورقة في جيبها دون أن تفتحها، كانت تنهكها
بالحديث مع الناس المحيطين بها، كانت تضحك وتلقي برأسها
إلى الوراء، ترون ضحكها بصوت يشبه الموسيقى، تضحك بكل
قوتها على الضحك، مثلما تعني بكل قوتها على الغناء، مثلما
تعرف بكل قوتها على المعروف، مثلما تشد الشعر بكل قوتها على
إشاد الشعر، تفعل كل شيء بكل قوتها، بكل ما فيها من جسد
ودرج وعقل، يرون صوتها في الكون لا يشبه أي صوت، لم يسمع
أحد ضحكة مثل ضحكها، ضحكة امرأة امتلكت نفسها، لم تعد
مملوكة لأحد، امرأة أهدت من قبضة الفضاء والفرد، من قبضة
السماء والأرض، من قبضة الزمان والمكان، ترون ضحكها حرية
غير مألوفة، مثل حلم السعادة غير المفهومة، مثل حلم الحب
المستحيل، مثل لغز الحياة الحية الأئمة الشريفة،

يرتج جسد أحمد اندامهيري في مقعده حين يسمعها تضحك،

تنشله ضحكها من حزن دفين في جسده منذ الطفولة، من ألم
عميق يسكن روحه منذ كان في المدرسة الابتدائية، منذ كان
الغلام يضربونه على قعداه في المرحاض، يكتسبون اسمه فوق
الجدران بالطباشير

- أحمد الدامهيري أبو زمارة.

صوتها وهي تضحك يسمي في أذنيه دائماً مثل لبن أمه، يرفع
روحه وجسده إلى السماء، يمسك قطعة من الشمس في يده،
ينسى الألم والحزن، يكاد يضحك معها بصوت عالٍ، كان قد
نسي الضحك، حتى سمعها تضحك، انتقل إليه عذوى السعادة،
سمع نفسه يضحك كأنما لأول مرة في حياته، إلا أن صوته لم
يطلع.

في لحظة من لحظات اليأس الأسود كتب إليها رسالة أخرى،
كم رسالة كس؟ كم مرة تقدم نحوها السائق محمود ماذا ذراعه
الطويلة بالورقة المطوية، عشرين مرة، ثلاثين مرة، خمس،
مائة، ألفاً؟

لم تكن زينة بنت زيات تفتح هذه الرسائل، إن فتحتها تفقد
بظرة واحدة، من السطر الأول حتى الأخير، ثم تلقي بالرسالة في
سلّة المهملات، هي تعرف هذا النوع من الرجال، يظن الواحد
منهم أنه غادر على امتلاكها، أنها واحدة من الشواني أو الإماء
والجور، ما إن يشير إليها حتى تأتي إليه، رجل يملكون كل
شيء في الدنيا والآخرة، وهي لا تريد أن تملك شيئاً إلا صوتها،

إلا أصابعها، والحناء، تريد أن تعرف ونفثي وترقص حتى تموت
وافقه على حشة المسرح

لم تكن ربه بت زينات ذات جمال باهر، لا ليس الجمال ما
جذب العيون إليها، بل شيء آخر غير الجمال، غير معروف،
شيء يشع من حولها على شكل موجات من الضوء، لا ليس
الضوء، بل موجات من الوجود، كان لها وجود يمتد عن أي
وجود، ذلك الوجود الذي يشمل المكان والزمان فلا يحس وجوداً
آخر.

يرى أحمد الدامهيري وجودها في عيون الآخرين، تنعكس
صورتها في عيونهم فلا يرون غيرها، يكتسب المكان بحضورها
بوعاً من الوجود الحي، يتحول المكان إلى كائن حي، تسري في
المكان موجات حية، أو حيوية ما تشبه الكهرباء، أو المعاطيس،
جاذبية ما تسري من حبيبتها وصورتها إلى كل ما حولها فتعم
المكان، خشبة المسرح لا تعود خشبة، بل حية في حد ذاتها، هي
تلامسها بقدميها وهما تدان فرق الخشبة مع الإيقاع

لم تكن زينة بت زينات ترتدي ملابس الحفلات، لا ثوباً
يلمع، ولا جواهر تشع، بل ثوباً أبيض من القطن المصري الناعم،
حداؤها من الجسد المصغر ليس له كعب، لا يتم مظهرها عن شيء
غير هادي، مظهر هادي تماماً، وغارق للنعاده بسبب هادته
بسطه، مسطرة الشمس حين يضح وحين تعب، لا تكف عيناه
عن التمتع إليها، الحملقة بها، يريد أن يعرف سرها، أن يهك
بعرها، يفتك أوصالها ومفاصلها كما فعل مع الدمة المروسة وهو
طفر

تبدو النساء من حولها كالعرائس، كالدمى، مصنوعة من
الشمع أو الصلصال، مدهونة بالجير الأبيض والأحمر، والأحمر
وكل الألوان، مرسعة بالخوائم والأساور والعقود، والسلاسل
الذهبية، تشابه النساء هي الحركة والشكل والصوت، مثل العرائس
المتحركة، خيوطهن في أيدي غيرهن، تمسكهن من العنق، أو
الذراع أو الساق وتحركهن في أي اتجاه.

في عدوة الليل وهو غارق في النوم ينتلع أحمد الدامهيري
شهوته السوداء، الساردة كالثلج الأبيض، يتحير زينة معه في
العرائس، عارية مستسلعة تحت جسده، متأزعة باللذة والألم، ثم
تيكي تحت رقلمه كغيرها من النساء.

لا تستبد به الرغبة الآتمة فيها إلا حين يسجد بين يدي الله،
بعد أن يتناول طعام العشاء، ويدخن شيئاً مما يذهب المحزن
والاكتئاب، أو ينتلع حبة من حبوب السعادة، التي كتبها له الطبيب
النمسي، بينما هو مساجد فوق مسجدة الصلاة، ترحف إليه الرغبة
الآتمة مثل ثعلب، مثل الحبة التي أغرت آدم وحواء، تزحف على
بطنها لتلامس بطنه الممتلئ بالطعام، بالدم الهارب من رأسه بعد
الأكل، الدم الهابط عبر العنق والصدر إلى أسفل البطن، يرحم
الدم ساخناً تحت شعر العانة الأسود، الذي كان غريباً في
الشباب، كان يحلقه بالموسى، ثم أصبح يتناقص مع الزمن، ينتعج
العضو الصغير تحت الشعر، ينتصب رأسه الممدد يشم الأشياء،
تفرغ خلايا عقله من الدم، يصبح رأسه حادياً مardاً، وحسده
ساخناً ملتهباً بالإثم، يلصق جنته بالأرض، يدعو الله أن يبعد عنه
الشياطين والفجوات، يسمع في أعماقه صوتاً يشبه صبح إنس

- إذهب إليها يا رجل، إنها امرأة مثل غيرها من السوان،
ناقصة عقل ودين، صميمه أمام شهواتها، إن أثارها رجل نبذت
فواحها، أباح الله لك من النساء ما تشاء، فأنت الأمير، مندوب الله
فوق الأرض، إذهب إليها الليلة، أفرغ في جسدها عذبة الشيطان،
لنتمتع أنت في العبد لأعمالك الجلييلة، سوف تفتتح غداً المؤتمر
الدولي للحوار بين الأديان، سوف تلمي خطبة ضد الكفرة الذين لا
يؤمنون بالله والكتب السماوية الثلاثة، العزقة والإنجيل والتوراة،
أرسلها الله هدى وموراً للعالمين، إذهب يا رجل إليها، لا تتردد،
لا تخف، فأنه معك في كل خطوة، الله يتصرك يا أمير ولا ناصر
ولاً الله، الله هو الحب والجمال، الله جميل يحب الجمال،
الموسيقى الجميلة، الصورت الجميل نعمة من نعم الله، لماذا تحرم
الموسيقى والرقص والغناء يا رجل؟ لماذا تنافي وراء ذلك الشيخ
الأعمى الذي لا يرى الجمال لأنه أعمى، الذي يقول إن التماثيل
حرام، وإن الذي يسمع الموسيقى قبل النوم لن يشم رائحة الجنة،
وإن صوت امرأة الجميل يصرف ذهن الرجل عن عبادة الله، إن
وجهها الجميل إن لم يختلف وراء التعجب يطرد الله من قلب
الرجل المؤمن، المشكلة إذن في قلب الرجل المؤمن وليس في
وجه المرأة، المشكلة إذن في عقل الرجل المؤمن وليس في
صوت المرأة، إرفع رأسك يا رجل من فوق الأرض وادع إليها،
إنها امرأة مزمعة مسلمة، ليست مثل تلك المرأة القبطية الملعوب
التي أخرجت شاباً من المسلمين فترك الله والرسول من أجلها، هذه
امرأة الملعوب التي فحرت الأمة بين المسلمين والأقباط في
الإسكندرية، هؤلاء السوء سبب خراب القبط، سبب العقر

والحرق والفتن الطائفية، إن كبدتم عظيم كما قال الله في كتابه
الكريم، يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين، إن كيد الله
أكبر من كيدهم يا رجل، سوف يحميك الله من كيد أي امرأة،
الله يتصرك على أعدائك، يستد خطاك، لا تيأس من رحمة الله،
تشجع يا رجل وادع إليها، خذ معك حارسك الخاص،
ومسلمك في جيبك، لا تخرج من البيت دون حارس ومسدس،
قاله يقول إسبح يا عبد وأنا أسمى معك، واحرم نفسك يا عبد
وأنا أحرمك، والله لا يغير شيئاً في قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.
همس في أذنه الشيطان:

- وما فائدة الله إن لم يفعل شيئاً إلا بعد أن تفعله يا أحمد يا
دامهيري؟

طرد أحمد الدامهيري الشيطان الفايح عن يساره، كان الشيطان
يقع إلى جوار أذنه اليسرى وهو ساجد بين يدي الله، يحاوره
ويراوغه، دون منطق ولا عقل، إن كان الله يحرمه قبل جدوى
المسدس والحرص؟ إذا كان القرآن والإنجيل والتوراة من عند الله
فلماذا تقع هذه المذابح بين النصارى واليهود والمسلمين؟ وإن

وإن...

يشوح أحمد الدامهيري بيده في وجه الشيطان، يرفع جسده
عن سجدة الصلاة، يدخل إلى دورة المياه، ينظر إلى وجهه في
للمرأة فوق الحوض، كلما لمس النظر إلى وجهه تماقمت ثغته
بفسه، لا يحث هذا الوجه خافضة الأسف والدمع، الشفتان
المتعرجتان في بلاهة، أيمكن أن يقلبها بهاتين الشفتين؟ أسد كيرة
صفراء، تفوح من فمه رائحة المبيح والسطرمة بالشوم، يدعك

أسنانه بالمعجون الحديد، له نكهة المصانع، يتحضر ويغمر حلقه
بالسائل الأزرق، العائل لجراثيم اللحم، يغسل جسده تحت ماء
الدش الدافئ، بذلك صدره الأملس دون شعرة، تهبط يده إلى بطنه
بذلك فضلاته، نهبط أكثر إلى الفأر الصغير المتكشم بين فضله.

تلمحه زوجته وهي تمر أمام المحكم، كان يترك الباب
مفتوحاً، لا يعلق الباب عليه وإن جلس فوق المرحاض، يمشي
أمامها عرياناً، يتجشأ أمامها بصوت عال، يلعب بإصبعه في أنفه،
يهرش ما بين فخله، كان الحياء يتناقص مع فرايد المسير داخل
بيت الروضة، حتى ربح الحياء في العلم وبعه الشهرة، لم تعد
بهتر في جسده شعره إن لامس روجه، إن تعرت أمامه كما ولدتها
أنها، أصبح تديها كبيراً مهذلاً فوق مظهرها يشبه ثدي أمه

سرت رائحة الكولون الفاحرة إلى أنف زوجته من خلال باب
الحمام المفتوح، أدركت أنه في طريقه إلى صهرة حمراء مع امرأة
جديدة، وسر إلى اجتماع المجلس التنفيذي في مقر الجماعة.
كان يشفق على زوجته من قول الحقيقة، يؤمن بالآية الكريمة أو
المبدأ العظيم، أظهروا محاسنكم والله أعلم بالسرائر، والله لأدري
بالنيّات

كانت بدور الداميري تتقلب في فراشها مؤرقة، تطاردنا في
الحلم أشباح الرواية، حاضنة بدوية بظلة القصة، وهي امرأة عبدة
قوية الشكيمة، لا إله لها ولا رئيس ولا زوج، أنفست الآن قرب
رجلاً بعد حبسها الأول، نعم، فتلوها في المسجد بعد العظاهرة
الكبيرة، قبل طلوع المعجر بعد أن أودع فيها بدرة الحيلة، لم تكن

بدرة امرأة من لحم ودم، كانت خيالاً يمشي فوق الجدار، يحترق
الجدار والياب المعلق والباعة الموحدة، كانت روحاً تحلق عالاً
في السماء وتهبط إلى بطن الأرض حين نشاء، تكشف الحجاب،
تنفذ من السطح إلى ما يفوق في القلوب والصدور والأحشاء،
هنا مفتوحة لا تنام تقرأ الغيب مثل عين الله.

لدرت بدرة أن أحمد الداميري في طريقه إلى ربة بنت
ريثان، ينوي اغتصابها بأي شكل، أو قتلها إن قاومت وهاندت
وتكثرت، كانت بدرة تعرف سجل حياته منذ الطفولة، وكيف
تسرب الإيمان إليه بعد الشك، كيف يتأرجح بين الشك واليقين،
بين اليسار واليمين، بين الله والشیطان، كيف كان ماركسياً ملحداً
ثم أصبح إسلامياً ممسوماً بالإيمان، كيف أصبح عصواً في حزب
الجماعة الدينية السرية كما كان عصواً في الحلية الشيوعية تحت
الأرض، كيف تمت الرمية فوق جيبه والسحبة بين أصابعه، كم
من الأموال اختلسها، كم من النساء اعتصهن، كم من الأرواح
أزغها وقطها، كانت بدرة تعرف أنه يحمي ماله والرسول، بلوح
بالمصحف والسلاح في وجه من يحالعه، تسمعه يبكي وشن فوق
أريكة الطبيب النفسي، نسري إليها حملات قلبه المتصاعدة تحت
ضلوعه حين تقع عينا على زينة بنت زينات.

نهض بدرة في أدن بدور النائمة.
- أحمد، ابن همتك سيقول ابنتك زينة، انتهي يا بدور،
إنهي من الفرائش، أقتله قبل أن يقتلها.

تقلب بدور في السرير العريض مؤرقة، ترى زوجها إلى
جوارها يغط في النوم، صوت شحيره متواصل مستظم، يشبه

صوت الرمن يحرك عقارب الساعة، يشبه عين الله تدور مع دوران
لأرض، وعين إبليس الساهرة، وجهه شاحب مثل أصحاب
الاعمدة في الحريدة، رماديّ بفوق الدخان المدحرج من فتحي أمه،
يصبح السيجار شامخاً برأسه إلى السماء، يعاتب الله الذي حرّمه من
لموهبه، الله جعل موهبته أقل من مواهب الآخرين، خاصة
محمود الفقي، زوجته تقرأ عمود محمود العمي قبل أن تقرأ
عموده، تقول عنه كاتب موهوب، ترفقه بطرف عيها وهي تنمش
في المادي، جسمه طويل ممشوق، يمسك المضرب بأصابع قوية
صلبة، مثل كدماته في عموده، مثل عضلات قضيبه، يضرب الكرة
بقوة أربعين حصاناً لتطير في السماء ثم تسقط بعيداً جداً لا تكاد
العين تراها، تصفّق له زوجته بدور وتقول له.

— برافو يا محمود، برافو يا محمود.

تناديه باسمه محمود دون حرج، يناديها بدور دون لقب، يقرأ
عينيها عموده قبل أن يشره، تقرأ عليه بعض صفحات روايتها
السرية، تخفيها عن زوجها كأنما وصيتها السرية بعد الموت، مات
أبوه بسرطان الخصية المتسرّب من رأس القضيب. في العائيم
جلس إلى جوار أمه يستمع إلى ترنيل القرآن، كان في الثامنة من
عمره، أمه ترندي ثوب الحداد الأسود على أبيه، تنسج بكاء
مكتوم، ارتبط الموت في طمولته بقراءة القرآن، وكثرة الرّوار،
والصحف الكثيرة المثلثة بالطعم، يتشتم رائحة البحار المتصاعدة
من اللحم المشوي، تسري في أديمه التلاوة بصوت ماعم ماعم، مع
رائحة الشواء الشهوي، نصحو شهوته للأكل مثلث تصحو أيام
الصبيم في رمضان، حين يتظر مدفع الإفطار بليلهم الطعم، بشر

ملائم إن احتلس رشعة ماء قبل انفلاق المدفع، أو خرجت من
أمعائه ربح وهو يركع بين يدي الله

كانت وصية أبيه فصحة، عجبة أكثر من موته، كانت له
روحة أخرى في الحفاء، أنجبت منه ولدان اثنين، شريكه الولدان
في ميراث أبيه، وشارك أمهم أمه في البيت والعقار، جمعت أمه
الحداد والخمار، اوتدت ثوباً ملوئاً، وصغت في شعرها وردة
حمراء، أطلقت زغرودة معدودة في الأفق فرحاً بموت أبيه، كان
يحب أباه وهو طفل، يتنافس حبّه لأبيه كلما كبر وعرفه أكثر، لم
تظهر حقيقة أبيه إلا بعد أن مات، وأصبح مثل أمه يكره أباه، يفرح
بموته، مع ذلك أصبح نسخة طبق الأصل عنه، في الشكل
والجوهر، في السموك العنسي والسري، في النشاط الحزبي
والجنسي.

كان ركريا الخريتي يخط في النوم حين تسلفت بدور من
جواره، سارت على أطراف أصابعها إلى غرفة مكتبها، أحداث
الرواية تدور في رأسها، تسري في جسدها رغبة، تشبه حتى
الصلابة، تنقل عضلات وجهها، مثل مريض نفسي يتنقى جلسة
كهربية، أو محكوم عليه بالإعدام داخل الكرسي الكهربائي، يتجمد
القلم في يدها، لا يتحرك فتمها فوق الورق، عقلها واقف، مثل
تزوجت ركريا الخريتي ترقف عقبتها عن العمل، تزوجت رجلاً لا
تحبه، كانت تحت رجلاً آخر مقتولاً، غير موجود إلا في الحان،
أو العظم، الحث لا يكون، لا في الحان، يأتي الحث على شكل
أحراء في الجسم، أو صفحات في رواية، من هذه الصفحات
المنفردة، من هذه الأجزاء المعثرة يصنع حالها رجلاً آخر، يعلو

المراعات من الأحرار حروف فوق السطح، أو من السطور، أو تحت السطور، يتشكّل الحب الذي تريد فوق الورق، ترسم ملامح الرجل بالحبر، ملامح مبهولة لا تعرفها، كلما قلت معرفتها بالرجل زاد حبها له.

كان زوجها زكريا المخزومي يطبخ على وجهها قبة، تحية الصباح كل يوم، يتناولان الفطور إلى مائدة واحدة كل يوم، وكذلك الغداء، والعشاء، يقول لها بأدب الطبقة العليا الخالي من الأدب:

- من فضلك ناديني الحبز.

تمدّ له يدها تصحن الحبر المحقق في انصاف، يتسم لها ويقول

شكر

تبادله الانعام وتقول له بأدب الزوجات من العائلات الكريمة

- لا شكر على واجب.

يرمقها بنظرة مزودة ناعمة تشبه الحب، تبادل النظر بسطرة مشابهة، وحركة رأس مشابهة، تشبه رؤوس العرائس، المشدودة بخيوط غير مرئية من أعلى المسرح.

تنفل رأسها بالنوم وهي جالسة ممسكة بالقلم، يذهبها النوم وهي تكتب الرواية، تحب النوم أكثر من الكتابة، في أهدائها تكره الكتابة كما تكره زوجها، لا تستطيع أن تنوح بالسر لأحد، حصلت على جائزة الدولة في الكتابة، أصبحت تحمل لقب الكاتبة

الكبيرة، مثل زوجها الكاتب الكبير، وبنتها محبة الحرمني الكاتبة الكبيرة، حصلت على جائزة الأتم المثالية في عيد الأتم، والروحة المثالية في عيد الزواج، ورفيقة السيدة الأولى في العيد العالمي للنساء، يسقط رأسها ثقباً فوق المكتب، يحدث صوتاً مسموعاً مثل قطعة حجر تسقط، جسدها يرتعش في امتزازات مثالية، تمدّ يدها إلى الرز في الحائط تقطع نثار الكهرباء، تهمس بصوت متحشرج متقطع، لأناس.

- أرجوك يا دكتور، كفاية، مش عاوزة جيسات كهربية، عصي سخ من الكهرباء يا دكتور، دكرني خدع مش عاكرة حاجة خالص في حياتي

- هو ده المصنوع يا بدور، لازم تسي، السيان هو هدف العلاج

- انسيان حظير يا دكتور، الرواية طارت من دماغي، مش عاكرة حاجة منها خالص، لا يمكن أكتب الرواية إذا صاعب الذاكرة

- صحتك يا بدور أهم من الرواية، في سقين داهية الرواية يا بدور

- الرواية أهم من حياتي يا دكتور، في سقين داهية حياتي.

- في سقين داهية كل حاجة إلا صحتك يا بدور.

يأتيها صوت الطبيب وهي غارقة في النوم، أو مستغرقة في الكائن، تدرك أنه الألم، ليس إلا الألم ما يدفعها إلى الكتابة، وهو الألم ذاته الذي يصعبها من الكتابة

تشد حمورها، تمنح عبيها، ترى زوجها يخطئ إلى جولها في
النوم، شحيره متواصل منظم مثل دقائق الساعة، تمتد ذراعها من
محت العطاء، منصرب الساعة ضربة قوية، وتلقي بها من فوق
الكومدينو إلى الأرض، يفتح زوجها عينه على الصوت، يصحو
من النوم، ويصرخ في وجهه

- نكسري الساعة له كدم؟

- لأنني مثل قاذرة أكسر واسك.

هذه العبارة الأخيرة لا تخرج من فمها صوتاً مسموحاً، بل
حروفاً صامتة من الحبر الأسود فوق الصفحة البيضاء، تطل بدرة
بعينها الغاضبتين من بين الأوراق، تحت المصعب نظرة لزوءاء، لا
تفهم بدرة هذه المرأة التي اسمها بدور المذمهي، هذا الحرف
الذي يقع في أحشائها منذ الطعنة، هذا الرعب الذي تعيش به في
شبابها وكهولتها، لا شيء يشل عقلها إلا الرعب، لا شيء يمجرها
من الكثاية إلا الرعب، ما الذي يربها إلى هذا الحد؟ أم والله أم
الشیطان؟ أم زوجها، مندوبها على الأرض؟

منذ المدرسة الابتدائية كانت بدرة أكثر شجاعة من بدور، لا
تتردد في الطق بما يدور في عقلها:

- لماذا خلق الله الأقباط والمسلمين، لماذا يعترف الأقباط
بأنهم يمسحون إذا كان الله يعرف ما في الصدور والنفوس، لماذا
تقف النساء خلف الرجال في الكنيسة، ويعرض عليهن الصمت،
لماذا يصلي المسلمون خمس مرات في اليوم، لماذا لا تكون ثلاثاً
أو أربعاً، لماذا يترشح الرجل أربع زوجات والمرأة روحاً واحدة؟

لماذا يحظى الرجال في الجنة بالحوريات من الإناث، ولا تحظى
النساء بالحوريتين من الرجال أو الحور المذكور، لماذا يكون لاسم
الأب الشرف، ويكون لاسم الأم العار؟

فرأت بدرة في المرآة آية نفوس، الجنة تحت أقدام الأنهار،
كيف تكون الجنة تحت أقدام الأنهار وأسماءهن تجلب
العار لأطفالهن؟

كانت بدرة أكثر ذكاء من بدور، تكتب بلغة أجمل من لغتها،
تحفظ آيات الشعر أسرع منها، تحل مسائل الحساب بأكثر كفاءة،
لكن بدور كانت تحصل على جائزة التفوق، وهي لا تحصل على
شيء، تعصب بدرة من المدرس، تجادل بصوت عال، تثبت له
بالدليل أن درجاتها أعلى من بدور، ينفذ مدير المدرس، يقول
لبدرة:

- إن جيتي الذهب من ذبله أعطيك الجائزة، إن جيتي تراب
الجنة أعطيك الجائزة.

كان يصرفها عنه، مدفوناً عجزها عن فعل هذه المعجزات.
في اليوم التالي أحضرت له بدرة علبة من البلاستيك وقالت
له،

- ده تراب الجنة.

فتح المدرس العلبة، رأى تراب داخلها.

- منين جيتي التراب ده يا بنت؟

- بعد ما أتت عشيت علي الأرض لتست السراب سايدي
وحليته في العلبة

« مبن حال إن ده تراب الجنة؟ »

إنت يا محمد أمدي، فلت لنا في المحقة التي فانت إن
الله حال إن الجنة تحت أقدام الأنهار.

وعم هذا الدكاء لم تأخذ بدرية المجاورة، اتهمها المدرس
بالمسحرة من كلمات الله، وكذب الجوائز في المدحوس مثل جوائز
الدولة في الأدب والعم، لا تعطى بسبب الدكاء أو الكفاءة، بل
بسبب صلات الرحم والقرابة.

سمعت زينة بنت زينب هذه المفضة من أبله مريم، كانت أبله
مريم تحكمها للتلميذات، تقول لهن إن الكفاءة هي الأساس وليس
العائلات، إن اسم الأم يجلب الشرف للأطفال البت والأولاد،
لأن الجنة تحت أقدام الأنهار.

« الله يرمز إلى العدل والجمال والمحبة والحرية، لا فرق بين
ولد وبنات أو مسلم وقبطي أو غني وفقير، الصدق فضيلة والكذب
رديلة، لا أحد يكذب على شخص دون أن يكذب على نفسه، لا
أحد يقتل شخصاً آخر دون أن يقتل جرمًا من نفسه.

كانت زينة بنت زينب تذهب إلى بيت أبله مريم، تتدرب كل
يوم ثلاث ساعات على العزف والعناء والرقص، تناول طعام
المساء مع أبله مريم قبل أن تعود إلى بيت أمها زينب، تعلم أبله
مريم حقيقتها بقطع الحلوى، وكس الموسيقى، ودواوين الشعر،
ومعصن وروايات، تقول لها

« اسمعي يا زينة، أنت موهوبة، وكمان عنك صبر على
تدريب الطويل، العبقرية هي صبر طويل يا ابنتي، أنت

مخطوطة، لأنك عرف الأكم، وعرف السعادة، لا يعرف السعادة
إلا من عرف الأكم، إبحري بأمت واسمك زينة بنت رباب، اسم
الأم أكثر شرفاً من اسم الأب، لأن الأب ينحني عن أطفاله من
أجل نزوة جنسية، لكن الأم لا تنحني أبداً عن أطفالها، إلا إذا
كانت مريضة نفسياً أو فقدت عقلها.

يرتمس العلم بين أصابع بدور، تتوقف عن الكتابة، هل هي
مريضة نفسياً؟ هل فقدت عقلها؟ كيف تركت مولودها فوق
الرصيف وعادت لتنام في فراشها؟ أياكون الخوف من العار أشد
قوة من هزيمة الأمومة؟ أيهما أكثر أمومة، الأم التي تختنق طفلها
خوفاً من الفضيحة أم الأم التي تتركه فوق الرصيف حيّاً؟ وماذا
تقول عنها زينة بنت زينب إن اعترفت لها أنها أمها؟ وماذا تقول
الناس؟

تسلقت بدور حولها في حيرة، صوت بدرية يخاطبها في
أعماقها.

« إدمي إليها، اعترفي لها، أخذتها في حضنك وحضنها،
افرمي الدموع فوق صدرها وقربي لها، سامحيني يا ابنتي،
سامحيني، سوف تسامحك زينة بنت رباب، لأن قلبها كبير،
سيصبح لها بدل الأم الواحدة انسان، مع الأم الثالثة أبله مريم.

تطرد بدور بينما ذلك الشيخ، تصدر صوت بدرية وصورتها،
بأنها تشيجها المتحشرج في صدرها

« الموت أهون من العصاة يا بدرية، وما حدود الاعتراف
بالحقيقة بعد كل هذه السنين، لم تعد زينة بنت رباب في حاجة

إلى هذا الاعتراف، ربة ينس حيانها وسعادتها دون حاجة إليك يا بدور، أنت يا بدور في حاجة إليها الآن، تشدين تعويض مثلث في الكتابة، مثلث في حيانك كلها، تحاولين علاج نفسك من الحزن والاكثاب، دون جدوى، دون جدوى، كان يجب أن تفعل ذلك منذ زمن بعيد، راح الوقت وضاع الأوان، لن تعيدي عقارب الزمن إلى الوراء.

يأتيها صوت بديرة تقول،

- لا شيء اسمه بعد الأوان يا بدور، عقارب الزمن يمكن أن تعود إلى الوراء، اقربي قلباً في علم الكون الجديد، سيعود الزمن إلى الوراء مع تغيير حركة الكواكب، والأرض حول الشمس، سنعود إلى الشباب يا بدور، لن يكون هذا مستحيلاً في المستقبل، لم يُخلق الكون في ستة أيام ولا المرأة أنت من صلب آدم، بل جاء آدم من رحم امرأة، أصبح العقل هو المستقبل ولن المحرصات

هي طريقه إلى ربة كان أحمد الداهيري يعاني القلق والاضطراب، النشوة والشهوة، الشرقي والمحدث، التوقع، الإقدام، الإدمار، السعي نحو الجنة وحرر العين، الرغبة في الفرار من الغيب والبار، يتحسس آلة القتل الحديدية في جيبه الخلفي، فوق الآلية اليمنى، ملمس الحديد الصلب يمنحه بعض الثقة والشجاعة، تمتد يده تلامس قطعة اللحم الصغيرة الطرية أسفل العانة، تزول الثقة والشجاعة، منذ طعولته لم تمنحه هذه القطعة الصغيرة من اللحم إلا الهوان، نخذه دائماً في اللحظات الهائلة.

حين يتأخج قلبه بالرغبة في الحب، حين تشتعل روحه بالشهوة في المرأة، يتراجع جسده مريحاً محاذلاً، لا تنصب الآلهة الذكرية أسفل بطنه إلا مع امرأة لا يحبها، مع امرأة لا يحترمها، امرأة لا يحلم بها، امرأة من الجواني الفواني أو المومسات، ترقد تحته مستسلمة، تسلّم له جسدها مثل قطعة من اللحم، دون عقل، يحاف في أحماقه من عقل المرأة، تقدم له لحمها مقابل مبلغ من المال يدفعه، أو سيارة يشتريها لها، أو شقة يسلمها مفتاحها، يدها تمتد له بعد أن تمنحه نفسها، يدخل بها وهي تحته في الفراش كما يدخل أي ثقب مفتوح دون جهد، دون قلق، دون خوف من انعواقب، في الذب أو لأحره، لكن هذه المرأة بعدها، ربة رب رباب، كلما نظر في عيها اشتد خوفه منها، كلما اشتد خوفه منها اشتدت رعبته فيها، هاتان العيوان الواسعتان المفتوحتان على الأعق، تشوبهما حمرة دم لا يبرف، المقلتان الرقودان الكبيرتان السوداء لا يشوبهما شيء، تطلآن من مؤرة عامصة في روجه، أو شر عميقة صحفه في جسدها داخل مركز المع

يحذره صوت خافت في أحشائه وهو جالس على الأريكة الوثيرة داخل السيارة الطويلة السوداء، يفودها السائق محمود نحو بيتها في الحي العشوائي البعيد، ترمقه عينا السائق الضيفتان الصغيرتان الغائرتان في عظام الوجه المريض، من خلال المرأة الأمامية للسيارة، يحول بصره بعيداً عنه، يغمض جفونه ويسترخي جسده قليلاً، يستمع إلى الهمس في أحماقه، يشبه صوت الله يحذره في النوم.

- أنت يا أحمد الداهيري لا تشع ولا تقنع، أنا منحتك كل

شيء هي الدب والاحمر، لك في الحنة قصر كبير محجور لك
وليس شاه من الحوريات، ولك في الدنيا كل زينات الدنيا، مال
وبنون ومناصب ونساء وقصور وخدم وحرس وحشم و...

- نعم يا رب هندي كل ذلك، أشكرك يا رب على نعمك
الكثيرة لكن...

- لكن ماذا يا أحمد يا دامهيري؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- أريدها يا رب، هذه المرأة، رينة بنت زينات، أريد هاتين
المقلتين الكبيرتين المحشنتين بالوجه الأرق الأسود، بالشحن
الأسود لأروق، بالرغبة في أن تحرق قانونك يا رب وقانون
الطبيعة، وقانون الاملاك والسوق الحرة هذه المرأة سيسي
حزيتي في امتلاكها، شيء في رب بعيد عن الامتلاك، بعيد عن
إرادتك يا رب؟ كيف خلقتها يا رب بهذا الجمال العريب الحارق
لنوائس الطبيعة؟ وحرق لقانونك أيضاً يا رب؟ إنها مقدسي
الصواب، لا أعرف العصيلة من الرذيلة، لا أفترق بين الحق
والباطل يا رب.

هذه الأنوثة القويّة يا رب تكاد تشبه الذكورة، متناقضة
مراوغة، تغريني بامتلاك ما أصجز عن امتلاكه، كل محاولة ملي
لامتلاكها لا تفعل إلا التقيض، تكشف عجزني برب عن امتلاكها،
تكشف فشلي أمام نفسي، لماذا خلقتها يا رب بهذا الشكل؟ امرأة
لا يمكن أن تمتلك وإن منحتها كل ما تملك؟ أرسلت إليها يا رب
رسائل كثيرة، لم ترد علي رسالة واحدة، اعترفت لها بالحسنة،
الحسنة المحالصة لوجهك الكريم يا رب، حسنة الروح للروح، فنت

لها سأعطيت بمسي وكل ما أملك، لم ترد علي برسالة واحدة يا
رب، ماذا أفعل يا رب العالمين، أنت بشهد هداسي، عيبك
الساخرة التي لا تنام تراني وأنا مؤزق في سريري، وأنا أتحد فوق
أريكة الطبيب النفسي، وأنا أبكي وأكتم الأنين طوال الليل.

يتطلع أحمد الدامهيري إلى الرب في السماء، تخترق عيناه
رجاج السيارة الفيمية، يكشف الخارج ولا يكشف الداخل، يرى
أحمد الدامهيري الرب في السماء، متخفياً وراء السحابة السوداء،
لكن العين المطلقة من السماء لا تنفذ من خلال الزجاج الفيمية،
نوع من الزجاج المنور من بلاد الكفرة، لا يعد منه الرصاص،
لا تحرقه عيون الأعداء ولا عيون الأصدقاء، محضن هذه كل
العيون المنفضة من وراء الأقعة، في الأرض أو في السماء،
حتى عين الله لا تحرقه، لأنه مصوغ بأيدي الكفرة، بأيدي
الشیطان، لا يتحدى إرادة الله إلا الشيطان

يسترخي جسده في الأريكة الطرية، متصوراً أن عين الله لا
تراه، إنها لا تعد من خلال الزجاج المصايد للرصاص، لكنه
سرهان ما يشدّ ثمر أنه يخدع نفسه، لأن عين الله أقوى من
الرصاص، وأقوى من الكفرة، يمكن أن تنفذ في الحديد، الله
قادر على كل شيء، يقول للنبي كن فيكون، لماذا لا يأمر هذه
المرأة بالخضوع له وهو الأمير الذي اختاره الله دون الآخرين؟
لماذا لا يكون الله معه في هذه المهمة كما كان معه في كل
المهمات السابقة مع النسوة الأخريات؟

تموح له زينة بنت زينات وهي تصرف وترقص وتغني،
صوتها، صورتها بطارده، تسولي على عفه الذي يهوس:

هذه المرأة حُرِّرت نفسها من امتلاك الآخرين لها إلى حد
انقصر، أصبح هي المالك لهم

أغمض عنه مستسلماً لنوم، مستسلماً لامتلاكها به، يشعر
بمذلة غريبة هي الاستسلام لشيء أقوى منه، يريد أن يسريح من
العناء والعناء، هناك المدمومة، هناك قبضة الآخرين، عيب، يحاكم
والأمير، يرى نفسه بين ذراعها، يهمس في أذنها بلا صوت،
أنعاسه تلهث

- إصعدي فوق، خلدي واملكني يا معبودتي.

ينتفض جسده فاتحاً جفونه، تغلث كلمة معبودتي مع أنعاسه
الساخنة، لا يسمعها بأذنيه، بحثها مثل الغصة في حلقه، مثل يد
كبيرة ضخمة تستأمنه وفمه، يد غير بشرية لم يرها من قبل، يد
الله تخنقه، ترهق روجه، صوت الله يخرج كيانه.

"يا كافر يا مشرك، ألا تعرف أنني أغفر الذنوب جميعاً إلا أن
يُشرك بي، أغفر لك كل جرائمك واختلاساتك للآسمان،
واختصاصك للنساء والأطفال، لكن لا أغفر لك أن تشرك بي معبوداً
آخر، هذا هو معبودة أنت؟

يكاد يهتف أحمد الداهيري بالسائق محمود ويقول له:

- إرجع بي إلى البيت، لا تأخذني إليها

نكن صوته لا يطلع، يتغلب فوق أريكته السيّارة من ألبة إلى
الله

- هذه المرأة تستحق القتل، وخودها بهقد وجودي، يهتد
بماني بالله الواحد لا شريك به، يجب ألا أذهب إليها،

يجب أن أقضي على وجودها نعم هذا هو الهدف الوحيد من
ذهابي إليها، أن أقضي عليها قبل أن تقضي عليّ وعلى كلّي الرجل
المؤمن، هذه هي مهنتي المعقّدة لنقص عليها قبل أن تقضي
على دين الله

انضم لعمه في راحة لهذه المهمة السامية لسبيلة، كانت
السيّارة تشق الطريق نحو بيتها في الحي العشوائي البعيد، عند
الحدود الفاصلة بين الوطن والأوطن، بين العقل والجوارح، بين
الله وإبليس، اجتازت السيّارة شوارع مشربة، وحواري وأزقة
مسدودة بالقمامة والمجاري، وأطعماً يلعبون بالطين مع القطط
والكلاب، ومقابر يسكنها الأحياء، وموتى يسرون بوجود شاحبة
حرينة، والطبول تدق في حملات الزفاف، مع العود والرق،
والصاجات في أيدي الراقصات تفرقع، يتمايلن بأجسادهن الغضة،
داخل بدلة الرقص، تكشف البطن والفخذين، تنصاعد أصواتهن
في الغناء والرقص، بهتزاز تترتر فوق أثلاثهن المرتجة، مع
ارتجاجات البطن والرددين، تنطلق الرصاصات في الجو، احتفالاً
بالعرس والعروسة، تنصاعد الأبخرة من المباخر، والشبّة لها
ملاصع إبليس في النار، تنصاعد الدماء من فوق المنارات الله أكبر
الله أكبر، احفظي يا أرض ما عليك، أخرق يا رب عين الحسود،
تنطلق الزغاريد من أفواه النسوة، تشبه صراخهن في الحاتم والعويل
الممدود في الجارات.

التفت الأبطال حول السيّارة السوداء الشبح، بأردتهم العارية
أمسك صعل قصيبه الصغير وأطلق على السيّارة خرطوماً طويلاً
رفيعاً من البول، فذعت واحدة من البنات بكرة من الطين فوق

رجاح السيارة المحملي، انطلق سرب من الأطفال وانقطع والكلام
وراء السيارة يصرحون ويهتفون، يقدمونها بالقمامة ومياه المحاري
- من بنت رينة ست رينات يا عبال؟

هذا هو صوت السائق محمود، يطل برأسه من النافذة
يرد عليه الأطفال في نفس واحد، أو واحداً وراء الآخر:

- رينة بنت زينات في المسرح، عندها جملة كبيرة أوي
أوي، في عيد ميلاد أمها رينات، إحنا كلنا كنا هناك، إنت مين؟
ومين اللي راكب وراك ده؟ بهن عليه ويرير كبير أوي أوي، باهن
عليه حرامي كبير أوي أوي . . ويتهقه الأطفال، يشرافصون
ويغترون ويهتلون:

- العيظ أهوه العيظ أهوه،

- إخرس يا ولد إخرسي يا بنت، ده سعادة الأمير الباشا يا
أولاد الزني، يا أولاد القحبة، يا أولاد الشرموطة، يا . . .

ينطلق السباب من فم السائق يلعن أمهاتهم الزانيات القحبات،
يشق بالسيارة أجسادهم التي تسد الزقاق، يكاد يدهسهم تحت
العجلات، دون جدوى، إنهم أطفال شوارع، داستهم عجالات
وعجلات، نهضوا من تحتها ونهضوا، اغتصبهم الكبار والعجائز،
داسوا أرواحهم، نهضوا من تحتهم ونهضوا، سقطوا ونهضوا،
أصبحت هذمهم من حديد. أجسادهم حديد، أرواحهم مثل كل
الأطفال ربيعة كسجال لمخلق في العصف، أقل شيء يركبهم وأقل
شيء يصحكهم، مثل كل الأطفال، مثل كل الأطفال.

كانت البيلة عند ميلاد أمها رينات، ارتفعت انريبت فوق

البيوت والمعابر، تألفت الدميات بالأصواء المحيطة بالمسرح،
اسلأت القاعة الكبيرة بالرجال والنساء والأطفال، يرتفع الأيدي
بالتصفيق والتهليل

- أعدي يا زينة يا بنت رينات أعدي.

كلم مرة يقولون لها أعدي أعدي، لا تكف عن الإعادة، لا
تكف عن العرف والعناء والرقص، وهم لا يكفون عن التصفيق
والتهليل، وهي واقفة على خشبة المسرح، تستريح بضع لحظات،
عندها شاخصتان نحو الوجوه في القاعة، رجال بالبدلات الأنيقة
والنياشين فوق الصدور، نساء بالمساحيق ولألوان والجواهر،
المقلتان في عينيها كبيرتان، سوداوان بلون الليل، حول كل مقنة
دائرة زرقاء، خضراء بلون الريح، متوقفة بضوء الشمس، مقلتان
قادرتان على النظر والرؤية، تنزهان الأقنعة عن الوجوه، تخلعان
الأوسمة والنياشين عن الصدور، لا تتركان نقاباً فوق أي شيء
حتى تخلعاه، عينان قادرتان على تمرية كل الأشياء، لا تهابان،
ربما لهذا السبب كانت العيون تنجذب إليهم، يشيع حضورها
كهربية في الجوّ، صوته المرح الشجي، أغانيها المديحة بالفرح
والحزن، يجذبهم حديثها حين تجلس معهم وتحدث، تبدد مللهم
وحزنهم الدفين، يضمكون معها حين تسخر من كل شيء، لسانها
مع الموسيقى والإيقاع لاذع، يكشف الزيف، يفصح الشافق،
يهتلك الأمرار والسنائر، لا أحد يشأ بما يحكى أن تقول، وبما
يمكن أن تفعل، لكنهم يشدون حضورها، لأن الكون في عيائها
يسقط في الصمت والظنمة، رغم كثرة الأصوات والأصوات.

وأما حالسة مع بعض النساء والرجال بعد انتهاء الحفل، معتم

أحمد الداهيري يحوهم بحضرة حذرة مترقدة، جسس بينهم يستمع إليها، يركز بصره فيها، يثبت عييه في عييه، دون جدوي، لم تكن ربة بنت ربات تراه، كان وجهه يدوب في الوجوه الأخرى، دون ملامح صبيّة، دون شيء يجذب العين إليه، تدور مقلتها على الوجوه دون أن تتوقف عنده، أبداً لم تتوقف عيناها عنده أبداً، تمرّان بوجهه مروراً سريعاً هائلاً كأنهما غير موجود، أراد أن يلمت أنبياهها، تدكر عبارة قرأها في كتاكيت نفوس، تكلم حتى أراك، بدأ كلامه كمادته باسم الله :

- بسم الله . -

- إن تكلم أحد باسم الله أشعر أنه يقصد شيئاً آخر .

كان هذا هو صوتها، انطلق منها طبيعياً بسيطاً حين سمعته يقول باسم الله .

هت الصمت في المكان، أطلق أحمد الداهيري شفثيه، بدا عليه الحرج، وشيء من الغضب، ثم ألهمه الله أن يواصل الكلام :
- لك حق يا سيدي، هناك بعض الناس يستخدمون اسم الله لسقاصد لا علاقة لها بالله، لكنني ست واحداً من هؤلاء .

كان سائقه المحار من أشخاص واقفاً غير بعيد عنه، أراد أن يعرف سيده بالحاضرين

- هو سعادة اليانث، الأمير أحمد الداهيري

- نعم نعم معرّف، إنه مار على حلم، صوته مشورة في كل

مكان

كانت هذه بعض أصوات الحاضرين، انطلقت صيحة مكتومة

من أحد الشباب، سمعت إحدى النساء بكلمات غير مفهومة، واسمها سحره . كانت ربة بنت ربات معرّف، نعه مرّة أو أكثر في بيت صديقتها مجيدة الحرتيني، كان يهرّ رأسه بالتحية حين يلقاه، نرّة له الحية بهرة من رأسها، تلتافه بسيطة، كنت تفعل مع أبي أحمد يُنقي عندها الحية، يرمقها وهي تمشي بعينها الطويلة وحطونها الرشيق، يُحدّق فيها ويُحدّق، لا يحوّل بصره بعيداً عنها، هذا الجسم المصنوع من شيء غير اللحم والعظم، هذا الضوء الكاسح لكل ما عداه، بعمره الضوء وهو واقف، يُحملك في ظهرها، حتى نحضي فإذا كل شيء ينطفئ .

تعود صورتها إليه في الليل، تفتح نوم، تُوقظه دون هوادة، بشيء من الوقاحة، المقلتان الكبيرتان المتوقجتان بالحياة، فيهما وقاحة الجسد الساحر، السحر المكتفي بذاته ولذاته، لا يتولّف عند أحد، يمضي في طريقه اللانهائي حتى الأفق، يقوّن لنفسه .
- طبيعة الجمال الساحر مثل طبيعة الله الخالق، لا تقبل التبادل، أو المساواة بالآخرين من البشر، إنه العدل الإلهي القائم على الظلم وللأساوة يا أحمد يا داهيري .

فإن أن يذليه النوم يسمع صوتها يتشد فوق خشبة المسرح

لأبي أحب لرقص والعباء

لأبي أمست الموسيقى و شعر

هه، لا يطربني المدح أو إنشاء

ولا تؤلّمي قصائد الهجاء

يهمس اسمه وهو يتغلب بالأرق:

- أي عرور وكرياء، يشبه كبرياء إبليس حين يتحدى إرادة

الله

بتحيتها ثوب الدم بعد أن يتعلق الرصاص في صدرها، بعد أن تحترق الطلقة جدار قلبها، تمتد إلى روحها، وتصلد روحها إلى السماء حيث تتلقى العذاب، حين تملو إرادة الله فوق إرادتها، يشعر بالهزيمة أمامها فيستسجد بقوة الله لا يمكن أن يحذله الله أدم امرأة، أمام أنثى، فما بان هذه الفروقة، المتحدية، المتكبرة، التي تقشرف المحاسن الكبيرة كل يوم، تحلل ما حرّم الله، تُثير الفتنة بين الرجال، تُخرج الله من قدرهم بالرقص والعماء والشعر والموسيقى، يركبها شيطان الفن من قمة رأسها حتى يطن قدميها، سوف تنزف هذه المرأة لدمها حتى آخر قطرة، سوف تنال عذاب القبر قبل عذاب الآخرة، سوف تُعلق من شعرها في القبر، في جهنم تُعلق من عنقها ليكتوي نصفها الأسفل بآر الجحيم، ثم يحترق نصفها الأعلى والعيان والمقلتان، المقلتان اللتان تعنيتاه ليل نهار

يسبح به حياله في انظمة، يستمض جسده باللذة وهو يراها تتعذب، تنشي روحه وهو يرى دمها يسبح على الأرض، كما كان يستشي إليه انشوره بالدم الساتر من عرق الذكر المبتور بالسكين، بهذا قلبه ويستكين لمشاهد القتل والعنف، كان أحد الدهميري يصطاد العصافير بالنسلة وهو طمعل، تسقط العصفورة، تزف

الدماء، تبرق عياء بالعادة، يجري محوها بمسكها بأصابعه الصغيرة النضة، يعصل رأسها عن عنقها، يمزق أوصالها، يعثر أشلاءها في الهواء، يتأمل ريشها السهم الصغير بتطير، يطير يطير في الأفق، حتى يختفي من الوجود.

مند الطعولة ذوبه أبوه على العنصف ليصبح رجلاً مكتمل الرجولة، أنه مثل أبيه، كانت تقول له:

- أنت رجل من صلب أبيك، وجدك، وجد جدك

ترمفه أنه برهو، نحمد الله أن جمعها عند الذكر، ليس الذكر كالأنثى كما قال الله في كتابه الكريم، للرجال على النساء درجة، الرجال فزائمون على النساء بما أنفقوا من أموالهم، وبما فضل الله بعضهم على بعض، الله يفضل الرجل على المرأة، هذه حكمت وإرادته، لأن المرأة ماقصة عقل ودين، مخلوقة من ضلع عوجاء، إن حاولت إصلاحها انكسرت، ضلع معوجة خير قابلة للإصلاح، نقصان في الطبيعة غير قابل للعلاج

نالت أنه جائزة الأم المثابة في عهد الأم، كلما احتت المرأة بقصانها راد إيمانها بالله، وفدت بجائزة الدوة، كلما انشئ الرجل وتلذذ برائحة الدم أصبح مثل الإله في الثوراة، إن تشتم رائحة الدم المراق أزل عنه اعصاب، لا يروق مراحه، لا يرقبه قطعة اللحم يستأصلها السكين أو الموسى، وإن كانت حرة صغيرة تدلّي لسعل بطن الذكر الذي عمره ثمانية أيام، أمام الله عهد مع بني إسرائيل، أن يقطعوا بالموسى المرأة من فوق رأس العصيب، مقابل أرض الله الموعودة، أرض كنعان وفلسطين، ما إن رأيت أنه موسى العصب في عيني الله حتى أمسك الموسى وأراقت الدم،

هذا الإله انبسطت أساريره، مثلما تبسط أساريره حين تسري إلى
أنفه رائحة اللحم المشوي من فوق المحرقة.

يمصص أحمد الداهيري جموده محلقاً في الخيال، فاتحاً
متخذه لرائحة الشواء، كأنما هو صندوب الله فوق الأرض، قلبه
عاصر بالإيمان واولاء لأوامر الله، كما جاءت في كتبه السماوية
الثلاثة:

وقال الرب لموسى عندما نذهب لترحل إلى مصر أنظر جميع
المجائب التي جعلتها في يدي وصاحبها قدام فرعون، وحدث في
الطريق في الممرل أن الرب التفت وطلب أن يقتله، فأخذت صفورة
صوتاً وقطعت غرلة ابنها وميت رجله، فقالت إنك عريس دم
لي، فأهلك معه، حيث قالت عريس دم من أجل الختان.

ثم قال الرب لموسى من لهارون خذ عصاك ومد يدك على
مياه المصريين، على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم،
وعلى كل مجتمعات مياههم لتصبح دماً، فيكون دم في كل أرض
مصر، في الأحشاب وفي الأحجار، ففعل هكذا موسى وهارون
كما أمر الرب، رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام حيي
فرعون وأدم عيون عبده، فتحوّل كل الماء الذي في النهر دماً

فقال الرب لموسى قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار
والسواقي والأحلام وأصعد الضفادع على أرض مصر.

ثم قال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب تراب
الأرض ليصبح بعوضاً في جميع أرض مصر، فعلاً كذلك، مد

هارون يده بعصاه وضرب تراب الأرض، فصار البعوض على
الناس وعلى البهائم، كل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع
تراب الأرض، وكان البعوض على الناس والبهائم، فقل العزافون
لفرعون هذا أصبح الله.

أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك
الدباب فتمتلئ بيوت المصريين دباباً، وأيضاً الأرض التي هم
عليها... لكي تعلم أنني أنا الرب في الأرض... ففعل الرب
هكذا، فدخلت دباب كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبده، وفي كل
أرض مصر خربت الأرض من الدباب.

غداً يفعل الرب هذا الأمر في الأرض، ففعل الرب هذا لأمر
في الغد فقامت جميع مواشي المصريين، وأد مواشي بني إسرائيل
فلم تمت منها واحدة.

ليصير غباراً على كل أرض مصر، فيصير على الناس وعلى
البهائم دمل طالعة بثوراً في كل أرض مصر

لو كنت أمد يدي وأصريت وشعبك بالوباء لكنت بهد من
الأرض ولكن لأجل هذا أقمتك لكي أريتك قوّتي وبكفي يحبر
باسمي في كل الأرض... ها أنا غداً مثل الآن أمطر بَرْداً عظيماً
جداً لم يكن مثله في مصر منذ يوم تأسيسها إلى الآن... جميع
الناس والبهائم الذين يوجدون في الحقل ولا يجمعون في البيوت
يترن عليهم البرد فيموتون

فمد موسى عصاه نحو السماء، فأعطى الرب رجوداً وبرداً
وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب برداً على أرض مصر،

فكان برد متواصل ومار في وسط البرد، شيء عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أمة... فحضر البرد في كل أرض مصر... إلا أرض جيلسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد

ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد، ليصعد على أرض مصر ويأكل حشب الأرض كل ما تركه البرد.

ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يلمس الظلام، ومد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر... لم يبصر أحد أثناءه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام، ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم.

وقال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً، ولكن جميع بني إسرائيل لا يس كلب لسانه إليهم، لا إلى الناس ولا إلى البهائم، لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل.

فلما اجتاز في أرض مصر هذه الثلاثة وأضرب كل بكر في أرض مصر من سائر البهائم، وأصعب أحكاماً بكل أكلة المنصرس، أن الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأضر حكم، فلا تكون عليكم صربة للهلاك حين أضرب أرض مصر

فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة، وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت.

حدث وطم موسى وبني إسرائيل هذه النسيجة للرب، وقالوا، أرثم للرب فإنه قد تعظم الرب قوتي وشهدي الرب رجل الحرب.

ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قديلاً، أنا الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يمكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تضع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مثا في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهم ولا تعبدهم، لأنني أنا الرب إلهك، إله غيور، أفتدي قلوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضتي.

لا تصنعوا معي آلهة من فضة ولا تصنعوا لكم آلهة من ذهب، ولا مديحاً من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك هبك وبقرتك.

يصبحو أحمد الدامهيري في منتصف الليل، يقرأ كتب الله الثلاثة، يبدأ بالتوراة، ثم الإنجيل، ثم القرآن، يتصلل ضميره داخل صدوره، يكره صورة الرب وصورة رجل حرب ومسل وحارب، ودم حراق في كل الأرض، يقتض من ديوب الآباء في الأبناء في الأطفال الأبرياء جسده يرتعد بالخوف، يظن أن الله

سوف يسحقه كما سحق فرعون وعينه، سوف يهجم عليه في سرير القمل والبق والبعوض والجراد والصفادع، والصراصير والحنافس، عند ظهوره يحاف هذه الحشرات، لا يستطيع أن ينام في غرفة واحدة مع بعوضة أو صرصور، كان يسمع أنه تصرخ حين يرى صرصاراً يجري فوق الأرض، أو جرادة تدخل من النافذة وتحلق حول رأسها، تطلق صرخة حادة فيتنفخ جسده من فوق السرير ويسقط إلى الأرض، نحمله فوق صدرها تهدده، تهتئ روحه:

- ما نحافش يا حبيبي، أنا معاك يا حبيبي، مش عارفه ريتا بعث لنا كل الصراصير دي من؟ كل القموس ده ليه؟ مع إني رشيت البيت كله بالعليت والديدي تي والتوكس؟

يسقط أحمد الداهيري في النوم، يرى أهل مصر يتصرون على الله في معركة الجراد والصراصير والبعوض:

لم يكن الرث قد اكتشف المساحيق القتالة للحشرات، لكن أهل مصر كانت لهم حضارة مريفة قديمة، بنوا الأهرامات والمسلات، اكتشفوا علوم الطب والعلك والهندسة، اشتمل بنو إسرائيل في بيوتنا نحن المصريين خدماً وعبداً، هذا الكتاب التوراة كله أكاذيب.

سمع أبوه يقول وهو طفل.

- تم تحويل التوراة يا بني، اختلط فيها كلام الله بكلام البشر، لكن القرآن هو كلام الله مائة في المائة، ليس فيه تحويل ولا تزوير، دولة إسرائيل قامت على الكذب والخداع والقتل،

وراقة اللعناء، الشعب في فلسطين يتعرّض للإبادة يا بني، دولة من القتل، هي التي تستحق الإبادة وليس نحن المصريين، كان يمكن أن نلقي بإسرائيل في عرض البحر لولا قوة الاستعمار الأجنبي التي تساندنا يا بني؟

- هل قوة الاستعمار أقوى من قوة ريتا يا أبي؟

- لا يا بني، ريتا فوق الجميع لكن ريتا غضبان علينا يا

أبي.

- غضبان ليه ريتا علينا يا بابا؟

يصحو أحمد الداهيري من نوم ناسياً أحلامه، وأسئله الطفولة، ينسى وجه أمه ووجه أبيه، لا يسمي في ذكره إلا وجهها، زينة بنت زينات، إن أطل وجهها من حرج بين السحب تلاشى كل الوجوه الأخرى، بما عيها وجه الرث، تنشق السحابة السوداء الجاثمة فوق المدينة، كأنها وجهها قطعه من الشمس، عينها نجمتان تلمعان في الأفق، تبعثان في جسده الشاطئ، في روحه اليهجة والأمل، يفغر من السرير بحركة سريعة، يصع منه تحت مياه الدش الغزيرة، يداك صدره وبطنه، تدفع شحبات من الدم الدافئ إلى قلبه، يحس الدفقات المتسارعة تحت صدره، يحسها تحت كفّه، يردد مع النبض اسمها، زينة بنت زينات، ريتا بنت زينات، يرندى البدلة الأنيفة الجديدة، يحلق الشعر فوق وجهه، للشاربين واللحية.

ما علاقة الشعر فوق الجسد بالإيمان في القلب؟ يهمس له

يليس

يحتمل شعر العدة أيضاً، يرش فطرات الكولونيا تحب إبطيه
 المحذوفين، يتمصص بالسائل للقاتل لجراثيم العم، يصع تحت
 لسانه مرصاً من الصنّاع وحبّة قرنفل، تُعشى الراتحة الطية روخه،
 تُربل عنه الترفد والبأس، يحلأ صلوه بواتحة القمرعل والصنّاع،
 يتعبّلها بين درعيه، بين شعبيه تشتم راتحه أنماسه المركية، يقصر
 بأسده على شعنها السعلى، يحوط حصوها الحجب سديه، يهبط
 إلى ردهيها المشدودين في صلاة، الرددان المتمردان القويان، ردفا
 جواد جاسع، لا يمكن لأحد أن يركبه أو يمتطيه، تجمع بين
 صلابة الذكورة ورقّة الأنوثة، ترقص مثل حصان خرج عن الطوق،
 ليس لها صاحب ولا لجام، ترتج الأرض تحت قدميها، يتحلحل
 الهواء من حولها، يسري صوتها وهي تغني خافتاً ناعماً مثل همس
 القلب، غاصباً عالياً مثل هدير الأمواج، تجمع النافص داخل
 كيانها في انسجام غريب، في توازن يشبه انعدام الوزن، في عشق
 للذات يتساوى مع إنكار الذات.

كان في طريقه إلى بيتها، هو الذي يفود سيارته، يربد أن
 يكون معها وحده، دون سائق، دون حرس، يبط عليه الظلام
 وهو في منتصف الطريق، الشمس غرمت منكبة، مسمة باردة
 تسبّلت إلى جسده من تحت الملابس، انزعشت أحشائه مخوف
 غامض، فتشعريرة لذة مقبلة، يهيش الخوف مع اللذة في أعماقه،
 ضوء العمر يتسبّل من وراء السحابة، يرتبط في خياله بالحب
 وأحلام الليل، أوقف سيارته مرّدة بين الإقدام أو العودة، ينطوي
 الإقدام على أمل بالمدّة المكمونة من الطعولة، توحى العودة إلى
 بينة بالأمس والطمأنينة، تمحركت السيارة إلى الأمام بالندفاعة أشدّ،

بالرادة أقوى نحو السعادة، أو يقوب كيانه في شيء أكبر منه،
 في روح أكبر من روحه، في جسد أدنى من جسده، أو يدرف
 المصروع بين ذراعيه، مصوع المرح بالعاء في قفّة نلّذه، ودموع
 الحزن لأنه لم يعرف في حياته إلاّ التنعاسة.

فتح بابها ودخل على أطراف أصابعه، يخشى أن يحدث
 صوتاً يوقظه من الشوة. ضوء خافت يسمت من غرفة النوم،
 وموسيقى حالمة، كل شيء معدّ للمسقوط في بحر اللذة بنير قاع،
 باب الغرفة نصف مفتوح، رفوف المكتبة من الأرض إلى السقف،
 أخفلة الكتب دكناء اللون، تُكسب عمل الحب روحاً من الوفاة،
 كانت تجلس أمام البيانو تعرف، رفعها من فوق الكرسي بذراعيه
 اللتين، رفعها حتى لامست شفثاء شفثيها، ثم هبط بها وأجلسها
 فوق السرير، خلج عنها ثوبها الأبيض من القطن، أطلّ على عري
 الهدين فوق صدرها، ليس لهما شمرة بشرتها، ولا بياض الجلد،
 بل لون آخر شفاف، يشفّ من نحت لحم شفاف يشبه الروح،
 تلمّت كما تعودت أن تتمتع في أحلامه، كالحصن المنيع تتمتع،
 لم يسبقه أحد إلى هذه الفضة المحقنة، لم يمتلك هذا الجسد
 مخلوق من قبل، يدخل معها المعركة دون صوت، داخل الصمت
 الكامل إلاّ من لهاث أنماسه المضمومة، يكافح هذه الوقوع في
 الإثم، على أمل الوقوع فيه، نعتد يده إلى مركز الشهوة في ثنايا
 اللحم، يُثبّتها فوق السرير دون حراك، كالصروض يثبّت الثور
 الهائج بحركة واحدة، ينظره قوته خارقة، إلاّ أن الثور يعمر في
 لحظة خاطئة، ويبرز أسنانه في لحم كتفه العارية.

هَبْ أحمد الداهيري من النوم ملأً بالعرق، يُحسن الألم في

كنعه اليسرى، لسمته بعوضة صيفة كانت ترون حول رأسه قبل أن ينام، أراد أن يمتثلها دون جدوى، كانت أسرع منه في الحركة، نظير قبل أن تصل إليها المطلقة، نحتفي في مكان خفي لا يعرف أين، يرشها بالمبيد الحشري دون أن نموت، هذه المبيدات الحشرية أصبحت ضعيفة المفعول، سلالات البعوض الجديدة اكتسبت قوة عارفة للطبيعة، تتحدى إرادة الله مثل الأجيال الجديدة من البهات العاجرات في اجتماع المجموعة تحت الأرض صدر القرار، يُفقد أمر الله دون مزال، أصبحت قائمة السموت تشمل اسم زينة بنت ريماء مع الأسماء الأخرى الخارجة من دائرة الدين، انشودة لنظام الدولة، شعراء وشاعرات أنشدوا قصائد صنة النظام، يدعو إلى الحب والعقل والحرية، شباب وشابات من الطلاب والمعلمين، ساروا في المظاهرات يطالبون بالقضاء على الفساد والرشوة والاستعمار الجديد، يهتفون ضد الفقر وضد الحرب والجارة بالدين، قائمة السموت تضم أسماء جديدة مع ترديد البطانة، وامتداد مساحات العشوائيات، انتشار المحترقات وجرائم الاعتصاب، ثلاثة ملايين طفل يعيشون في الشوارع، تنكر الأب لابنه أو ابنته بعد الاعتداء على البنت الصغيرة الراقدة على الرصيف

بدور الدمهيري ترشف قهوتها السوداء كماذنها قبل أن تنأب للكتابة، أخذت حذماً دافئاً، غسلت شعرها ورأسها من روائس اللند الأدبي، غسلت أمثها بمعجون مطهر منمش، الكتابة عند بدور الدمهيري لها طغرس تشبه طغرس الحب أو الصلاة بين يدي

الله، تتطلع بدور نحو السماء بعينين نصف مفتوحتين، تلتقي الوحي والإلهام، تمض شعبيها، تتبدد مذاق القهوه السوداء، تسري مرارتها في أحشائها قوة حادة منمشة، تطرد بقايا الحزن والاكتئاب الحرس، أمامها فوق مكتبها أوراق الرواية، تعلوها بقع حبر أسود وأزرق، وقطرات دموع صفراء، ودم أحمر، أصبح لونه بُيئاً داكياً يقترب من الأسود، رائحة حرق بين الحروف، تحت المطور، تعب وإرهاق، حزن دفين، خوف أصمق من الحزن يمنحها من الكتابة، لا تعرف الفرق بين الصدق والكذب، الحقيقة والخيال، تخيل في العواصل الدائنة بين الأنثى، لإيمان بدوب في الكفر والإلحاد، القبح والوفدح بدوب في الجمال والأدب، الأمانة والشرف هما السرفة والخيانة والمار.

نظن الوجوه من بين الأوراق، لا نعرف بدور وجه روحها من أبيها، لا فرق بين جثها وعمها وليس عمها، ندوب وجوه الرحمن في وجه رجل واحد، له وجهان، شيطان وإنه ندوب وجوه الماء في وجه امرأة واحدة، قاتلة ذريعة، سارفة شريعة، مؤمه ملحدة، محلصة حائنة، نلت رأسها بحجاب، نعرى بطها تحت حرام البطلون الضيق، مشدود حول رديها الصامرين، لهما صلاة ردي السر، تهرهما وهي تمشي بخطون الواسعة السريعة، تبدو خطونها بين مساء العائلات بدائية عبر مهدبة، صون الطيبي بين أصواتهن المكبوتة يرون عالياً خالياً من الأدب، تهمس في أدها وهي ترمق أوراق روايتها بسحرية

- أنت أقل من أن تكوني روائية، أنت طاهرة عذراء بريشة عاجزة عن الإبداع. لن نكتب الرواية يا بدور إلى أن نعرفي الشر

حتى الموت، إنى أد سهاى من متاع الدنيا حتى الثمالة، حتى الاستغناء عن الدنيا والآخرة، الاستغناء عن الثواب والعقاب، عن الجنة والنار، الاستغناء عن الشرف والمضيضة، أو العار والرذيلة، كلها شيء واحد، حين نزع عين الفساح عن وجهك، حين نزع عينك هاربة أمام نفسك، حين تدركين أن الوحدة خير من جليس سوء، العلق يا بدور هو الانطلاق والنحرور من الزوال الفاسد.

حين يسود الظلم تصبح الوحدة هي المصير الرافى، هي الصدر الحانى مثل صدر الأم، الشهرة والمعة مثلارمناك كالليل والنهار، لا يضمن مال المعصيات مثلك يا بدور إلا الشهوة، ولا يحلم الشهوانيات إلا بالمعة

- تركت هفلىك المولودة فوق الرصيف من أجل ماذا؟ ركريا الحريميني؟ زوجك؟ المربى مصيبه العتور؟ يختص به البسات الصعيرات و الأولاد نليتامى والماكن؟ المربى بعموده المشور عبر المقروء؟ كم سنة نشلوكين زوجك هي السرير؟ ترقدين تحت كالثجة العرجاء وتحلمين بكابة الرواية؟ تحلمين بكتابة رواية دون لمن؟ دون أن تدعى فمن الإبداع؟ الثمن ضرورى للحرية، والشجاعة بالثمن يا بدور تغير حياتنا إلى الأفضل، ترتفع أرواحنا وتصفو، الكاتبة الروائية يا بدور ليس لها رجل جدير بها، لا تجد صدرأ تضع عليه رأسها، تمتب، لا صدرها، لا تجد شريكاً لحياتها إلا قلمها، أما الساقدة الأدبية مثلك فهي تعطى بكل متاع الدنيا والآخرة، بما فيها زوجك الكاتب الكبير، وشرف عائلتك المرفيع، وجائزة الدولة الكبرى، وقصر في الجنة وفوق الأرض، الكتابة الروائية يا بدور لا تعرف السعادة، و عرجتها فهي تبع من ذاتها،

من كتاباتها. الكاتبة الروائية ليس لها وطن ولا أسرة ولا دين ولا مدينة ولا قبيلة، وطنها هو الشرع، هو الطريق الممروح دون الجدران الأربعة. حياتها هي رحمة إلى المجهول، أنت مدفوعة إلى الكتابة بالوراثة كما ورثت ديتك، بالرغبة في الجائزة وليس الرغبة في الكتابة، لهذا تهرب من الرواية، تفرق من بين أصابعك كالسمكة هي البحر، الرواية يا بدور مثل الأسماك الحية في البحور، تسبح عند التيار، ليست مثل الأسماك الميتة تطفو مع التيار، المرأة العاصفة مثلك يا بدور هي المرأة الميتة المسابحة مع التيار، وتريطين بعد كل ذلك كتابة الرواية؟

نشوح بدور بيدها البضة الساعمة في وجه بدرية، تطرد هها شبحها الأسود المزعج، ترفع يدها بالنغم لتحرق صها، نكتم صوتها، لكن بدرية ليس لها عي ولا لسان، هي روح هائمة في الجوى، تظهر في الليل فوق الجدار كالحجاب، بطل مثل إصبع إبيس من سن أوفى الرواية، مثل إصبع الله، حقيقة مثل وجود الله وإبيس، هي الحقيقة الكبرى في حياتها، لا يتسرب إليها الشك، يعكس أن تتشكك بدور هي وجود إبيس، أو وجود الله، لكن بدرية هي الحقيقة الوحيدة في حياتها، هي الصدق، كل ما عداها كاذب، تائه، غير مهم، غير ضرورى، غير حقيقي.

ترتفع أصابعها وهي تمسك القلم، يتحرك في اهتزازات فوق الصفحة البيضاء، يرسم حروفاً متعرجة تشبه كتابة الأطفال، بدور في رأسها السؤال

- لماذا يفتى أصدق ما في حياتها هي الحياء؟ ود نخرج إلى

انور يسرقه أقرب الناس إلينا؟

ورعب رأسها من فوق المكعب، وأنت ووجهها زكريا الخرنجيني
وهدماً أمامها، داخل منامته الحريري البيضاء، بهرشي الشعر الحفيف
الأشيب فوق صدره، وأسفل بطنه، يترك عيبه متثاقباً، يفتح فمه
على آخره، يتمطى وينشأ بصوت عال، تفوح من فمه رائحة
السماك الميت، قبل أن يسألها أي شيء انفجرت به بالسؤال.

- لماذا تسبح مع السمك الميت يا زكريا؟

في غرفتها البعيدة كانت ابنتهما محبدة الخرنجيني تعطف في
اليوم، اخترق أذنها صوتاهما العاليان، ينشاجران، مد طعولتهما
تسمعهم ينشاجران، بصوت خافت مكتوم، يرتفع شيئاً فشيئاً،
تتحسن صغرات وركلات، لا تعرف من يصنع من، ومن يركل
من، هي الصباح نراهما جالسين إلى مائدة العطور، بقرآن الصحف
ومحدثات مثل كل يوم، كأنما تم يحدث شيء في الليل، يتبدلان
الكلام، والانسجام، يربس الشاي، الشكرية، الملاحه، سلّة الخبز
المحمّص هي انصرده جستن للزبدة أو العسل أو اللبنة البيضاء
بريث انريشون.

نصنع مجيدة الخرنجيني الباب خلفها، تقود سيارتها إلى مكتبها
في مجلة «سهوة»، تطلب سجان الفهوى، تطلب محمد الصبحي
المغمور في صالة التحرير

- يا محمد، أين المقال؟

- أنا كتبت مقال تاني عن رينة بنت زينات.

- الرينة لا يمكن أبداً أن تسمح بنشر المقال ده.

- ليه يا أستاذة مجيدة؟ دي أكبر فتاته في البلد يا أستاذة

- أبوه لكن الرقابة مانعه أي شيء عنها

- مش مفعول، ده ظلم يا أستاذة

- طبعاً ظلم، الدنيا مليانة مظالم، لهم ربنا يحميهم

- ربنا مش بيحمي حد أستاذة، لو ربنا بيحمي المظلومين كان

الظلم لاحتفى من زمان

- إيه الكلام ده؟ إنت كهرت والآن إتجننت يا محمد؟

- أستاذة الله العظيم يا أستاذة من كل ذنب عظيم

- أبوه كده إرجع لمثلك

- لكن ده ظلم يا أستاذة، لا يسكن رتّا برصى يا ظلم

- ربنا راضي بالظلم يا محمد والآن ما كانش ثلاثة مليون طمس

يعيشوا في الشوارع، وحمين في الحية من الشعب المصري يعيش

نحب خطّ الفقراء والآلاف والملايين الريّة تموت في الحرب في

فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والسودان، وو يا ظلم في

كل أنحاء العالم يا محمد، ربنا راضي يا ظلم!

- معاذتك كهرت يا أستاذة؟

- أبوه كهرت، حاجة فكّر يا محمد، إذا كانت زينة بنت

ريّات حطوا اسمها في قائمة الموت، البست العناية الفلبانية

المستغنية التي عمرها ما أسامت لحد، هي صاحبتني وزميلتي من

المدرسة الابتدائية، أحلافها أحسن أخلاق في البلد، أنا عارفها

كويس.

- لارم أكتب عنها يا أستاذة، المقال جاهر معها

- أنشره في جريدة معارضة يا محمد، المحطة دي بتدعه

الحكومة، وانحكومه يستعمل مع الأمير والجماعات إليها، والكل يستعمل مع أميرك وحلفاءها، إحداهما الصحفيين كذا كذاين علوزين معيش، أكبر كذاين أصحاب الأعمدة في الجريدة الكبرى إليها ساعة الحكومة، وأربهم أبويا ذكوريا الحزبيتي

كان صوتها يرمع من خلال أسلاك التليفون، ترعش السماعة في يدها البضة السمية، تتخلص عضلات وجهها في بوية عصبية حادة، يتفطع صوتها، يتحول إلى تشيع مكتوم مبحوح

لم تكن المرة الأولى ينجبر صوتها بهذا الشكل، كان محمد الصحفي المعمور أقرب الناس إليها في المجلة، يكتب لها مقالاتها، تمنحها ثقتها، تحكي له بعض ألامها، تُعفّف من أحرانها بالحديث معه، تجمعهما صداقة وسرع خاص من الألفة، كان يمكن أن تقع في حبه لو كان من عائلة مساوية لعائلتها، لو لم يكن فقيراً ومغموراً، لو كان له كبيراء زينة بنت زينات، لو رفض أن يؤجر لها قلعه مقابل شيء من المال، منذ طعولتها تتطلع مجيدة الخريتي إلى رينة بنت زينات، تفارن بعساها بها، نوة أن يكون لرأسها ذلك الشموع، أن تكون قامتها طويلة مشوقة مثلها، وأصابها طويلة رشيقة مثل أصابعها، تجري على معانج البيانو بسرعة الضوء، أن تكون مثلها بلا لب ينهرها إن تأخرت، يصمها إن أخطأت، أو دون أن تعصى، لمجرد أن ينفس عن غضبه على أنها، كانت تكرر أدها في أعماقها الدعية، تسمع الناس يلوكون سيرته، يهس زملائها في ما يهس بفساد فمته، عرواته مع السات والعانيات، تكلم السو في أحشائها، تكلم في معكوتها السرية.

- أشرس الرجال حيوانات اللفة في دور الخاء.

بعد أيام قليلة نشر محمد الصحفي المعمور مقالته عن رينه بنت زينات في جريدة الثورة المعارضة، جاءها صوت صديقه أنها صفاء الطيبي يهتف عبر التليفون.

- مقال رائع يا مجيدة، لازم تقرره، وقولي لمدى تقرأه، ميس محمد أحمد* ده صحفي ممتاز، شجاع وعنده حرة بالنقد الأدبي، تعرفه يا مجيدة؟

- أبوه يا طلط صافي، ده زميلي في المجلة

- بلغيه نحياتي يا مجيدة، يستاهل كل حبر وكل تشجيع، رينه بنت زينات تستحق ميت مقال من دول مش مقال واحد، إكتبي عنها يا مجيدة في المجلة، لو كان عندي صفحة أو عمود في أي جورنال كنت كتبت عنها، لكن إني عارفة أي ممنوعة من الكتابة من يوم ما نشرت مقالتي في جريدة المعارضة عن الست الهام الأولى.

- حاصر يا طلط صافي، لكن إني عارفة رقابة مدعه النشر عن زينة.

- رقابة إيه وزعت إيه، إكسري رقبة الرقابة يا مجيدة، ما تعافيش من الحكومة، دي حكومة دسدة متعارفة مع الاستعمار، والناس خلاص روعها صمّت وشورة خلاص جايه، حايه، شورة دعاتها جايه، ثورة الجوع من الداخل، العرو الأمريكي من الخارج، وقدر الجماعات إدها على الحكم، وثورة جوع جايه حايه ..

في الصفحة الأولى من جريدة الثورة المعارضة كانت صورة ربة بنت ربات مشورة فاحل بولوز، في الصفحة الداخلية الثالثة كان مقال الصحفي محمد أحمد عها، تتوقف العيون عند الصورة قبل أن تغلب الصفحة، تتوقف طويلاً أمام الموجه المشع دي العقلين الموهجتين بصوء يشد إلهما البصر، يخطف القلب، حصورهم الطاعني حتى هي الصورة فوق الورق، عباها تخرقان الورق بنظرتهما الثابتة الباعدة، لديها رغبة لا تشيع في النظر والرؤية والمعرفة، تجمع عباها البراءة والتجربة في ابتسامة واحدة، شغ بالنضج والعقل والأثران رغم الجسود، هالة الصوء ليست في عينيها فقط، بل الوجه كله مضيء، شعرها المرسل كأنما لا تمسكه، بشرتها الحالية من الألوان والمساحيق، عنفها الطويل الممدود إلى الرأس، باقة ثوبها من القطن الأبيض معوجة، كأنما ارتدت ملابسها بسرعة، دون أن تلقي نظرة إلى المركة.

جاء المقال في مصف صفحة بتوقيع محمد أحمد.

ربة بنت ربات، فتاة من نوع غير عادي، تبدو عفرتها في أبسط حركة، مجرّد أن ندخل إلى قاعة الحفل، لو فوق خشبة المسرح، يُلمني حضورها حضور، الأشياء الأخرى، لا تشيع العيون من التطلع إليها، حورية روحها ترفع روحا إلى السماء، صوتها عفرتي يتحول في الأدب إلى شيء حسي، يلهمه محبته، ندوه مثل السد الأحمر، صورتها يلعب المسافات بين القلوب، ألقانها تفتح في عفرتها أجراء مطممة، ضوء المعرفة تنشي له أجسادنا، يس فقط بشره الكشف عن المحجول، بل هو في حد ذاته شوة

ربة بنت ربات حنعت بإرادتها ظروف حياتها، لا تحترف

شيء خارج إرادتها، الظروف العاصية لا تعسها، هي تصنع الظروف، ولست الظروف التي تصنعها، يقول عن مصف

- أنا أنة للشارع، أفر بأمي زينات، الحادمة، حملي من فوق الرصيف، أرمعتني الكبرياء والثقة بفسر، أنة مريم أمي الثانية، حوطي بالموسيقى والشعر والعبد، ملأت قسي بالفرح والإيقاع والآثران.

- لماذا دفعني ربة بنت ربات لأكتب عنها؟ جمالها، دكاؤها، صرتها، إيقاعها، أعانيها، حديثها، كل ذلك السحر الذي لا يعرف اسمه بعد، ربما لأنها طبيعة تملك عجاير الطبيعة، لأنها تتحرك في رشاقة، في تشاق مع حركة الأرض حول الشمس، مع نورات العبيد في التاريج، لأنها جاءت من قاع المدينة وصعدت إلى قبة السماء، لأنها حولت أصعب مأساة إلى انتصار معمم بالهجة والثراء، لأنها تعرف النعمة الصحيحة في اللحظة الصحيحة في هذا الزمن الرديء، لأنها تحلج الأقسة من الوجوه المحببة، تعضج الكذب والزيغ، تكشف المورات والتناقضات

- ألهذا وضعوا اسمها في قائمة الموت، وأرادوا لها الفناء؟ لكن ربة بنت ربات لا يصيبها الرصاص، لأن جسدها مصنوع من مادة غير اللحم والعظم، مادة شفافة رقيقة تنسج الروح، لا يحترقها الرصاص، لا تموت وإن ماتت، بل تتألق أكثر وأكثر هي السماء، لأن الفن الجميل الصادق يتحدى الموت، الفنانون والفنانات لا يموتون، لقد امتدت أيديهم إلى شجرة الحياة بعد أن أكلوا من شجرة المعرفة، فاقوا طعم الشجرة المحرمة وأصبحوا خالدين كالآلهة

كانت أم كثرهم كوكب الشرق ذات نكتة لادعة. كانت قادرة على إضحك أعنى الرجال، الرؤساء والوزراء والأمراء، كانت مكافئتها نُصْحَك من حولها. سَمُنَ بهم الرجل الذي تنهكهم عليه، كانت تنهكهم على نفسها أبصاً، وعد عمر لها الضحك كل نكاتها اللادعة، لأن الضحك يحبس الروح شعباً، ونعلو إلى العفو، والمُغْران لكل الآثام

زينة بنت زينات ليست كوكباً واحداً، هي كواكب وسجوم متعلجة، حين سمعتها تصحك أتراح عن قلبي حزن دويس منذ الطعولة، ترون ضحكاتها في الجوّ، تستفي لها الأجساد والعقول، تنتشل الأرواح من الركود، تبدو مثل طلسم السعادة، أو الحب، معروفة مجهولة في آن واحد، طيبة وغير طيبة تماماً

حين ترقص زينة بنت زينات يرقص معها الناس، الرجال والنساء والشباب والأطفال، يرقص معها الكون، الشجر والشمس والقمر ونجوم السماء، لا تملك زينة بنت زينات شيئاً إلا قتها، لا تخاف على شيء، لا ترغب في شيء، لا تطمع في شيء، هي إنسانة حرة، حررت نفسها برادتها، عاشت حياة صعبة أصعب من الموت، ولم تعد نخدع الموت.

فيلم محمد أحمد

كان انصحي محمد أحمد يعيش في غرفة في الدور، أسفل إحدى الممارات، اسمه محمود لا يعرفه أحد، بدأ اسمه بجري على ألسنة الناس، هتاء أصداؤه وجيرانه على الحال، بهت أمه

من فراش المرض وعانقه، كان أبوه عامل مسيح، مات في السجن بعد أن سار في إحدى المظاهرات ولبه محمد هي الثامنة من العمر. يتفادى محمد السير في المظاهرات، لم يكن له رب أو إيراد، يعمل في المجلة في صالة التحرير دون أجر، تحت اسم التلميز، تدفع له مجيدة الحريتي راتباً صغيراً يكتب بها المقالات، يشتري الدواء والصمغ لأمه، يدفع بدل إيجار الغرفة في الدور، يشتري لحمه فميصاً جديداً أو كلباً أو حذاء، يحلم في النوم أنه تحرر من الفقر والمهانة، أن قسمة أصبح ملكاً له، لا تصلكه مجيدة الحريتي، حتى بشر هذا المقال عن زينة بنت زينات، كأنما انطلق إليه من خلال السطور شيء من كبرياتها، شيء من كرامتها، حين رآها فوق حشبة المسرح هزئت روحه، عاد إليه صوت أبيه في طفولته يقول.

- الموت أهون من الدل، إرفع رأسك يا بني ولا نخجل من المقر، لا نهزم أمام مشقة الحياة، الذين لم يهزموا هم الذين استمروا في المعاناة، الكدح هو الحرية وإن دخلك السجن أبغض شموخها في ذاكرته شموخ أبيه، انقطع عن الذهاب إلى صالة التحرير في مجلة النهضة، لم يعد يكتب لمجيدة الحريتي مقالاتها، دأب على الكتابة في جريدة نشرة المعارضة، لمح اسمه وأقبل الناس على غرامة مقالاته، بعد فترة غير طويلة أصبح مسؤولاً عن صفحة الفن في الجريدة

إلى مائدة القطور في الصباح، يجلس ذكرنا الحريتي في مقعد المعتاد، يده اليمى تمسك أحد صجان القهوة، يده اليسرى

تمسكت «جورنال» بتأمل صورته الحديدية داخل الثرولو، فوق عموده اليومي، طويل رفيع يمد من أعلى الصفحة حتى أسفلها، ينتهي بسوقه على شكل شعيطه غير مفرومة، وعنوان يريده الإنكليزوسي على شكل حروف اسمه أت ياهوو دوث كوم. كان عموده على يسار الصفحة أيام كان في الحرب البساري، أصبح عموده في الوسط حين حصل على جائزة الدولة الرسمية، انتقل عموده إلى يمين الصفحة بعد تصاعد قوى السرق الحرة ورجال المذهب والأعمال، أصبح له جامع بحمل اسمه، وجمعية خيرية لفرق بالحيوان ورعاية الأيتام، وشركة عالمية للتشر والطباعة، وقناة فضائية تعرض الأفلام والأحداث في مجال العلم والإيمان، وحوار الأدب.

أمامه نجس زوجته بدور الداهيري، في مقعدها المعتاد، برشفت من فجان الشاي، مرّ سطرها سريعاً فوق عموده دون أن تقرأه، شعر بالمثل حين تقرأ عموده، تعرف كلماته المكتوبة وغير المكتوبة، انظهره فوق السطر، والمجموعة من السطور، كم مرة مرّت وهي تقرأ عموده كل يوم؟ عشرون؟ ثلاثون؟ مائة مرة؟ لم تكذ تعرف اليوم ولا التاريخ، مد لينة الزفاف، عرفت شكل عموده وقصبيه، لا تكاد تنظر إليه حتى تشعر بالعُيان، تمذ يدها لتمسك المقص، لتقطع عموده من الصفحة، تعلقه بدورس فوق الجدار إلى جوار الأعمدة الأخرى، عمود محمود المصري وعمود رئيس التحرير، وكبار الكتاب، وصورة رئيس الدولة، والسيدة الأولى.

يحار روحها بر عمود محمود الفني، يرقها وهي تقرأ عموده قبل أن تقرأ عموده هو، كيف تقرأ عمود محمود قبل عمود

زوجها، محمود الفقي رجل عريب صها، لا يجمعه بها إلا زمانه العمل، نيس الرماله مثل الوداج، قد يكون لها زملاء كشروب، لكن زوجها واحد أحد لا شريك له، مثل الله سبحانه وتعالى، إن جمعت المرأة بين زوجين يقبض عليها رجال البوليس وتوضع في السجن، داخل زنانه مغلقة بالقضبان الحديدية، تحمل لقب هاهرة، زانية، ساقطة.

كان يقرأ عليها عموده كالمعتد، تسري اللذة في أحشائه حين يقرأ كلماته المطبوعة في الجريدة، صوته يسري في أذنيها المعلقة سداً من المطر، جعوب نصف مفتوحة، هائرة في يوم عميق أنه بالعبودية.

تمرّ بلادنا مرحلة خطيرة، مدينة القاهرة أيتها القراء الأعزاء لم تعد هي المدينة التي عرفها، كل يوم نسمع عن أحداث يقولون عنها مؤسفة، وهي أحداث خطيرة، تسبب بدمار وشك، ثورة الجياع والفرعاع من أولاد الشوارع، ثورة النساء المفلذبات لنساء العرب، يعارضن القيم الأخلاقية التي درجنا عليها، وتقاليدنا العريقة، وأحكام الله في ديننا الحنيف، لقد أعطى الله للرجال حقّ الجمع بين أربع زوجات حسب الآية القرآنية الكريمة، مثنى وثلاث ورباع، هذا قانون الله، ليس للبشر أن يخرجوا عن قانون الله، وقال الله في كتابه الكريم، وانسبوهن إلى آبائهن، مما يؤكد أن مسب الطفل لأب هو أمر الله، لا يخرج على أمر الله ولا الكافرون والمتركون عن الإسلام، هذه الجمعية السوية الحديدية التي تطالب بإعطاء اسم الأم لطفل غير المعروف لأب، إنما هي

جميعه حارجه على دائرة الدين، هذه الجمعية مأخوذة من العرب
لهدم الإسلام أيها الفراء الأعزاء، هذه الجمعية تدعو إلى انحلال
الأخلاق، إلى الحرية الجنسية للنساء كما تعمل النساء في العرب،
حيث تمشي أمراء الإيدز والسيلان والأطفال غير الشرعيين
والشيوعية والسفاهة والإنحلال.

الإسلام أيها الفراء الأعزاء هو دين الله الحق، الإسلام صالح
لكل زمان ومكان، فيه من الكمالات ما يفرح عليه الانتماء به في
كل مكان وزمان، لا يجوز لنا نحن البشر تغيير أي حكم جاء في
القرآن أو سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى في
كتابه الكريم: «يوم اكملت لكم دينكم وأنمطت عليكم معاني
ورفضت لكم الإسلام ديناً، القرآن فيه تبيان لكل شيء»، علينا أيها
الفراء الأعزاء التمسك بدينه واللباس على عقيدتنا، وهي الإيمان
بالله واليوم الآخر، والزمن والأنبياء، والكتب السماوية الثلاثة
والصلاة والصوم والحج إلى بيت الله، هذه هي المبادئ الرئيسية
التي تحمي سبيح المجتمع، ونمنع انحلاله، ونكبح جماحه،
وتكون المرمية لأي تجاوز، فلا تظن الفرائز والشهوات وإعراءات
إبليس الشيطان، على كلمة الله، وأحكام القرآن والأخلاق

وأن أطلب بحق هذه الجمعية السرية الخطيرة، إنها مجموعة
من النساء لمشروعات، تشجع الرذلة عن الإسلام، تهتد استفهام
العام السائد في الدولة، الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد
للمستور، هذه الشريعة لا تبيح الحرية الجنسية للنساء، والأخلاق
الكرامة والعصبية مقدمة على الحرية

توقيع ركنو العربي

انهي ركنو سخرتسي من قراءه عموده الطويل، كاتب زوجته
بدور سرش بجموبها نصف المعققة، برمقه من تحت الجفون
نصفه عيس، تريد أن تصرخ في وجهه، يا مسكين يا مسكين
معتصب السات والأطباء، هل أنت الذي يدافع عن الأخلاق؟

كانت بدور تمسك أذن فهدن الشاي بيدها اليسرى، في يدها
اليمنى كانت سكينه الجبنة البيضاء، تقطع بها حيازة حمراء، تمسك
السكينة في يدها نحو عمود زوجها في الجريدة، تريد أن تقطعه،
تراجع السكينة قليلاً إلى الوراء، تتقدم نحو الأمام خطوة أو
خطوتين، تريد الدخول في صدر زوجها، يغطيه شعر خفيف
أشيب، لونه أبيض بحكم الشبحوخة، تحت العانة الحسنة
الغالية الشعر بحكم ارتداع المكينة، نهبط السكينة شيئاً فشيئاً من
صدره إلى بطنه، تحت شعر العانة الأشيب المتساقط، يكاد يوز
السكينة يمس رأس قضيبه الصغير المكمش أسفل البطن، ترتجف
السكينة في يدها البضة السمينة، أصابعها الصغيرة ترتعش، تريد أن
تقطع عموده وقضيبه في آن واحد، يبدو الاثنان شيئاً واحداً، يشبه
الإصبع الضبابي المظلل من وراء السحابة في السماء، إصبع
الشيطان أو إصبع الله، كان يتردى لها في أحلامها وهي طمعة في
الثامنة من عمره، يزحف من وراء الضباب إليها وهي رافدة في
سريه، يزحف فوق عنقه ويغطيها من قبة رأسها إلى بطن قدمها
ليسرى، يزحف مثل مسمار صلب، عرفت أنه إصبع الشيطان،
لأنه يأتي من ناحية اليسار، أما إصبع الله فكان يأتيها من ناحية
اليمين، تتراجع السكينة في يدها المرتجفة، فتردد بين الإصبع
والكوص، يمسك فهدن لشئ من بين أصابعها، يسكر فوق

الأرض بصوت مسموع، يرفع روحها عييه عن الجورنال، يرمقها
سفرة هامة.

- هذا الفسجان الثمين من السور الماور، دعوت نعمة مائة
وعشرين جنباً.

يرمق أصابعها القصيرة السمينة المرتعشة، عاجرة عن الإمساك
بالنعم، عاجرة عن كتابة أي مقال له قيمة، تحلم بكتابه رواية، نام
معظم الوقت، لا تعمل شيئاً إلا الذهاب إلى الطبيب المسمى
وبتلأح حبوب العايروم

تتحرك بدور جسمها المثقل من فوق المقعد، تهض واقعة
على قدميها الحافيتين، مشي فوق الأرض كأنما تمشي في النوم،
مدخل قطعه من انحناء المكور في بطن قطعها اليسرى، تمد
قدمها اليسرى لدخل فيها قطعه أخرى من الفسجان المكور،
تسشع الألم الشديد مع لدة عمصه مؤلمة، تحملق في دمها
السائل فوق السلاط الأبرص، شيء في حمرة الدم يوقظها من
النوم، يُعبدتها إلى الحقيقة، حمرة الدم اللزب من اللحم، تدوس
بقدميها الأثنين الأبرصية على الأرض، تشبه المسامير، تمشي
وتمشي فوق المسامير، تستشعر اللدة مع الألم، اللدة مع الألم،
تدوب اللدة في الألم، يدوب الخيال في الحقيقة، يدوب الحاضر
في الماضي السحيق، في المستقبل والعيب البعيد، يراهي لها
وجه مسيم، يمشي إلى جوارها في المضاعرة الكبيرة، المقلتان
الكبيرتان استوفحتان بانفوس، يحوطها بدراعيه ويهسر في أذنها

- سيكون لها طعمة سقميها زينة الدنيا، أو طعل سقمه رير
العالمير، يعير النفا والأخرة، وينهي انظلم والمقر والممر.

يحي جسمها القصير السمين فوق يقع الدم على السلاط، يمز
الوقت وهي متحبة على الأرض، تحملق في دمها المسكوب،
تلاص بطرف إصبعها فطرة الدم، تحتر السعة فوق إصبعها،
لسان من اللهب الأحمر، عيها مشدودتان إليه لا تتحركان بعيداً
عه، يمزج بالحركة والحياة، تغيّر لونه مع حركة الأرض حول
الشمس، أصبح وهجاً أروق أسود في ظلمة الليل، يشبه عيون
قطط صغيرة تحملق، عيون أطلال ولينة في العراء تتطلع، هدية
من المطاء إلا السماء، طعة مولودة فوق الرصيف، مقلتاها كبيرتان
ورقاوان سوداوان، ثائتان في عيها الليل والنهار، والنهار
والليل، كان يمكن أن سرها وتعصي قبل أن تفتح جفونها، قبل
أن ترى عينيها، لكن جفونها انصبت فجاء، أطلت منها المقتات
الكبيرتان المتوحدتان، تقذف نظرتها كالشهم إلى قلبها تحت
الضلع، شقت اللحم والعظم، إلى فنة الكبد، إلى ثديا الزوج،
أصبحت هي الزوج، لها حرارة الدم.

ركبت بدور الدماهيري سيارتها، أرادت أن تذهب إلى طبيها
المسي، أصبح هو صديقها الوحيد، تدفع له في نصف الساعة
مائة وخمسين جنباً، الدقيقة الواحدة تحتها خمسة جنيهاً، إن
نفيت معه عشر دقائق دعوت له خمسين جنباً، إن احتواها بين
دراعيه وطالت لمة إلى ساعة أو ساعة ونصف، تدفع له مبلغاً
أكبر، لأنه يبدل جهداً أكبر، بجسده وقلبه، ليس فقط بدسائه أو
الحديث معها، دقيقة الكلام بحمسة جنيهاً، دقيقة الحث
العديني بسبعة ونصف، دفعه الحث غير العددي بعشرة، ثم يمكن

الطبيب النفسي يشعر بالحرج حين تصع في يده رزمة الجبهات

- إنها مهنتي يا بدور مثل مهنتك في التقه الأدبي، هل تشعرون بالحرج حين تتسلمين راتبك كل شهر؟ هل تشعرون بالحرج حين يدفعون لك للمقال الواحد خمسمائة جنيه؟ إنني أخشع من الناس ألامهم، ألام الجسد والقلب والعقل والروح وما الفرق بين ألام الجسد وألام الروح يا بدور؟ ولماذا يكون الحب الروحاني أسهل من الحب الجسدي؟ إنها مهنتي أحصل منها على رزقي الذي حله الله لي

- كما حل لك أربع زوجات يا دكتور

لا يا بدور، لست من هؤلاء الرجال، لي زوجة واحدة أحبها وأخلص لها، أن لا أحزن زوجتي بهذه الأفعال في العيادة، إنها جرم من المهنة

- لا أمهلك يا دكتور

- أي عمل يتعلق بالمهنة يدخل ضمن بنود شرف المهنة، وجميع المهن شريفة ما دمت لا تصرين الآخرين، حين احتواك بين دراعتي فأنا لا أضرب أحداً، في الوقت نفسه أنا أحفف عنك أحرامك وأعالجك من الحزن

- ما الفرق بين مهنة البغاء ومهنة الطب النفسي؟

- لا شيء، أنا أحترم لمومسات أكثر من الزوجات والأرواح الذين يكذبون بعضهم على بعض، الكذب هو العار الوحيد في رأيي، زوجي يعرف كل شيء عني، وأنا أعرف كل شيء عنها.

- ألا تؤمن بالله يا دكتور؟

- الله عندي هو الصدق وليس أي شيء آخر.

- ألا تؤمن بالمصير الذي كتبه الله فوق جبيننا؟

رفع الطبيب كفه ومسح جبينه وضحك:

- إن كان هناك شيء مكتوب على جبیني فإن قادر على أن أمسه بيدي وأكتب ما أشاء

- استغفر الله العظيم يا دكتور، هذا كرم

- هل أصبحت عضواً في مجموعة ابن عمك أحمد الدمهري؟

- لا يا دكتور، لا يمكن أن أفكر مثله، لكنني في حاجة إلى

الله

- لماذا تحتاجين إلى الله؟

- لأنه يساعدني ضد من يضطهدني، ضد من يظلمني

- من يظلمك يا أستاذة بدور؟

- كل من له سلطة علي، من عميد الكلية في الجامعة إلى زوجي في البيت.

- وماذا يفعل الله لهم؟

- لا شيء يا دكتور، لكن... لكن...

- لكن إيه يا دكتورة بدور؟

- لكن رثنا في الآخرة سيحرقهم في النار

- لا لا يا بدور، لنن أن حالتك المعصية متأخر ولا تتقدم،

كنت أحس حالاً من شهر واحد، أنت في حاجة إلى جلسات كهربية جديدة

- لا لا يا دكتور، إلا الجلسات الكهربائية، أنا مستعدة لكل شيء بما فيه الكفاية، وبلاش الكهرباء على دماغي يا دكتور
- تعمرى مشكلتك إيه يا بدور؟

- إيه يا دكتور؟
- حياتك كانت سهلة، أبوكي وأمك حرموكي من التحدي.
- أبوه كان كل شيء عندي، أبوها وأمي حرموني من المحرمات

- حرام عليهم، وأنا لا يمكن يسامحهم
- يعني أمست برتنا يا دكتور؟
- زلة لسان، يا بدور، خلاص الوقت خلص، لا مواخذة، لازم أقفل العيادة وأرجع بيني لمراتي وحيالي

السحابة السوداء تزحف فوق المدينة، من الشمال والجنوب، يصبح النهار مثل الليل، كانت بدور الدلمهيري راقدة في سريرها، شعاع حافت من الضوء يسري فوق جفونها المغلقة، يزحف فوق وجهها وعنقها، يدخل من تحت قميص النوم إلى بطنها العالية، تسمع صاحبة لا تعرف الوقت، تسمع صوت الرعد، تنادي الددا، تدخل ربات إلى غرفة نومها حاملة للصبيبة العvisة، فوقها يبريق الشاي من القصة، ملقعة السكر من القصة، تشم بدور نكهة الشاي، مع قصعة من كمكة العيد الناعمة، تذوب في عمها

مرشوشة بالسكر، وقطعة من الزبد مع العسل
- صوت الرعد ده يا ربات أو مدافع العيد؟
- لا يا ست بدور ده صوت المطهرات.

هبت بدور الدلمهيري واقفة على قدميها الصغيرتين المدكوكتين باللحم، دنتهما في السجوف الأرق تعلوه كره من القرو الأبيض، سارت تتوثع إلى النافذة، من خلفها تمشي ربات، في قدميها حذاء أبيض من الكاوتش، عدت يدها السجود النحيلة إلى النافذة تفتحها، اندفع الصوت مع الريح قوياً يهز الجدران، آلاف الناس، ملايين الناس، ساء ورجال وشباب وأطفال، يسرون صفوفاً صفوفاً، حامسين اللأفتات، يتصاعد هتافهم برج السماء، يسقط النظام، يسقط الملك والإنجليز.

تعض بدور عبيها جسد يرنش، تعود إليها الذكرى.
- حلم لم يحدث إلا في الخيال؟ حقيقة حدثت في حياة امرأة أخرى غيري؟

كانت بدور في التاسعة عشرة من عمرها، تمشي نحو الحب والحرية، بخطوات قوية ثابتة، نجسدت الحرية والحب في شخص واحد، كان يمضي إلى جوارها في المظاهرات، كان اسمه نسيم، كان اسمه معصم، أو ربما اسم آخر، تغيّرت الأسماء مع مرور السس وتغيّرت الهافات، يسقط الملك والإنجليز، يسقط الأمريكان والفرنسي، الجلاء بالدماء، الاستقلال التام أو الصوت الرؤام، تحب مصر حرّة

الهتاف ينصاعد من بعيد، يقترب منها أكثر وأكثر، أصوات
الآلاف في الشوارع ترتفع

قلوب العيش والزيت الحار

والجواز ولع نار

قلوب السكر قلوب الزيت

لما بعنا البيت.

ينمالي الهتاف، يشبه هدير الشلال، يرتفع وينخفض، ثم
يرتفع، يسقط أجساد على الأرض، ثم تنهض، تسقط ثم تنهض،
وهي تمشي بينهم، تدوس على قدميها بقوة، تعني داخل نهر من
النسر يدوب في البحر، محمولة فوق موجة علية، لا تشعر
بلمس الأرض، يعتصرها ضغط الجموع حيث تقترب من
المركز، يدوب جسدها حتى يتلاشى ثم يولد من جديد، هي جزء
من الكل، الكل جزء منها، صوتهما يدوب في الأصوات، يرتجها
لذات حسية عيفة تشبه الجرس، تمشي وتمشي دون أن تشعر
بالتعب، لم يعد جسمها مميماً ولا قصيراً، أصبحت ممسوقة
القائمة، رشيفة الخطوة، ترقص بخفة على الإيقاع ثم دب الصمت
بصوت يشبه الرعد، أصبحت الشوارع خالية من الناس، سيارات
البوليس تجري هنا وهناك، وفقت هي مكانها ثابتة، تسند ظهرها
إلى الجدار، أمامها نراه واقفاً، ذراعه ممدودة نحوها، ذراع طويلة
قوية، تمتد من صدر حربي داخل المعانلة البيضاء من القطن،

يرحب بحوها سائل أحمر بلون الدم، تمتد يدها لتمسك يده، لكن
المسافة بينهما تتسع وتتسع، يتنسم لها من بعيد قبل أن يحتمي،
تراه من ظهره يمضي، ظهره مرفوع مشدود العضلات، الأظفار
يقبلون بحره من الشوارع والأرقة، يدورون حوله على شكل
الدائرة يمضون

- نورت يا قطر النيل، يا حلوة عليث يا جميل، اجتمعوا يا
بنات النيل بالآله مالهوش مثيل، قطر ما شاء الله . .

أعافت بدور على صوت زينت نمت لها فحان الشاي.

- اشربي الشاي يا ست بدور قبل ما يبرد.

- ما لش قس يا دادا، قسي مملوده

- مال لونك محطوف كله يا ست بدور؟

- عندي برد من إمارح.

- لازم مشي في المظاهرة، خطر عليك يا ست بدور

- أوهي تقولي ليابا أو ماما.

- يتخطع لساني لو قلت يا ست بدور

- إوهي تقولي لهم يا دادا؟

- لا يمكن أقول يا ست بدور، إنتي خالية عندي أوي، لكن

المظاهرات خطر عليك يا ست بدور، البوليس قبض إمارح
العجر على إسي سيم. أعدوه بالعمالة والعباس، أخذوا شبيب
كثير، كلهم من الناس الفخرا اللي مالهوش صبر ولا واسطة
كبيرة، ضربوهم بالرصاص.

تبلغ ربات دموعها.

يا ترى إست هایش یا إیسی أو مِیت؟ یا ترى ییعدبوك زي ما
یا سمع من الناس؟ لو رنّا موجود كان العذاب ده یحصل یا ست
ریات؟ استعمر الله اعطیم من کلّ دسب عظیم، سامحنی یا ربّ،
شوف هدایی یا ربّ وإرحم إیسی من العذاب،

تسمح ربات عیسیها بکتم جلبابها الراسع، تحوطها بدور
بلراعیها، تبكي فوق صدرها، تسبح کلّ مهما دموع الأخری.

- هاوره أموت یا دادة زینات.

- بعید الشرّ هنك یا ست بدور.

- الموت أرحم من العیشة دي یا دانا.

- ده إئنني لسه صغیرة یا ست بدور، یدوب عندك تسمناشر
منه، ورنّا أخطاکم غیر کثیر، یُکره تتخرجی من الجامعة وتبقى
أستاذة کبیرة، الذکتورة بدور الذامیری علی سنّ ورمح.

- الدنیا مظلمة فی هیني یا دانا، خایفه...

- خایفه من إیه یا ست بدور؟

- خایفه بابا وماما یعرفوا اللّی حصل.

- إیه اللّی حصل یا ست بدور؟

- ما فیش حاجة یا دانا، ما فیش حاجة حصلت.

- لّما ما فیش حاجة حصلت خایفه من إیه؟

خایفه یعرفوا إنی مش هی المظاهرة

- کلّ الناس مشوا فی المظاهرة یا ست بدور

- مشیت مع واحد زمیلی فی المظاهرة.

- مشیوا سوا فی المظاهرة یا ست بدور وماله؟ جرى إیه؟

المشی فی المظاهرة مش عیب، بالعکس ده شرف یا ست بدور،
أنا مشیت فی مظاهرات کثیرة مع المنال والملاحین

- آیوه یا دانا زینات لکن بعد المظاهرة رُحت مع زمیلی،

- رُحتم فین یا ست بدور؟

- بیته...

- بیته؟

- آیوه یا دانا؟

- وحصل حاجة فی بیته یا ست بدور؟

- آیوه یا دانا.

تبكي بدور فوق صدر الدادا وهي تحكي لها، یتغطى جسدہا
فی امترزات عیفة، تھددها زینات کالآم، تأخذها فی حضنها،
ترکت رأسها وشعرها

• قولیلی یا بنتي إیه اللّی حصل؟

• إوهی تقولي لحد؟ إوهی تقولي لپاپا وماما!

• یغطع لسانی لو قلت یا ست بدور، ده إئنني خالیه عندي

زي إئنني نسیم، یا ترى هایش أو مِیت یا إیسی یا حبیبی

كان اليوم جمعه، وحت الظهيرة، بعد سبعين كثيرة، الأيواف
والميكروفونات كلها مفتوحة مثل موهبات الجحيم، الشمس رصم
احتجابها وراء السحابة السوداء تشع لهيباً وصهداً وعرقاً، امرأة

تحمي وراء نعت أسود، تصب على العالم محيها ولهائها،
كانت سحبي فوق الإسفلت لئلا تلوم بكعب حفاتها
المفتب، تصع حرماء في الطيب للفرح، تحشي الانزلاق فوق
الزوجة، تحشي السقوط فوق الأرض الهشة. إن سقطت فسوف
سهال فوقها السكاكين، ويهتل المال خلفها:

- العجل وقع هاتوا السكين.

والعالم من حولها يرحق في الميكروفونات.

- الله أكبر، الله أكبر....

حتى القطط الشاردة أصبحت تموء بكلمة الله أكبر، تتلقى من
الصباح إلى المساء كل ما يخرج من موهات الأبواق، تتمسح
بالأرض ساجدة فوق بطنها في خشع مع الجموع.

يرادف السؤال وهي تمشي:

- أهيكون العالم كله مجنوناً برجله وساقه وقطعه وأنا الوحيدة

العاقلة؟

فوق الجدار العالي كانت الحروف محفورة:

"إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء"

كانت هذه الحكمة هي ملادهما الوحيد، إذا كان الضلال مشية
الله فهي حسب مبدأ العداوة بريئة

كانت الشوارع مزدحمة بالناس، يرتدون الملابس الجديدة،
صردف أن جاء عيد الأضحى مع عيد الميلاد، عيد مولد المسيح
عيسى ابن مريم، وعيد النصيحة بالكش لئلا يندح بدلاً من إسماعيل

أو إسحق، أبوهما النبي إبراهيم، يلتقي رعدة صارة روحته أم
إسحق، يلتقي بهاجر ووجته الأخرى أم إسماعيل في العراء، يستقي
الأمر بذبح ابنه إسماعيل طاعة لله حسب ما جاء بالقرآن، أو ذبح
ابنه إسحق حسب ما جاء في التوراة. لا يعرف أحد من الأبيس
بذبح؟ الأب إبراهيم أيضاً لا يعرف أو ربما يعرف، لأن القرآن لم
يكن نزل بعد في عصر النبي إبراهيم، ولأن كان عليه أن يذبح ابنه
الأنبيس، تنقياً لأمر الله في كتابه تكريمين، التوراة والقرآن،
لرسلهما الله مع كتابه الثالث الإنجيل، هدى وهدى للعالمين.

كان الصباح مظلماً مليئاً بالعيوم، والسحابة السوداء ترحف
كعاندتها فوق سماء القاهرة، تنافس أجراس الكنائس في دوتها مع
مكبرات الصوت فوق الجوامع، يفرغ أولاد العائلات بُسب العيد،
يرهبون بملابسهم الجديدة أمام أصدال الشوارع، يدهون بأحدهم
الجلدية المثينة على الإسفلت، يسحرون من الطفل اليتيم الأهرج،
يقدمونه بالطوب، يجري هارباً منهم، يطردونه حتى يسقط على
الأرض، يترافسون ويهتلون:

- العجل وقع هاتوا السكين.

صردف أن فتاة محببة مسلمة كادت تمشي، اصطدم بها في
الزحام فتى قطبي، اعتذر لها وعصى في طريقة، لكن رجلاً مسلماً
أوقفه وصمعه على وجهه، ردّ العسى الصعقة بصعقة مماثلة، بدأ
العراك وحدث المذبحة، حُرقت كيسه الحي ومات شيبات من
الأعاط والمسلمين.

تلقى البوليس أمراً بعدم التدخل، حتى يبيد العريقان أحدهما
الآخر، ثم جاءت العربات المصقحة، والمطافئ، حوطت لكسه

والجامع، اعصمت روحاً رسماً وشيئاً وبعض أفعال الشوارع،
تكذّبوا داخل العربات السوكس مثل قطع السرديس، انطلقت بهم
مع انصقرات إلى حيث لا يعلم أحد.

فيل أن سرح في الصباح أعدت بدور الدامهيري حصتها،
لونها أزرقي رمادي، نجرها على عجلات، وضعت في الحقيبة ما
تحتاج إليه في رحلتها الطويلة، قبل ذلك جلست بجوار الحقيبة
المعارضة على طرف السرير تفكر، ماذا تأخذ معها؟ عيناها تدوران
من حولها، تتأمل عرفة السوم، دولاب الملابس الكبير، من
الخشب الزايد مغطى برسوم ورخارف، ستائر حريرية شفافة عرق
النامدة، لونها أزرقي فاتح سمادي، السرير المريح رقدت فيه إلى
جوار زوجها منذ بنة الرفاف، اللينة وراء اللينة، السنة وراء السنة،
ثلاثين، أربعين، مائة عام، أكثر من عاة عام مرت منذ الولادة
حتى الموت، كم مرّة وُلِدَتْ وماتت، ثم وُلِدَتْ وماتت، فوق
الشفاعة بجوار الدولاب ترى البيجاما الحريرية الرمادية، خلعتها
زوجها في الصباح قبل أن يخرج إلى مكتبه في الجريدة، اتخذت
البيجاما شكل جسده، مترفة مثل عضلاته، تنثني وتهتز قليلاً مع
حركة الأرض والهواء، السروال يندلى مفتوحاً أعلى المحدثين
أسفل البطن، الأردار معكوكة تفضّ منها قطعة اللحم، مترنحة
مكشلة بحجم العار الصغير..

عيناها تشعان في دمول، عهها عاجز عن المهم، هذه القطعة
الصمرة من اللحم، فمت عليها الدما والأحرف، تأستت فوقها
الفلول والأديان، حممت الساربح فوق رأسه وسار بها منذ الأزل
وإلى الأبد، هذه القطعة من اللحم لدخلت الماء سجن العبودية،

أهت الرجال وأذنتهم، جعلت أشيخ العجور يعصب طعله
صغيرة، وللمؤمن الصالح بعد ثني عقله إن هاجت، هذه القطعة
من اللحم، حرمت ثلاثة ملايين عمل في بلد واحد من حقوق
الإنسان، وكلدوا في الشوارع، عاشوا في الشوارع، وماتوا في
الشوارع، هذا العار الصمير المسكمن بين المحدثين حكم على
ملايين البات بالموت قبل الأوان، سلب مهر العرج والسبعة،
سرق منهج الابتسامة والأمل وحسم الطعولة، هذا العار الصغير
يتوهم الحياة بعد الموت، يبتلع حبوب العياض تحت سحابات
الظلمة، والرهيم بالبعث في حياة أخرى.

فوق السروال الحريري بقعة لونها أصفر، لها رائحة البول أو
قطرة الدم، نافية وثنا منذ استنصال الخصية، أو ذلك السائل
الأصفر الباهت اللون، المشيع بالحوشبات المشوية، أطلق عليه
الدكتور اسم ماء الحياة، له رائحة الموت أو حامض أوكسيد
الكبريتيك، تلك الرائحة المنفرة النفاذة، تعجز أنوف النساء عن
شمها من شدة الحث أو السعادة الموهومة.

كانت بدور الدامهيري تتلقى الحب والرائحة أملاً في الحرية،
يتلاقى الحب والحرية داخل جسدها في مركز واحد، في بؤرة
واحدة تملو فيها اللذة والألم إلى القمة، تميش وتموت في لحظة
واحدة خاطفة، ثم تنشع العشاة، نشد جنوبها لتفتح عيناها على
الحرث والحقيقة.

الحقيقة المعتومة إلى جوارها، تصنع فيها ثوب القديم من
القطن الأبيض، كانت فوقه يوم سارت في مظاهرة الكبر،
فوقه من الخلف بقعة دم قديمة، بعد بحصة الحث السريعة، لحظة

واحدة صريعه تساوي العمر، لحظة واحدة حقيقه مسكت لحقيقه، حملتها إلى الموت، مسقة بالدم قوي الثوب من الجنب، من الأمام بقعة أخرى فوق صدرها، حين مذلها ذراعها مبللة بالدم، يسري اللون الأحمر فوق فائكه البيضاء، مذل ذراعها وأمسكت طفلتها المولودة فوق الرصيف، وضعتها في الحقيبة إلى جوار ثوبها القطني، مذل ذراعها وأمسكت الدوشيه الأصفر في الدرج، وضعت الرواية الطويلة في الحقيبة، رزمة من الأوراق المكتوبة وغير المكتوبة، لا تعرف عددها، مبللة بالعرق والتعب والأرق، وقطرات دموع حفت، وتجمدت على شكل حروف سوداء محروقة، تشبه حروف الأطفال في المدرسة الاسدينية، فتشويبة تسري من الأوراق إلى أصابعها، إلى ذراعها، إلى جسدها كله، رائحة الحبر في أنفها شبه رائحة الموت، رائحة عروش الرواح

هل يحسن الإنسان بالموت قبل أن يموت؟

تظن بدريه من بين الأوراق نالها، عباها ثبنتان في عسيها، كانت بدريه تتحدث معها طوال الوقت، على مدى منين العمر، صورتها يملأ البيت، وجودها يملأ الكون، يؤنسها، يحقق عنها الرحلة والصمت، تشخصمان وتشخصالجان، تشخصمان وتشخصالجان، لا عسى لإحداهما من الأخرى، والصمت في كل أنحاء البيت؟ لمحت بدور بعض السطور المكتوبة في الرواية بخط بدريه، حروفها الكبيرة المستقيمة تشبه خطوط الأستاذات الكبيرات.

الحزن حين يأتي لا يعرفه، لا تتوقعه يا بدور، لا يحسن به حزناً، بل وجماً في الصدر، تحت الضموع، وألساً دفيناً تحت

عظام الرأس، بلوم أنعسا عسى إنهم لم يفعله، كنسات لم يكتبها، حروف تم نطقها، حممه فب لم تدركها، الحزن أشد من الموت، بعد أن يعود من أي مأثم، وإن كان مأثم الأب أو الأم، أو قن هو أعز عنهما، نصحر في اليوم التالي لنشرب الشاي، نتناول فطورنا كالمعتاد، نقرأ الصحف والأخبار والمجلات، نذهب إلى المكتب أو العمل، نعود إلى البيت، نعود إلينا لأحلام في الليل، نمارس الجنس كالمعتاد، كما نمارس السير على القدمين كالمعتاد. كالمعتاد ..

لكن الحزن شيء آخر، الحزن قطعة مع الحياة، تتوقف عجلة الحياة اليومية، يتغير طعم الأكل في الفم، يستمر الطعام في المعدة مثل قطعة من الحجر، يتغير طعم الماء ورائحة الهواء، تتغير ملامح في المرأة، لا تعرف على وجوها كالمعتاد، الحزن لا يأتي دفعة واحدة، من يأتي في موجات، هي شحبات منقطعة، الحزن اكتشاف معاني للموت، رهد معاني في الحياة، مع من الركسين تصح محلحله، العيان تُصيهما رعدة، طقوس الحياة اليومية تصبح هي العيب، كرتج حلايا المنج داخل الجسد، موجات الحزن تشبه موجات الضوء العاطف، يصبح الجسد خفيفاً متحرراً من الثقل، يُحلت في الفضاء من شدة السعادة، ثم يُثقل ويُثقل بالحزن مثل قطعة من الحجر.

كانت بدور اندامهيري جالسة على طرف السرير، بجوارها حقيبتها المفتوحة، تنقل عظمات وجهها بهركة غير مرتبة، تُعس الحضة في حلقها، يبعث ريقها دون إحساس بالظما أو رغب

في الماء، مُحسَن الاحتشاق كأنما الهواء في العرفة معدوم، تحتأخها
 رغبة في السُّهْد، في البكاء، في الصراح، دور صبرة على الصراح
 أو السكاء، الجفاف في حلقه وفي عيبيها يحب سجفون، انصمت
 والحواء في جسده داخل الأحشاء، يمتد بها الوقت وهي جالسة
 دون حراك، تُبَحِّلق في المزعج، يسقط في نسوم وهي حاسمة
 مفتوحة العيبي، تدخل في الليل من حشم إلى حشم، لا تصحو ولا
 تسهر ولا تُبكي، لأن اللعوج مائت من الحرون، غُذَّة الدموع
 تجمَّدت في الموت، جفَّ ماؤها حتى القاع، حبال صونها جفَّت
 وتقطعت، لم تعد تطلق ولا تصرخ، خلأها عقلها توقفت، أصبح
 الطريق أمامها مفتوحاً إلى الجون، إلى رحلة طويلة داخل الظلام،
 قبل أن تولد، حين كانت جنيناً في الرحم، يحوِّطها الماء، ماء
 أسود كثيف غير قابل للاختراق وأنسعت عيها في ذهول، كانت
 ترى الضوء، كانت ترى بعثتها في المراتد، دهشة العين العارية
 ترى نفسها، دهشة الميت يرى موته بعينه، كان الحزن قد راح
 وسقط في العدم، وأضاء ركن في عقلها كان مظلماً

لم تعد بدور الدامهيري نخس الغراق أو الطلاق أو الموت،
 يمكن أن تحمل حقيبتها وتمضي وحدها في الطريق اللانهائي
 المجهول سحبت بدور نفسها من حذقة الكون وعين الله الساهرة
 لا تنام، لم يكن انسحاب الرأس والفراغ، بل الامتلاء بثرء الوحدة
 الجديدة الباهرة، كانت الوحدة في مظهرها غلاباً تسمده، الماء
 نحشاء، وليس متعة تنظرها، وكانت تسأل بدرية قبل أن تمضي،
 - هل بالوحدة خرجت من العالم أم دخلت فيه بحق؟

وهمست بدرية بصوت حافت وهي تراها تجر الحقيبة من
 حدها

- الوحدة ليست في حد ذاتها متعة، لكنها قد سحقت معاً
 حديد، ربما تكسين روية جديدة، أو تعيشين حباً أكبر من حبك
 الأول التيم، ربما تكسين بصمير المتكلم، أنه، ولا تتحفظين وراء
 امرأ أخرى وبقرلين هي، ربما تسلمين هي مهنة النقد الأدبي،
 وتكففين عن منسج أحذية الآخرين، ومنه حذاء زوجك، ربما
 تمسحين حذاءك أنت، وترين نعتك الحقيقية فوق الورق، ربما
 نظريين من رأسك ما سمعت من نقاد الأدب، أن الكتابة بصمير
 الأنا أقل قيمة من الكتابة بصمير الغائب، هي أو هو، أو هم أو
 هن، إن كتابات النساء تضعف الحديث عن الذات، نقد الأدب يا
 بدور غفلوا الذات والحقيقة، ومن يفقد ذاته يفقد الآخرين

فتحت بدور الدامهيري الباب، خرجت تجر من خلفها
 الحقيبة دون أن تلقي نظرة واحدة إلى الخلف، دون كلمة وداع
 واحدة لحياتها الماضية، رآها زوجها حين ظهرها تسير إلى الباب،
 كان ظهرها مشدوداً مرفوعاً، سقطت انحناء ظهرها في العدم،
 ساضي لن يعود، لن يتحرك الرمن إلى الوراء، وإن تعبرت قوايين
 الطبيعة وحركة الكواكب، وإن عاد الرمن إلى الوراء، كما يقول
 بعض العلماء، فمن تعود بدور إلى الوراء، لن تعود، وإن تدخل
 النساء أو المدرس فسوف تمعه، سوف تسبح من فوق جسدها ما هو
 مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن تولد.

كان زوجها، ركنها الحزني، واقفاً في الصانة وهي تصيح
 ناس ومحرج، سقط الضوء على وجهه في لحظة خاطعة

كالصفحة، ثم انقلب الباب من خلفها دون صوت، دون غضب، دون حرب ولا دم، دون شيء على الإطلاق، كأننا للزمن الطويل الذي جمعهما في مراث واحد لم يكن زمناً، كأننا مائة عام هي لحظة خاطفة عابرة، كأننا أصبح بدور الداهيري امرأة أخرى، مولود له يوم هذه اللحظة، هذه اللحظة التي فتحت فيها الباب وخرجت، انفتحت عيناها لأول مرة، أدركت أن الخوف مثل الإيمان الموروث أعمى، إن فتحنا عيوننا ثلاثاً وتلد، مثل قطرة ماء تذوب في البحر.

بقي زوجها واقعاً في النعومة، محملاً في ظهر الباب المغلق، داخل منامته الحربية الرمادية، كأننا بيضاء ثم بهتت مع الزمن، مقلتاه الصغيرتان الغائرتان كان لونهما أسود، أصبحتا بلون الملامة البيضاء، أو استحيبتا تحت الجفون هرباً من المواجهة، سعياً إلى النوم من جديد، لكن الصفحة المفاجئة بدت بها النوم، استلطف معه الذكر الآخر القابع تحت المنامة، تحت السرورال المنهدل، بدأ صوته يسري في أدنه كالنسيم أو صفير الريح المبيد:

أنت يا رجل أعطأت في حق هذه المرأة، راوغت وكذبت وتلاعبت حتى أصبح الباب محملاً في وجهك، نحن الرجال لا نتراجع عن الخطأ حتى نجبرنا المرأة على ذلك، وبعد فوات الأوان، نحن لا نشتهي المرأة التي مكها، نتطلع عيوننا إلى ما لا نملك، لا نعرف قيمة المرأة حتى نفقد ما، هناك شيء معطوب في الرجال، أو ربما في قانون الزواج، فإذن وضع اليد والسيطرة، ما إن يسيطر الرجل على المرأة حتى يحدث العطب، إنه تاريخ مكتوب قبل أن تولد، كتبه الآلهة وينسلي والعلوك والفراخنة،

محفظه عن ظهر قلب منذ الولادة حتى الموت، ترصعه مع ليس الأم، وليس الأب، لأن لبن الأب يستقل إلى الثدي الأم، متذكراً بلون أبيض يري، برامه الثوب من دم الحمل

شوخ زكريا الحريشي بيده صاردة الصوت، كان لا يزال واقعاً في الصلاة محملاً في ظهر الباب، يستعيد صورتها بعد أن مضت، يتذكرها في أول لقاء، وهم مرور نسيم يظل النقاء الأول محفوراً في الذاكرة، مرّت به أحداث وأحداث، لكن هذه اللحظة الأولى بقيت، كأننا هي الزمن الحليفي، كأننا العمر لا يحسب بالسنين، كأننا الزمن غير موجود إلا هذه اللحظة، كان يسمعها تقول وهي تكتب، لحظة واحدة من العمر قد تساوي العمر كله، كان يضحك عليها، امرأة جاهلة بمقاييس الزمن، امرأة ناقصة العقل والذهن كما سمع من أبيه وجده والمدرسين، كما قرأ في كتب التاريخ والدين، في أول لقاء قل لها:

- أنا مختلف عن أبي وجدي وكنت الرجل، أنا لا أومن بالآلهة المذكور.

لكن الله وإيليس كانا قد تسدلا إليه مع ليس الأم، أصبحتا راسحين في أحضانهم كالأسماك المسلح، هما معاً، لا يوجد الكون دون إله وشيطان، لا شئلهما شيء إلا السماء، مثل كل المذكور.

سار حافياً يترنح، أسرع الحظو قليلاً ليدخل دورة المياه، أصبح البول أسرع منه مع الزمن، تترن من قبل أن يجلس فوق المرحاض، تفوح رائحة بقاءه، أشد عذراً من كسب، بعد أنه عن المرحاض. لم يكن يتفر من رائحة عرقه ويوله، لم يكن يفر من

التجاعيد حول عيبيه في المرأة، كان يرى سجعية روحته ولا يرى
تجاعيده، يشم رائحة بولها وعرقها ولا يشم رائحة جسده، كانت
روحته مريثة بعينيه المستوحشتين، كان يحذق فيها ويراه دون أن
تطرف له عين، لكنه كان عاجزاً عن رؤية نفسه، كان أعمى فيما
يحض الذات، عياء مثل عيون الألهة لا ترى إلا العبيد فوق
الأرض، لا ترتد عيناه لتعذفا في دانه العبيد، لأنها فوق الرؤية،
فوق السمع والبصر واللمس والشم ومائر حواس البشر الحسية.

جلس زكريا الحرتيني في مقعده المعتاد إلى مائدة المطور،
يرشف القهوة ويمرأ عموده في الحريدة، كان العمود موجوداً لكن
أقصر ممّا كان، اسمه الكبير أصبح مكسوراً بالسط، الصغير، لم يظهر
صورته داخل الروور فوق رأس العمود

اهتزت الأرض من تحت قدميه، اهتزت السماء، كانت
سقطت الأعمدة التي تحمل السماء معنفة في الهواء، كما جاء في
كتب الله

«...أيمكن أن تسهوى الأعمدة وتسقط السماء من فوق
الأرض؟ أمكن أن تقوم القيامة وينهض الموتى من القبور،
وموت الأحياء في اشوارع والبيوت؟ أمكن أن تسقط الحكومة
ويتهاوى العرش من تحت أبنية فرعون؟ أمكن أن يأتي حاكم
جديد أو إله جديد، يرتدي بدن الكرافاتة حول عنقه عصا وريشة
سوداء فوق جبينه، ومبحة صفراء بين أصابعه، يحمل السيف بيده
اليمى يدل المسدس، وفي يده اليسرى يحمل كتاب الله يدل
الدمتور؟ هل أصبحت مصر مثل أفغانستان يحكمها الطالبان؟

هت زكريا الحرتيني من النوم، فرك عينيه بيده، رأى عموده

في الحريدة كما كان، صويلاً رقيقاً على يمين الصفحة، صورته
داخل البروار بحججه القديم، كل شيء كما كان، والسماء
مرفوعة فوق أهدنته في الهواء.

لكن المقعد أمامه كان خالياً، أين راحت زوجته بذور؟ ربما هي
في الحمام، أو في غرفة مكتبها تكتب الرواية، أو ربما ذهبت إلى
الجمعة، أو إلى صديقتها صافي، أو إلى ابنتها مجيدة، فوق
غلاف مجلة النهضة رأى صورة ابنته مجيدة الخريشي تلفت رأسها
بحجاب أبيض، عنوان مقالها داخل الترويسة مع كبار الصحفيين:

«المرأة في الإسلام» بقلم الكاتبة الكبيرة مجيدة الحرتيني

أصبحت ابنته كاتبة إسلامية، صدر قرار من الرئاسة بمسحها
معداً بالتعيين في المجلس لأعلى المتحدث بلصقاه، كان تعيين
ولا انتحاب في المحال للعلما شيئاً واحداً، يصدران بقرار الواحد
الأحد غير المكسور، أو المكسور بالبحر السري، مثل قائمه
الموت، وقائمة الصالحين من أصحاب الجنة، والكافرين من أتباع
الشيطان الرجيم، وحواء ونحبة الرقطاء، الأسماء في قائمة الموت
كانت مشورة، بالبنط الأسود الصغير، في صفحة الحوادث
والجرائم، أربعة وأربعون اسماً من الخارجيين على الدين والنظام
العام، أربع نساء وأربعون رجلاً، مثل الأربعين حرامياً، يحلّلون
الحرام، ويحرمون الحلال، يستحقون الموت حسب أمر الله
ولأمير.

وقع بصره على اسم ريتة بنت زينات، تحت الاسم صورة لها
وهي طفلة بجوار اشوارع، شعرها كثيف أسود مكوش، نافر في
رأسها كالأسلاك، تحضن العمود كأنها تحضن إسيماً، تعني

وترقص، فمما مفتوح على آخره حتى النهاية داخل الحلق، قدمها
حاشاك بدت بهما على الأرض، وجهها طويل نحيف شاحب يشبه
وجوه الموتى، أو وجوه المشبهات في دور البلاء واليأس.

أشاح بوجهه بعيداً عن صورتها، المقلتان الكبيرتان في عيها
متوهجتان ببار سوداء ورقية، ترتجف أحشاه حين تثبت المقلتان
في عينيها، يطردهما بيده ورأسه وذراعيه وساقيه، يريد أن يفتأ
هاتين العيتين، أن يسحق هذا الجسد النحيل بين يديه، أن يفرغ
أظفاره في اللحم حتى العظم، في ذاكرته كابوس يشبه الحلم،
حادث ألم وقع خارج الوعي، بعد الأكم تحت الصلوع، تحت
جدار صدره وبطنه، أسفل الظهر، إلى عذبة الشيطان تحت شعر
العانة، في صلاته كن يوم يطلب من الله المغفرة، في ريارته
للحرمين الشرييين طوف حول الكعبة، قتل الحجر الأسود بشعبه،
رجم إبليساً سديه، عاد من الحج مفسولاً من الآثام، نظيفاً مولوداً
من جديد، بعمر الله كل الذنوب إلا أن يُشركه، وهو من
المؤمنين الموحدين، ليس من المشركين الكفار، الذين يقولون إن
المسيح هو الله، ابن الله، يمارون على صوت الموسيقى والرقص
واللهو، ليس على صوت ترانيل القرآن الكريم.

أسفل صفحة الحوادث والجرائم كان خبر صغير، مع صورة
لصحفي اسمه محمد أحمد، شعره منكوش يشبه المجانين، فوق
خذه الأيسر ضربة سكين، مثل المجرمين، عياه نصف مغلفين،
غائب عن الوعي.

ثم تعويل الصحفي محمد أحمد إلى النيابة، بتهمة لؤدراء
الأديان والمخروج على النظام العام وشرعية الله هذا الصحفي

المعمور يسمى نحو الشهرة عن طريق المعارضة، به صلات
مشبهة بالمرب، يتردد كثيراً على دور اللهو والرقص والبلاء، بشر
مقالاً في جريدة الثورة المعارضة، جريدة غير شرعية، له محصل
على تصريح من المجلس الأعلى بالدولة، صدر القرار من
المجلس الأعلى بالبرلمان بإغلاقها، ومصادرة أعضائها الأخيرة،
وتحويل أموالها إلى الجمعية الإسلامية للتخفيف والبر والتفوي،
وإطعام المساكين واليتامى، وإقامة موائد الرحمن في شهر رمضان.

في غرفة تحت الأرض كان الشاب محمد حاليماً، على
كرسي خشبي صعب، ليس له ظهر، مردياً العائقة والديس،
المجرح العميق فوق خذه الأيسر يرف دماً أحمر، من حوله عدد
من الرجال، يحملون كراييح تلوى في أيديهم كالثعابين ويهيم
شاخصة نحو رتيهم، يحمل ثقب المحقق أو القاضي، أو الأمير،
بلوحة وزير أو نائب محكمة أو رئيس، يدوي صوته قوياً ضحماً
فخماً، يتناقض مع جسمه النحيف السمين، أصابعه القصبة ساعمة
تمسك المقال المقصوح من الجوربال.

- اسك الثلاثي؟

- محمد محمد أحمد.

- مسلم؟

- أيوه.

- موحد بالله؟

- أيوه.

- المقدر ده بصمت؟

أيوه

بصمت المحقق في وجه الشب، لا يرى الدماء البارقة من
جذبه الأيسر، هبناه الصيقلان العائرتان مرفوعتان نحو وجه الله في
السقف، في السماء من خلال السقف، مقلناه صغيرتان تبدلجان
داخل بياض كبير، مضرتهما باردة خاوية مفرقة من المعنى، فُقدان
من مادة تشبه الزجاج، البلاستيك، مثل الجلد المشدود في
الكربيد، ضوء كهربائي قوي من أربع لمبات، مسلط في عيني
الشاب الجالس فوق الكرسي الخشبي دون ظهر، عضلات ظهره
مشدودة، يقاوم الانحناء، يشد جفونه يقاوم العبثية، يحاول تثبيت
عينه في عيني المحقق.

استمر التحديق طول النهار وجزءاً من الليل، دون فترة راحة،
إلا دقائق يذهب فيها المحقق إلى المرحاض، أو يشرب ماء، أو
يأكل وجبة العشاء والعشاء، الشاب لم يتحرك من مقعده، يحبس
البول في المثانة، يحبس الدم داخل الجرح، السؤال وراء السؤال
يدق فوق رأسه بصوت المطرقة الحديدية:

- ألم تقرأ الفتوى التي قالت إن الموسيقى والرقص ولبعض
من أعمال الشيطان؟ كيف تدافع في مقالك عن امرأة ساقطة من
بيات الشوارع، بنت زنى؟

رسمت رصاص قذبة كسيرة، الناس تبعوها تذهب إلى
حفلاتها تشعر بالسعادة حين تسمعها، الفن الجميل من هذا الله،
لأن الله هو الجمال

- أنت لا تعرف الله لتكتم عنه، أنت مصلل الناس، تقول
بأن المدارس والجمعات أهم من ماء المساجد والكنائس، هل
قلت ذلك؟

- نعم.

- أليس هذا تفضيلاً للناس وإهمالهم عن الإسلام؟

- الإسلام بُني على العن، كل ما يبني العقل والمعرفة يدخل
في الإسلام

- كنت قلت إن غسل الميت عادة قديمة لا علاقة لها
بالأديان، هل كنت ذلك؟

- نعم.

- أنت ضد النظافة؟ ألا تعرف أن النظافة من الإيمان
والوساخة من الشيطان.

- النظافة تحتاج إلى ماء جاري في الصنبور وصابون، أغلب
الناس الأحياء ليس عندهم ماء ولا صابون، كيف نغسل أجساد
الموتى، والأحياء لا يستحمون، ثم إن جسد الميت يأكله الدود
والتراب، فما فائدة الغسل؟

- أنت تجادلني؟ ألا تعرف أن مقالك مشير للجدل، أي مشير
للفتنة.

- الجدل يؤدي إلى المعرفة والفهم وليس إلى الفتنة.

- أنت تعارض حمات المرأة وتقول إنه ليس في الدين ولا
علاقة له بالأخلاق، ألا تحالف أمر الله؟ ألا تعرف أن وجه المرأة
عورة، أن معاش المرأة تسب الفتنة

- امرأة ليست سبب الفساد، هناك أسباب أخرى سبب ميراث الناس، منها الدين ولعنتهم والفساد والكذب.

- هذا كلام كهر. كيف تقول هذا الكلام؟ أنت تستحق الموت

- قبل أن أموت أريد أن أعبر عن رأيي، نحن نوث الذين عن الأب والجد، سنركبنا الأخلاقي يعتمد على الوعي والضمير وليس على الدين، هناك قسوسة ومشايخ يفتصبون الأطفال ويحبسون الأموال، هناك مساء ورجال لا يؤمنون بأي دين، لكن أخلاقهم مستقيمة، يدافعون عن الحق، يموتون من أجل الدفاع عن العدل والحرية، الموسيقي ترفع الروح، توفظ الضمير، الموسيقي لا نسب الفس ولا الحروب، الأدباء تسب الفتن الطائفة والمذاهب، لا علاقة بين العدل والدين، يمكن أن يكون هناك عدل في عدم ليس فيه دين، لا علاقة بين الأخلاق والدين، يمكن أن يتحلل الناس بالأخلاق دون أن يكون لهم دين، بل إن الدين له مكابلات أو أكثر لنفسه، الأخلاق، مكبال للرجال ومكبال للنساء، مكبال للحاكم المالك، ومكبال للعبودية المحكومين، المملوكيين، الأجراء، الصقراء، أنا شعبان شعبان... موهق، أريحوني من عذابكم، الجحيم هنا فوق أرضكم وليس بعد الموت، الموت راحة منكم، لا جحيم في الموت أو بعده!

- أريد أن أكتب هذا الكفر في التحقيق؟

- نعم

- هذه وثيقة أخرى صلتك مع المقال، أنت تسعى إلى

الموت؟

- نعم، الموت أفضل من هذه الحياة، سبي يفسد فيها الأسباب لأنه يكتب رأيه في مقال، لأنه يحب الموسيقى والشعر ويجعل، لأنه يكشف، ينظم والنماذج والفساد المستتر تحت اسم الله، أنا أعرف أنكم سوف تقاتلون في السر أو في العلن، وضعت اسمي في قائمة الموت، من أنتم كي تحكموا على الناس بالموت أو بالحياة؟ من أنتم؟ مجموعات من المأجورين سفري، الحاكمة في الداخل والخارج، تدرّبتم على القتل في أفغانستان، تنفقون الأموال والسلاح، تتبادلون النساء والجواري ومن مكنت يمينكم، تظنّون الشوارع والمخفى الطويلة، تغطّي وجوهكم بالشعر وتفرغ رؤسكم من العمل

إحرقن وولد!

سأقول كل ما أريد قبل أن أموت، اسم بلا ضمير ولا أخلاق ولا دين، أنتم عصر الظلام والانحطاط

انطلقت لرصاصات في صدره قبل أن يكمل كلامه، سمع رصاصات مثله، استقرت ثلاث في الصدر، احترقت واحدة انصبت، نهلت رصاصات من الجبهة إلى عذرة الرأس، تبعثرت أجزاء فخذه على الأرض، داسوها بكعوب الأحذية وبتدفق، أرادوا إبادة عقله في عالم قائم على إلغاء العقل.

في اليوم التالي خرجت المظاهرات تهتف باسمه، يحملون صورته فوق الرؤوس مع اللافتات والشعارات، الرجال والنساء والشباب والأطفال، عتال وتلاميذ وموظفون في الدولة من الدرجات الدنيا، بنات وأولاد وللبوا فوق لرصيف، زملاء محمد أحمد في جريدة المعارضة، قناون ومئات مضمرات، فرقة مريم

للموسيقى والماء، معكرون ومعكرات وودت أسمائهم هي قواتهم
الموتى، روجاب مُطلقات، عشيمات مهجورات، باب اغتصبيهن
الرجال الكبار، يحمي أطفالهم فوق صدورهم، فلاحات وبائعات
الجرجير والفجل، خدمات وسكرتيرات وبائعات الهوى، عجائز
يسبرون بالعنكزات، أطفال يعرجون، وقطط وكلاب شاردة
هرجاء، تموء وتعري وتهتم مع الناس، يتصاعد الهتاف برخ
السما والارض:

كفاية ذبي عاوزين تموين

كفاية طفوس عاوزين خموس

كفاية صيام رصلا عاوزين ميه وهوا

كفاية مساح عاوزين محابر

كفاية كابس ومساعد عاوزين مدارس.

انطلقت صدارات الوليس والعسكر بالبنادق والهاونات،
وحراطين الماء والعازات المسيلة للدموع، أجساد الناس تمشي
متلاحمة تصد الدروع، كلهم جسد واحد يمشي لا يحترقه
الرمصاص، مكبرات الصوت تدوي مع الأجراس والصفارات
ودقات الطبول.

سارت عجلات العربات المصفحة فوق أجساد الأطفال
والقطط، نهض الأطفال من تحت العجلات، يضربون الرصاص
بصدور هاربة، نهضت القطط معهم تقاتل، سقطت ثم نهضت،
سقطت ثم نهضت، للقطط سعة أرواح فما بال الإنسان؟ فما بال

هؤلاء الأطفال، عاشوا وماتوا وعاشوا مائة مرة، ألف مرة،
أصبحت الحياة عندهم كالنوم، والموت كالحية

كانت زينة بنت زينات تمشي بينهم، تعرف على العمود
وتعني، يرقد العمود في حضنها كالطفل في حضن الأم، تجري
أصابعها الطويلة على أوتاره بسرعة الضوء، كما كانت تجري على
مناخج البيانو، العمود أقرب إليها من البيانو، تحبسه فوق صدره،
تهدهده في الليل قبل أن تنام، تحبته تحت ضلوعها من عبون
النصوص والوليس، يرقد في حضنها طول الليل، تلمقه داخل
جرب من الجلد، يحميه من البرد والحز، والتراب والحصى
وقطع الزلط، يتجمع الأطفال من حوله، تدرئهم على العرف،
يجمعهم الرصيف وحب الغلاء والموسيقى، يتبدلون العمود
يمزقون بالبديهة دون ورقة ولا نوتة، يعثون للقطر حين تنفتح
الموازين البيضاء، يفتنون للفتح حين تنمع السائل الذهبية تحت
الشمس، ينامون فوق الأرض دون أهل، تعوضهم الموسيقى عن
الأهل، تخفف عنهم الألم والحزن، ترفع روحهم إلى السماء،
تلتصم الجروح في أجسادهم، بهذا الرجوع في صدورهم، ينامون
على صوت الموسيقى، وصوت زينة بنت زينات، تعني لهم حتى
يغلبهم النوم، في الحلم يشدون معاً أغاني الثورة:

- يسطط الظلم، نحبنا الحزينة.

- بلادي بلادي، لك حبي وفوادي.

- مؤرت يا فطن الليل، يا حلاوة هليث يا جميل.

- القمع الليلة ليلة عيد، يلرب تبارك ونربده.

فوق حنبل المسرح كانت واقفة تحت الأضواء. قبل أن
تطلق الرصاصات، الخفلات الكيرناد قطعان من الحجر البركاني
الأزرق، شعبان من نار سوداء ررقاء، يتغير لونهما مع حركة
الأرض حول الشمس، سوداوان ورقاوان بلون الأرض والبحر،
يحوطهما بياض ناصع شفاف بلون الأمواج تحت الشمس، أو قسم
الجيال الشاهقة وراء البحار

مُقلتان متوحدتان كبيرتان، أكبر من عمرها بمائة عام، عرفت
الحياة والموت، عرفت الله والشيطان، لم تعد نحاسهما، يُشرق
وجهها بياضامة طمرلية، تبدد الظلمة مثل أشفة الصبح، تحتضن
العود فوق صدرها، أصابع الطويلة الصلبة تحري فوق الأوتار
بسرعة الكهرباء، أصابع قوية مدنة كالملحير، لا يمكن لأحد أن
يغتصبها، تمررها في أي عتق، أصابع حديدية فاست للصخر،
هصت الرلط، تدق الدرس مع الإبداع. ترفض ونعتي مع الأطفال
أشوده الأم، الأولى حين كانت طفلة

حلم حياتي أن أبنى لأمي بيتاً

من الطوب الأحمر

ليس من طين معجون

تملكه لا يطردها من مخلوق

له سقف يحميها لهيب البحر

وبرد الشتاء

حمام فيه ماء

ولمة كهرباء

تمسح أمتها زيبات وجهها بمنديل أبيض، تحبس دموعها في
قاع عينيها، إلى جوارها تحلس مجيدة الحرتيني، شبح بصوب
مكتوم، نهس في أذنها صاغي صديقة أمتها

- سمعتي طلفات رصاص؟

- ده صوت التصفيق يا طنط صاغي

- ده رصاص يا مجيدة.

- لا يا طنط، زينة واقفة تغني اسمعيا.

صوت التصفيق يطغى على صوت الرصاص، رينة بيت ريبات
واقفة فوق خشة المسرح بجسمها الطويل المنحوق، تحتضن
العود، تلتقي عيناها عيني أمتها ريبات، تعني لها أهية الأم المثالية
حين كانت فتاة في المدرسة

أنا جئت من الأرض وإلى الأرض أعود

أنا لم أمط من الفضاء أو الجحوم

لست أبة الآلهة ولا الشياطين

أنا زينة ولتي هي زينات

أني أعزّ عندي من السماء

أنا عرفت القوط وعرفت النهرين

أسقط وأنهض، وأسقط وأنهض

أموت وأحيا وأموت

واقفة محتضنة العود

كانت ترتدي ثوبها الأبيض من العطر، حيوط حمراء بلور
أندم ترحف من صدرها تحت الصلوع، صوتها يرتفع وهي تعني
وترقص على الإيقاع، الصميق يدوي بصوت الرعد، والأنفاس
تلث

- أعيدي، أعيدي، أعيدي... فريد أعية حلم حياتي
أعديها يا زينة

تبدأ في الغناء من جديد:

- حلم حياتي أن أني لأني بيتاً.

تُغني معها الناس، الرجال والنساء والشباب والأطفال، القاعة
كلها تُغني وترقص معها على الإيقاع

- نورت يا قطي الليل، يا حلاوة عليك يا جميل.

كانت الدماء تنزف من صدرها وهي ولقعة تعزف وتُغني،
الناس من حولها يرفصون ويغنون، حملوها فوق رؤوسهم وساروا
بها وهم ينشدون:

- نحيا زينة بنت زينات يا يعيش، يا يعيش، نحيا زينة بنت
زينات يا يعيش، يا يعيش، نحيا الحزينة، نحيا الحزينة، نحيا
الحب، يحيا «حب» نحيا «موسيقى»
نحيا الموسيقى، يحيا الجمال والعدل والفضيلة، يحيا الحب والعز
والجمال والعدل والفضيلة، نحيا ونه بنت زينات.

كانت تدور الداميري تعني حين سمعت الأصوات، مثلت،

الآف، ملايين، يسرون بهنود، يشلون الأعاني.

كانت تدور تعني جازة الحفلة ذات العجلات، السحابة
السوداء تغطي السماء، تحجب الشمس والقمر، لا تعرف الليل من
النهار، ولا النهار من الليل، تمشي وتمشي في الطريق انطوين
اللاتهاتي، تورمت قدمها من المشي، جلست فوق دكة خشبية
على شاطئ النيل، جلست حذاءها الجبدي الصميق يكعب العالي
الرميح، خلعت الحشد الإلاستيك الصامط على صدرها، خلعت
الدبابيس من شعرها، الأساور الذهبية من يديها، الحوائيم ذات
المصوحس والجعاريس من أصابعها، دُكت فيودها من قمة الرأس
حتى بطر القدمين، تحرر اللحم والعظم من الأسر، انعتك النجم
المربوط حولها، تركت جسدها يسبح فوق الدكة الطويلة كاسفينة.
همس في أعماقها صوت:

- لست روجة ولا أرمنة ولن أرى حزناً، مثل باهل الرانية هي

الإنجيل.

من تحت الدكة رقدت حقيبتها ذات العجلات، داخلها الرواية
يصنُّها اللوسيه الأصغر، وثوبها القطني القديم لونه أبيض، نعوه
بقع دم جفت، ودموع وفطرات عرق لم تجف، من خلال جفونها
نصف المعلقة رأت خيالاً يمشي في الظلام، امرأة عجوز ترتدي
ثوب الحداد، تسير بظهر محسي، قدمها هي حذاء أبيض من
الكاوش أصح بلون الثراب، في يدها كيس بلاستيك أسود،
وجهها شاحب أسمر، أنفاسها تلث، جلست فوق الرصيف،
تحت الكس، تجمّع من حولها سرب من أطفال الشوارع، يات،
وأولاد، وقطط صغيرة مولودة، يستمعون بقايا الحبر داخل

سكيس، قطع لحسم وعظم وأرر، كل ما يفيض عن بيوت العائلات، كل ما يُلقى في الصمامة مع انفصالات، كانت ربات تجمعها في الكس كل يوم، يمشي به إلى شاطئ النيل، إن لم يكن هناك كيس بلاستيك تعلق بقايا الحيز في ورقة من أوراق الصحف، تتعرف على الصور المشورة في الحيز، فوق كل عمود صورة داخل برور، هبوبهم محرومة بشوكة من أشواك السمك المأكول، أو بقطة عظم خدية من اللحم، في الصفحة الأولى صورة الرئيس والسيدة الأولى، وجهاهم ملتصقان بصلصة الطماطم، تفرح بها والدعة البصل والثوم والبطرمة، في الصفحة الثانية صورة وكرتا الخرتيشي، كانت تناديه سيدي، أنفه مبنور بضربة سكين، عموده الطويل مبلل بحساء الدجاج، ساح حبره على الورق، عمت حروفه فوق سائل أسود يشبه الزيت أو الزيت

تجلس زينات فوق الرصيف من حولها القطط والكلاب الشاردة والأطفال، تلعب عيوبهم بالفرح، وهم يلتهمون الفضلات، ينهشون بأسنانهم القوية بقايا اللحم على العظم، يفرقشون العظام والحيز المقدد، تادي أحد الأطفال باسم بها نسيم، عينه تدمع بالجريق، مُقلتان كبيرتان متوقفتان بضوء الشمس، كانت تضع أمامه كوب اللبن، حلته من الجاموسة، مع البيضة المقلية بالسمن السلي، يشتد البريق في عيبه وهو يتشغم الصحن، كان في الدمنة من عصره، يذهب إلى المدرسة، يمشي في المظاهرات يهتف مع الناس:

- يسقط العظم بحيا الحرية

كدموا يادويها يا أمي، يحملون اسمها ربات، كان اسم الأم

يجلب العار للأطعمال، في القاصون والشرع، لكن القطط الصغيرة تنمو باسمها، ربات، عيوبهم تلعب بالبريق في أبساعات طفولية، عظمه يشبه العظم الصغيرة، عساه مستديران واسعتان، معلومتان بالدهشة والفرح، يادويها زينة بنت ربات، البصفتان السوداوان بلون الفخيم، داخل مياض بلون شلح، يحوطهما دائره ررقاء تشتمل باللهب، تصحو من النوم تُعني مع العصافير، ومع الأطفال من حولها:

أمي زمانها جايه، أمي زمانها جايه، جايه ومعها هديه، أمي زمانها جايه، زمانها جايه ومعها هديه ..

كانت أمها قد تركتها فوق الرصيف، سحبت يدها من يدها وهي تهمس في أذنها.

- أنا جايه يا بنني أنا جايه أنا جايه أنا جايه، جايه، ماما زمانها جايه، ماما زمانها جايه يا زينة، ماما جايه جايه ..

فتحت بدور عينها، شلت جفونها وصحت من النوم، رأت ودا زينات جالسة إلى جوارها فوق الدكة الحشية، تفتي لطفاتها:

- ماما زمانها جايه، جايه ومعها هديه

يذوب صوت عائلتها مع الأصوات الآتية من بعيد، آلاف الأصوات، ملايس الأصوات، تعني أغنية الأم، يتصاعد الغناء والتهافت، يرخ الأرض والسماء:

- ده صوت الرعد يا ودا ربات؟

- لا يا بنت بدور، دي سماعات، فومي فومي من

السريـر، كل الناس قامت، نعيم ونسيم وبدرية ومحمد ومجيدة وصافي ومريم وزينة وكل الناس، حتى القبط المولودة يا ست بدور ماشية في المظاهرة تهتف وتقول:

- يحيا العدل.

- هي القبط بتعرف تتكلم يا ماما زينات؟

- أبوه يا بتي، الدنيا اتغيرت والقبط المفتضة فتحت هيونها ونطقت.

نهضت بدور تشد عضلات جسمها، مدت يدها نحت الدكة تبحث عن الحقيبة، تتحسس بطن الحقيبة، ناعمة من الجلد الثمين المتين، كانت متضخمة بأوراق الرواية، مئات الأوراق المكتوبة بالدم والدموع والعرق والشعب، مئات اللبالي سهرت فوق الأوراق تكتب، كان بطن الحقيبة مرتفعاً بالرواية، تحمل الأوراق داخل بطنها وصدرها، وضعتها تحت الدكة الخشبية قبل أن يخلبها النوم، يدها تتحسس بطن الحقيبة، تضغط عليها بكفها، تفحص يدها حتى القاع، يتلاصق جلد البطن مع جلد الظهر دون شيء بينهما، فراغ أسود مفرغ كالموت داخل الحقيبة، تدس يديها داخل الفراغ حتى تفقد الوعي، تحاول الصراخ، تفتح فمها لتصرخ:

- الرواية انسرقت، روابتي يا ناس سرقوها وأنا نائمة.

صوتها يخرج مبحوحاً مشروحاً كأنما في الحلم، يتجمع حولها الناس يسألون:

- مين سرقها يا ست حاتم؟

- مش عارفة، كانت في الشنطة، سرقوا الرواية من جوه الشنطة وأنا نائمة!

- مين يا ستي سرقها؟

- مش عارفة، يمكن البوليس مش عارفة، يمكن الحرامية.

- قصدك البوليس هم الحرامية؟

- يمكن حد ثاني غير البوليس وغير الحرامية.

- حد ثاني مين؟ عارفة اسمه؟ عارفة شكله؟

- مش عارفة يا ناس، مش عارفة، روابتي راحت يا ناس، شفا حمري كله راح يا ناس.

تسلقت بدور الدامهيري حولها في ذهول، تغيب الشمس ويهبط الليل وهي تقلت حولها، تمسح الأرض والسماء بعينيها المسفوحتين في الظلام، تزحف فوق الرصيف تبحث، تمتد يدها تبحث تحت الدكك الخشبية على شاطئ النيل، تتحسس الحجر والزلط، تنخل الشراب بيديها، يتسرب من بين أصابعها كالماء يشرب من ثوب الغريال، لا يبقى شيء في يديها، تتعثر قدمها وهي تمشي في شيء ملفوف داخل ورقة من أوراق الصحف، تفتح الجريدة لا تجد شيئاً، إلا عمود زوجها الطويل الرفيع، يتلوى تحت يدها مثل ثعبان، يغطيه الطين ويراز الكلاب الشاردة، وضعت نظارتها وقرأت عموده بصعوبة في الضوء الغارب:

- تقدمت بعض النسوة من الأتهات الناقبات عن مليونين من الأطفال غير الشرعيين، بمشروع قانون جديد لمجلى الشعب والشورى، يسمح للعقل ابن الزنى غير المعروف الأب أن يحمل

اسم أمه، أن تُحذف كلمة ابن الزنى من قاموس اللغة، أن يكون
لاسم الأم الشرف كاملاً مثل اسم الأب، هذا المشروع أيها القراء
الأعزاء تم رفضه بالكامل في المجلسين الموقرين، رفضه جميع
الأعضاء الرجال والنساء، لأنه يشجع على الفساد، والحرية
الجنسية للنساء، وقد تم تقديم هؤلاء النسوة إلى المحاكمة بتهمة
الخروج على الدين الحنيف، وتهديد النظام العام للدولة، لكن من
أجل الرأفة بهؤلاء الأطفال المساكين، وقد زاد عددهم عن مليوني
طفل وطفلة، تقدمت اللجنة العليا بالحكومة، لرعاية الأسومة
والطفولة، بمشروع آخر لمجلسي الشعب والشورى، يسمح للطفل
ابن الزنى أن يحمل اسم أبي رجل، يكون بمثابة الأب الوهمي
للطفل، من أجل الحفاظ على حقوق الطفل البريء، وقد حظي
هذا المشروع بموافقة الأزهر الشريف، والحكومة، لكن أعضاء
المجلسين الموقرين يدرسون المشروع من كافة النواحي التشريعية،
فهو مشروع شائك محفوف بالمخاطر والمترقات الأخلاقية.

لم تكن بدور الداعية في فدا ماتت بعد، كانت تعيش أيامها الأخيرة مع دادا زينات في غرفتها بالبدروم، بدأت تكتب رواية جديدة، لكن مشقة العيش لم تساعد على الكتابة، لم تعود بدور النوم في سرير خشبي غير مريح، لا تستطيع الجلوس على الأرض الإسفلت، لا تستطيع النوم في غرفة تجري فيها الصراخ، تظن في أذنيها أصوات الذباب والبعوض، تلوح لها غرفة نومها في جاردن سيتي كالجنة المفقودة.

نهضت بلور الدماهيري من النوم، أخذت تجري في الشارع، تتوقف قليلاً لتأخذ نفساً، ثم تجري وتجري، رأت الرواية تحمل اسم زوجها. روايتها التي كتبها بالدم والعرق وسهر الليالي، هي روايتها التي كتبها، كل كلمة كل حرف كل نقطة، كل شرطة، كل همزة، كل شدة، كل فتحة وكل كسرة، هي روايتها، مشورة في كل مكان باسم الكاتب الكبير زكريا الخرتيتي.

١. تقديم الرجال للمحاكمة في حالة ثبوت الخيانة الزوجية.

٣. يحق للأب أن يعطي اسمها لطفلها غير المعروف الأب.

تمددت بدور الداهيري فوق الرصيف، أصبح جسدها
ممدوداً فوق الإسفلت، تحت لهيب الشمس وصقيع البرد، جفونها
نصف مغلقة، نصف مفتوحة، صدرها لا يعلو ولا يهبط، لا شيء
فيها يتحرك، إلا ثوبها القطني الأبيض الخفيف، يحركه الهواء،
ترفعه الريح عن جسدها المراقد فوق الرصيف، من حولها أطفال
الشوارع يمشون:

- ماما زمانها جايه، جايه وماما هديه...

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

